الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعة المرقب

كليـة الآداب والعلوم / ترهونـة

قسـم التاريـــخ

شعبـة القديـم

بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الإجازة العالية الماجستير

في التاريخ القديم

الإمبراطور قسطنطين والمسيحيـة

(٣٠٦ ـ ٣٣٧م)

إعداد الطالب :

عبد العالي علي الفيتوري .

إشـراف :

د/ أحمد محمد انديشه .

عام ٢٠٠٨م

المحـــــتويات

المقدمـة

كان على المسيحية أن تنتظر ثلاثة قرون منذ بعثة المسيح (عليه السلام) كي تحصل علـى أول اعتراف رسمي بها من قبل الإمبراطورية الرومانية ، فقد استطاعت المسيحية أن تحافظ على وجودها وكيانها طوال تلك الفترة ، وتتحمل كل أشكال الاضطهاد الذي وقع عليها من الأباطرة الرومان ، إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين (Constantn) إلى الحكم سنة ٣٠٦م الذي أوقف الاضطهاد المُمارس عليها ومنحها حقوقها كباقي الديانات الأخرى ، وجعلها ديانة قانونية وشرعية داخل الإمبراطورية واستطاع عن طريق عمل تحالف بين الإمبراطورية والمسيحية أن يوحد الإمبراطورية وحدة واحدة تحت لوائه ، وأقام حاضرة جديدة للإمبراطورية في الشرق كانت حصناً للديانة الجديدة ، حتى صار سيد الإمبراطورية الأول والكاهن الأعظم، وزعيم المسيحية الأول وأسقفها الأكبر. وهذه الدراسة تتناول الديانة المسيحية والإمبراطور قسطنطين والعلاقة بين الإمبراطورية والمسيحية في زمن قسطنطين منذ توليه الحكم حتى وفاته .

وتدور إشكالية الدراسة حول تطور وتغير العلاقة بين المسيحية والإمبراطورية ، من علاقة اضطهاد وملاحقة قبل قسطنطين إلى علاقة اتحاد ومؤالفة في زمنه.

وهناك العديد من التساؤلات التي كان على الدراسة الإجابة عليها منها الأسباب التي جعلت الإمبراطورية في زمن قسطنطين تغير من نظرتها للطائفة المسيحية وتمنحها حقوقها وترفع القيود المفروضة على أتباعها ، حتى تحصلت على الاعتراف الرسمي بها من الإمبراطورية ، فقد كانت علاقة المسيحية بالإمبراطورية متوترة طوال فترة القرون الثلاثة الأولى وكانت أكثر توتراً في النصف الثاني من القرن الثالث حتى نهاية زمن دقلديانوس ٣٠٥م ، وعند استلام قسطنطين للحكم تغيرت علاقة الدولة العدائية بالمسيحية بل وسارت المسيحية والإمبراطورية معاً بقيادة قسطنطين .

لماذا حاربت الإمبراطورية الرومانية الديانة الجديدة منذ بداية ظهورها واضطهدت أتباعها وضيقت عليهم ثم تغير الموقف إلى الاعتراف بها ؟ فهل كان ذلك للضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية ومن ورائها الوثنية ؟ أم أنه لقوة الديانة الجديدة التي أراد قسطنطين الاستفادة من جهود أتباعها ؟ أم إن ذلك كان لإيمان قسطنطين واقتناعه بمبادئ المسيحية ؟

ومن تلك التساؤلات ما هي الأسباب التي دعت الإمبراطور قسطنطين إلى التفكير في بناء مدينة جديدة في شرق الإمبراطورية خاصة أن هذه المدينة ساهمت بشكل أو بآخر في تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين فيما بعد ؟ وكذلك كيف اختار قسطنطين موقع المدينة ؟ وهل كانت أعمال قسطنطين مثل بناء القسطنطينية والاعتراف بالديانة الجديدة عوامل قوة ساهمت في تماسك الدولة أم إنها هي التي ساهمت في إضعاف الإمبراطورية وأدت إلى انقسامها وسقوط عاصمتها القديمة روما في أيدي الجرمان ؟

ويتطلع الباحث إلى تحقيق العديد من الأهداف من خلال هذه الدراسة ، ومن أول تلك الأهداف التي سيحققها الباحث من الدراسة هو الخروج بدراسة جيدة حول التاريخ الروماني ومحاولة التعمق والخروج بفكرة واضحة عن أحوال الرومان في هذه الفترة ، ومن أهداف الدراسة أيضاً هو محاولة تغطية النقص في المكتبة التاريخية المحلية للكتابة حول تاريخ المسيحية ، فإن معظم الدراسات التاريخية تقتصر على النواحي السياسية والعسكرية وأحياناً قليلة تراها تتطرق إلى النواحي الدينية ، فالناحية الدينية لم تلق الاهتمام الكافي من قبل الباحثين والمتخصصين وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة .

وكذلك تظهر أهمية الدراسة أنه في الفترة التي تغطيها أصبحت المسيحية ديانة شرعية للإمبراطورية وحصلت على اعتراف رسمي بها من قبل الإمبراطور قسطنطين ، وبدأت المسيحية على إثر ذلك تدخل في كل أرجاء الإمبراطورية حتى أصبحت الدين الرسمي لمعظم أجزاء الدولة البيزنطية في الشرق والرومانية في الغرب .

وتكتسي هذه الدراسة أهميتها في أنها تحاول إلقاء المزيد من الضوء على فترة مهمة جداً في التاريخ الروماني أو في التاريخ بشكل عام ، لأن زمن حكم الإمبراطور قسطنطين يعتبر مرحلة انتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، وكذلك ترجع أهمية هذه الفترة (٣٠٦ . ٣٣٧م) في أنها كرست ورسخت لتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين ، وتأكد هذا التقسيم بعد بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق وهي القسطنطينية .

واتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي السردي ، مع اللجوء إلى مناقشة بعض الأحداث واستنطاق المواقف كلما ساعدت المصادر.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على العديد من المصادر والمراجع التي تتناول تاريخ تلك الفترة يأتي على رأسها الكتاب المقدس العهد الجديد ، وكتابات يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي

المعاصر لفترة الدراسة في مؤلفيه تاريخ الكنيسة وحياة قسطنطين ، وبعض الإشارات التي وردت عند تاكيتوس وبليني ولوشيان عن المسيح ، وكذلك على الكثير من المراجع العربية والمترجمة مثل كتابات رأفت عبد الحميد عن تاريخ الكنيسة ، والإمبراطورية البيزنطية بين الفكر والدين والسياسة ، وسيد الناصري تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، وتاريخ الروم ، وسعيد عبد الفتاح عاشور أوربا في العصور الوسطى ، والسيد الباز العريني أوربا في العصور الوسطى والدولة البيزنطية ، والعديد من الكتب المترجمة مثل ول ديورانت قصة الحضارة ، وادوارد جيبون اضمحلال الإمبراطورية ، والسير هامرتون تاريخ العالم ، وأندريه أيمار روما وإمبراطوريتها ، ونورمان كانتور العصور الوسطى الباكرة ، وتشارلز وورث ، الإمبراطورية الرومانية ، بالإضافة إلى بعض الكتب الأجنبية .

وقسمت الدراسة إلى ثلاثة فصول يتناول الفصل الأول الأحوال العامة للإمبراطورية والمسيحية قبل زمن قسطنطين وقد قسم هذا الفصل بدوره لثلاثة مباحث ، الأول يقدم لمحة مختصرة عن الإمبراطورية الرومانية منذ ظهور المسيحية حتى القرن الثالث الميلادي زمن تردي أوضاع الإمبراطورية ، ويستعرض الأحوال السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، والتي أدت إلى ضعف الإمبراطورية في القرن الثالث حتى تولي الإمبراطور دقلديانوس السلطة سنة ٢٨٤م وما قام به من إصلاحات سياسية وعسكرية واقتصادية ساهمت في تخفيف حدة الأزمة والتدهور الذي تتعرض لها الإمبراطورية طيلة القرن الثالث .

وفي المبحث الثاني خصص لاستعراض أحوال المسيحية باختصار منذ ظهورها حتى تولي قسطنطين الحكم ، فيشير إلى الحياة الدينية للعالم الروماني قبيل ظهور المسيحية ثم التعرض للمسيح وميلاده ودعوته والأناجيل والحواريون ، والأحوال الدينية للإمبراطورية قبيل زمن قسطنطين ، والمبحث الثالث تناول العلاقة بين المسيحية والإمبراطورية قبل عهد قسطنطين من حيث موقف الرومان من المسيحية في بداية ظهورها والأسباب التي ساعدت في انتشارها ، ثم فترة اضطهاد المسيحية والأسباب التي دفعت الرومان (حكومةً وشعباً) إلى تغيير نظرتهم إلى المسيحية ومن ثم محاربتها ومطاردة أتباعها .

والفصل الثاني: خصص للحديث عن الإمبراطور قسطنطين وأعماله وإصلاحاته حيث يركز المبحث الأول على الإمبراطور قسطنطين منذ توليه الحكم سنة ٣٠٦م حتى انفراده بالحكم بعد انتصاره على ليكينيوس ٢٢٤م ، وعن ولادته ونشأته وتوليه الحكم وحروبه مع منافسيه حتى

تصفيتهم واحداً واحداً ، والمبحث الثاني يتناول إصلاحات قسطنطين السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، والمبحث الثالث يشير إلى اتجاه الإمبراطورية نحو الشرق ، وبناء العاصمة الجديدة ، أسبابه ونتائجه على الإمبراطورية .

والفصل الثالث والأخير يتناول العلاقة بين الإمبراطورية والمسيحية من سنة ٣٠٦م إلى ٣٣٧م ودور قسطنطين في ذلك ، ففي المبحث الأول يشار إلى موقف قسطنطين من المسيحية في بداية توليه الحكم ومرسوم ميلان ، والاعتراف بالمسيحية ديانة شرعية داخل الإمبراطورية ، وحقيقة إيمان قسطنطين هل كان مسيحياً صادقاً ، أم إن ما فعله قسطنطين هو عبارة عن حركة سياسية أراد من وراءها أهداف أخرى ، والمبحث الثاني يتعرض إلى موقف قسطنطين من الصراعات الدينية داخل المسيحية ، ودوره في عقد المجامع الدينية ، ويذكر مثالين لهذا الصراع الديني الذي حدث بين أتباع المسيحية ، المثال الأول الدوناتية ، ذلك الصراع الذي حدث بين المسيحيين في شمال أفريقيا حول مصير الذين اعترفوا ولم يثبتوا أمام الاضطهاد الذي حدث في زمن دقلديانوس هل يعتبروا مسيحيين أم إنه لابد من تعميدهم قبل الاعتراف بهم من الكنيسة المسيحية ، ويشير إلى موقف الحكومة الرومانية وقسطنطين من هذه الطائفة والتي اعتبرها البعض محاولة من السكان المحليين للإطاحة بالحكم الروماني ؛ والمثال الثاني وهو الخلاف الآريوسي الإثناسيوسي الذي حدث في كنيسة الإسكندرية وانتشر منها إلى معظم أجزاء الإمبراطورية خاصة في الشرق ، ودور قسطنطين في هذا الجدل الدائر حول طبيعة المسيح وعلاقته بالله ، وتم الحديث عن مجمع نيقية وقراراته ، ودور قسطنطين فيه ثم يختم هذا الفصل بنتائج الاعتراف بالمسيحية على الإمبراطورية والمسيحية ، وهناك خاتمة دوّن فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الفصل الأول

الأحوال العامة للإمبراطورية الرومانية والديانة المسيحية قبل زمن قسطنطين

المبحث الأول: الإمبراطورية

المبحث الثاني: المسيحية

المبحث الثالث: الصراع بين الإمبراطورية الرومانية (الوثنية) والمسيحية

المبحث الأول : الإمبراطورية

أولاً : أحوال الإمبراطورية الرومانية أثناء ظهور المسيحية.

ثانيا : أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي.

١. الأحوال السياسية والعسكرية.
٢. الأحوال الاقتصادية والاجتماعية.

ثالثاً: الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) وإصلاحاته .

١. إعادة الهيبة لمنصب الإمبراطور .
٢. الإصلاحات السياسية والإدارية.
٣. الإصلاحات العسكرية .
٤. الإصلاحات الاقتصادية .

رابعاً: نتائج وآثار الإصلاحات .

أولاً : أحوال الإمبراطورية الرومانية أثناء ظهور المسيحية .

لقد بزغ فجر المسيحية في عالم رفرف فيه العلم الروماني في الشرق والغرب حيث كانت الإمبراطورية الرومانية تشكل أعظم وحدة سياسية وحضارية عرفها التاريخ ؛ إذ لم تبلغ أية إمبراطورية في العالم قديماً وحديثاً ما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية من اتساع حيث ضمت هذه الإمبراطورية داخل حدودها أغلب حضارات العالم القديم عدا بلاد فارس والهند ، وامتدت حدودها من الفرات شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وبلاد العرب جنوباً والدانوب شمالاً ، فشملت البلاد الواقعة في الغرب المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وإليريا وإيطاليا فضلاً عن أفريقيا من طرابلس حتى موريتانيا على المحيط الأطلسي ، أما في الشرق فقد شملت بلاد البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين بالإضافة إلى الشام ومصر وبرقة ، بل إن نفوذ روما امتد إلى ما وراء حدودها السياسية ليصل إلى فارس والهند وبلاد النوبة وإلى دواخل الصحراء الكبرى كما بلغ الشعوب الواقعة شرق الراين المعروفة بالشعوب الجرمانية[١].

وكانت الإمبراطورية الرومانية في أزهى عصورها وقمة مجدها في هذه الفترة الممتدة من اعتلاء أغسطس (Augustus)العرش ٢٧ ق.م إلى وفاة ماركوس أوروليوس (Marcus Aurelius) ١٨٠م ، ورغم قوتها إلا أنها لم تلجأ دائما إلى القوة في حكم هذه البلاد ، بل استعانت بالذكاء وحسن التدبير ، وحاول أغسطس في أثناء حكمه الطويل (٢٧ق.م . ١٤م) أن يجعل الرومان متساويين في الحقوق والواجبات مع الشعوب الأخرى المنضوية تحت سلطتهم ، فقد اهتم بكل شؤون الدولة الداخلية مثل الزراعة والصناعة والتجارة وحتى الدين والأخلاق واهتم بالشؤون الخارجية بتوفير الأمن للدولة وتحصينها ضد أي تهديد خارجي فنشرت الكتائب العسكرية على حدود الولايات ووضعت ثمان كتائب على نهر الراين وثمان على نهر الدانوب وثمان في سوريا وتكفل الأسطول الروماني بحراسة سواحل الدولة في البحر المتوسط ، ولم يمت

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ط٦ ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص١١.

أغسطس إلا بعد أن نشر النظام والاستقرار في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ووضع نظام حكم مستقر وهيأ لها الأمن والعدالة[١].

وكانت حكومة الرومان منذ زمن أغسطس حتى إصلاحات دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م) حكومة أقرب إلى الملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري ، أو بمعنى أقرب إنها ظلت جمهورية مع وجود رأس للدولة والجيش يتمتع بمنصبه طوال حياته ، واستمر مجلس الشيوخ يمارس سلطاته ، وظلت الوظائف العليا بأيدي الأرستقراطية وكبار الملاك ، كما بقي المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة ، فالنظام السياسي الذي وضعه أغسطس يعتبر وسطاً بين النظامين الملكي الاستبدادي والجمهوري الدستوري[٢] ، ولكن ومع كل ذلك فقد عاب البعض على الإمبراطورية الرومانية افتقارها لقانون وراثي ثابت ينظم طريقة تداول السلطة ورئاسة الإمبراطورية [٣].

أما بخصوص أوضاع المنطقة التي ظهرت فيها الديانة المسيحية فقد دخلت تحت السيادة الرومانية عندما قضى بومبيوس على القراصنة في سنة ٦٤ق.م وفتح سوريا وفلسطين [٤] ، وأطلق على هذه المنطقة ولاية سوريا والتي كانت تسمى مملكة سوريا (خريطة رقم ١)، وكانت ذات أهمية كبيرة للرومان فجُعلت ولاية إمبراطورية ، وُضعت تحت الحكم المباشر لنائب (legate) للإمبراطور الروماني برتبة قنصل ومنح سلطات واسعة وتتراوح مدة وظيفته من ثلاث إلى خمس سنوات ، فمنحت لسوريا وبلاد الغال أشرف المناصب التي تمنحها الإمبراطورية وأكثرها قيمة ، وكانت سوريا في الشرق وبلاد الغال في الغرب مركزين للسلطة العسكرية الرومانية [٥].

---

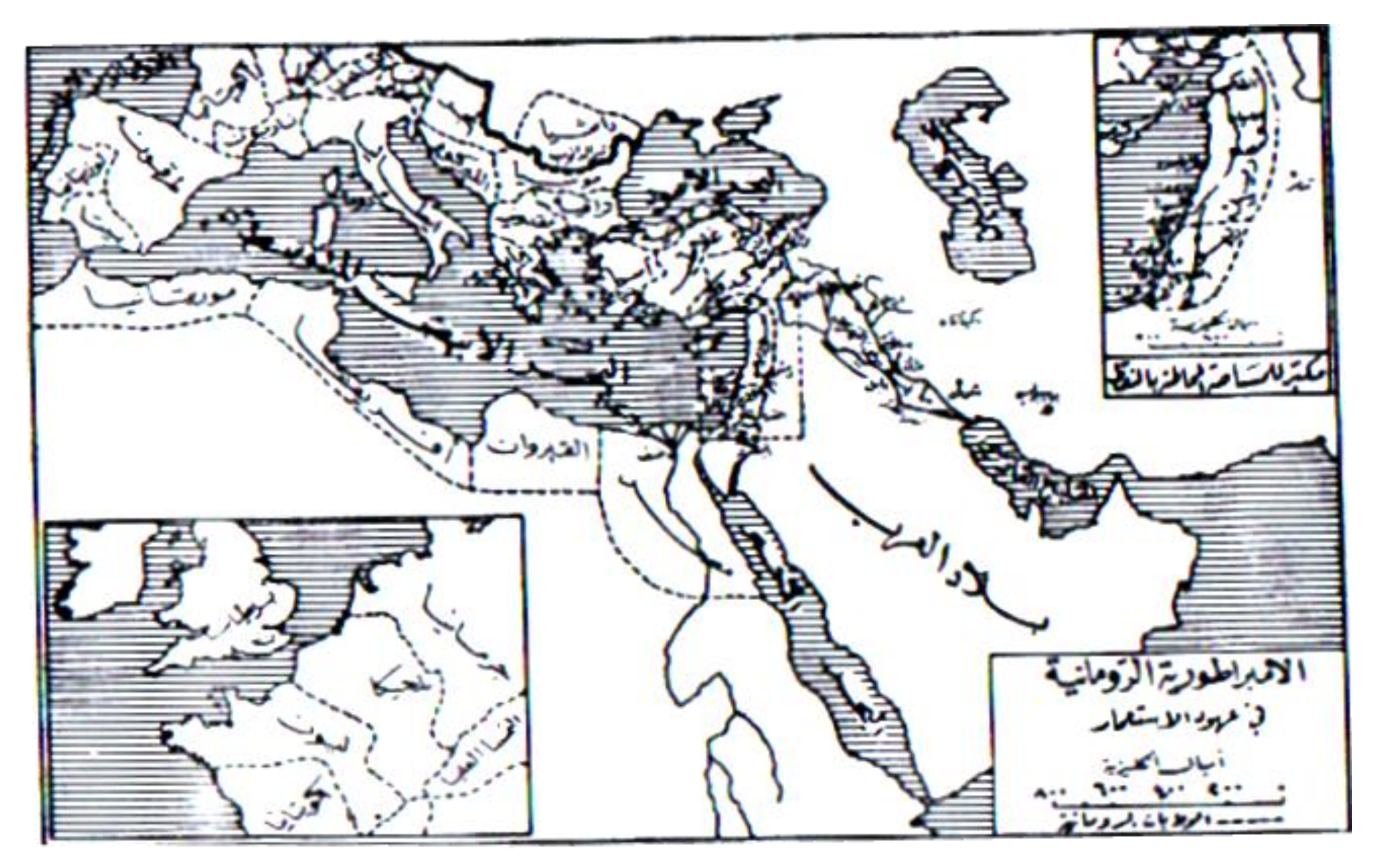
(١) هـ. سانت ل.ب.موس ، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ . ٨١٤م ، ت. عبدالعزيز توفيق جاويد والسيد الباز العريني الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص١٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٣) نورمان كانتور ، العصور الوسطي الباكرة القرن الثالث / القرن التاسع الميلادي ، ت. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة د.ت ، ص٣٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص١٤ .

(٤) فليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ، ت. جورج حداد . عبدالكريم رافق ، م جبرائيل جبور ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، د.ت ، ص٣٠٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٣١٥ .



خريطة رقم (١) سوريا في أوائل الإمبراطورية الرومانية

فليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.

ولكن الحرب الأهلية في روما كان لها وقع سيء على سوريا التي كانت أرضها مسرحاً لهذه الحرب ، وأثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية الثانية[١] التي كان اكتافيوس (أغسطس) عضواً فيها كانت سوريا ومصر من نصيب أنطونيوس الذي دام حكمه أربع سنوات (٤٠ – ٣٦ ق.م) والذي أهمل شؤون الدولة وانهمك في لهوه ومجونه مع كليوباترا ، ومن المعلوم إن أنطونيوس هذا هو الذي أوصل الأسرة الهيرودية إلى السلطة وكان مؤسس

---

(١) سميت بالحكومة الثلاثية لأنها كانت تتكون من ثلاثة أعضاء ، والحكومة الثلاثية الأولى تشكلت في عام ٥٩ ق.م وكان أعضاءها هم يوليوس قيصر وبومبيوس وكراسوس ، وقد حدث صراع بينهم استطاع يوليوس قيصر تصفية منافسَيه والانفراد بالحكم سنة ٤٨ ق.م ، أما الحكومة الثلاثية الثانية تشكلت بعد اغتيال قيصر سنة ٤٤ق.م وأعضاءها هم اكتافيوس (أغسطس)وأنطونيوس وليبيدوس ، واستطاع اكتافيوس تصفية غريمَيه وحكم الإمبراطورية منفرداً حيث انتهى في فترة حكمه نظام الحكم الجمهوري الذي كان يسيّر الإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٥٠٨ ق.م ، وقد استمر حكم اكتنافيوس إلى ما بعد الميلاد حتى سنة ١٤م : حسن صبحي بكري ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، عالم الكتاب للنشر ، الرياض ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٦٨ . ٢٧٣ ؛

Abdulhafid Fadil Elmayer, Tripolitania and the Roman Empire (B.C 47 – A.D 235) , Markaz jihad al-libyin – studies centre series.8, dar al-kotob, Tripoli 1997, P. 31.

هذه الأسرة سياسياً ماكراً وهو هيرودس الأكبر* (٣٧ . ٤ ق.م) حيث وُلّي حاكم على اليهود في أورشليم تحت السيادة الرومانية ، وقد استطاع هيرودس أن ينفرد بالحكم كملك في سنة ٣٧ ق. م ، وبقى يدير الأمور لمدة ٣٣ سنة ، وقد وُلد المسيح (عليه السلام) في عهده إذ إنه مات بعد سنتين من ميلاد المسيح [١].

ومن خلال ما سبق فإنه من الممكن القول أن المسيحية نشأت في ثلاثة عوالم مختلفة ولكنها اتحدت فيما بينها واندمجت ووفرت الجو المناسب الذي ولدت فيه هذه الديانة الجديدة.

العالم الأول : العالم الشرقي ، فقد ولدت المسيحية في الشرق مهد الحضارات ومنبت الديانات ، وظهرت المسيحية في منطقة من الشرق تابعة للإمبراطورية الرومانية تسود فيها الديانة اليهودية ، وكانت شعوب هذه المنطقة حريصة على شعائرها الدينية ونظمهما الاجتماعية رغم تبعيتهما للرومان ، وقد سادت المذاهب الفكرية وبشكل كبير في هذه المنطقة التي حدث فيها اختلاط بين الشرق والغرب منذ ما قبل الميلاد حين غزا الاسكندر الشرق سنة ٣٣٣ق.م ، حيث انتشرت فيها الكثير من المذاهب الفلسفية ومن أهمها الفيثاغورية والابيوقورية والرواقية ، وقد تناول كثير من العلماء الأثر الكبير الذي تركته هذه المذاهب في العالم الروماني خاصة مذهب الرواقية ، حتى أن كثيراً من الساسة والملوك والرؤساء والقادة تباهوا بالانتماء إلى هذا

---

* ويرجح أنه من أصل عربي وقد أسرفت كتب العهدين القديم والجديد في تشويه سمعته ، وذُكر في الأناجيل بتآمره على ميلاد المسيح ، وكان هيرودس صديقا للرومان ومحباً للحضارة الإغريقية الرومانية ، ولذا اتهمه اليهود بالخروج عن الديانة اليهودية وبالقسوة والشراسة وحبه لسفك دماء اليهود المعارضين لسياساته ، ولكنه كان بالإضافة إلى كفاءته العسكرية أحد المظاهر الحضارية في الشرق ، فقد كان شديد التأثر بالحضارة الإغريقية فشيد مضامير الخيول (Hippodromes) والمسارح والمدرجات على الطراز الإغريقي ، بالإضافة إنه كان رياضياً عظيماً ومن المحتمل أنه كان حكماً (Agonothetes) في أولمبيا ، وارتبط اسمه ببناء المدن في فلسطين مثل قيصرية (Caesare) ، وسباست (Sebaste) ، بالإضافة إلى إعادته لبناء المعبد الكبير في بيت المقدس وتوسيعه وتجميله : سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ط ٣ ، دار النهضة العربية القاهرة ، د.ت ، ص١٨٣ ؛ عرفان شهيد ، روما والعرب مقدمة لدراسة بيزنطة والعرب ، ت. محمد فهمي عبدالباقي محمود ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة د.ت ، ص١٠٦.

(١) فيليب حتي ، مرجع ،سابق ، ص٣١٢ .

المذهب ، وكان عدد كبير من اليهود مشتتين في العالم فكانت هناك جاليات يهودية كبيرة في معظم الولايات الرومانية ، وهؤلاء هم الذين شكلوا نواة المسيحية الأولى خارج أرض فلسطين[١].

العالم الثاني : هو العالم أو الحضارة الإغريقية (اليونانية) ، فقد كانت منطقة البحر المتوسط متأثرة جداً بالثقافة الإغريقية خاصة في المدن الكبرى ، فبينما بسطت روما نفوذها السياسي بسطت الحضارة الإغريقية لغتها وفلسفتها ، فقد اهتم الإغريق بالتعمق في دراسة كل ما يتعلق بالفكر والحياة مثل نشأة العالم وفكرة الوجود والله والإنسان ، ومن أقطاب الفكر الإغريقي الذين ساهموا في النهضة في الفلسفة وعلوم الدين والأخلاق منذ القرن السادس حتى الثالث قبل الميلاد سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م) وإفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) وأبيقور (٣٢٤ . ٢٧٠ ق.م) وزينو (٢٠٧ ق.م) وغيرهم .

وهناك خدمة أخرى قدمها الإغريق ساهمت في نشر الديانة المسيحية وهي اللغة الإغريقية التي سادت بلدان شاطئ البحر المتوسط فقد كانت الأناجيل التي كتبها الرسل مكتوبة باللغة الإغريقية وذلك سهل عملية الدعوة لهذه الديانة في الوسط الذي يجيد الحديث بهذه اللغة (خريطة رقم ٢) ، فكانت أينما اتجهت الجيوش الرومانية تحمل معها أرقى الحضارة فسارت عظمة الرومان جنباً إلى جنب مع ثقافة الإغريق ، وكان الروماني مثالاً للقوة والعظمة بينما كان الإغريقي مثالاً للفكر والجمال [٢]، وهناك عالم ثالث آخر كان له شأن مع العالمين السابقين وهو :

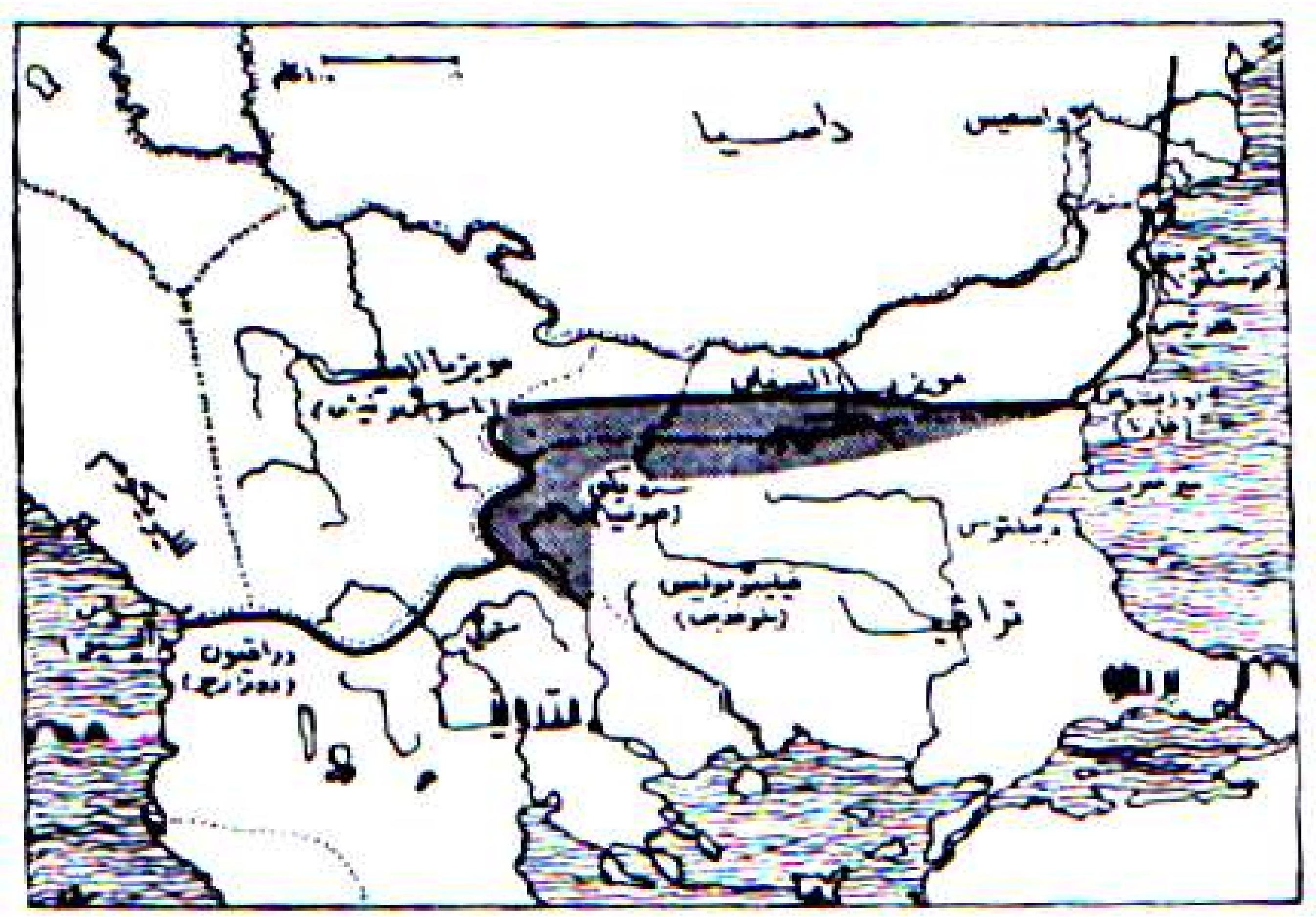
العالم الثالث : الرومان ، فقد بزغت بذور المسيحية الأولى في عالم روماني امتاز بالقوة والسلطة وبسط النفوذ ففرضوا أنفسهم على العالم ، فسنوا الشرائع والقوانين وكانت إدارتهم الحازمة وعبقريتهم السياسية الممهد المناسب للمسيحية ، وكانت السمة البارزة في العالم الروماني في فترة الميلاد هي السلام الروماني (Romana Pax) فالحروب توقفت بفضل

---

(١) عباس محمود العقاد ، حياة المسيح ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٣م ، ص٨٤ ؛ القس أمير اسحق راعي كنيسة اللاذقية (تاريخ المسيحية) أضواء على التاريخ المسيحي في القرون الخمسة الأولى ، ٢٠٠٣م ، www.revameer.com .

(٢) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، تاريخ الحضارات العام **روما وإمبراطوريتها** ، ت. فريد م. داغر وفؤاد ج. أبوريحان ط٣ ، منشورات عويدات ، بيرون – باريس ، ١٩٩٤م ، ص ص٣٦١ . ٣٦٤ .

مجهودات بعض الأباطرة ، إلا أنه ورغم هذه الثروة المادية الكبيرة فقد كان ينقصهم ويعوزهم ديانة توحد جهودهم وتحفظ مكانتهم الحضارية الأمر الذي كان ملائماً لميلاد الديانة الجديدة [1].



خريطة رقم (٢) مواطن اللغات في الإمبراطورية وحدودها.

الخطوط المعكوسة تشير إلى المناطق التي انتشرت فيها اللاتينية في القرن الثالث ، أما في الجنوب فالمستعمرات التي أنشأها الأباطرة للمعمرين اللاتين ، مثل ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، حيث اللغة اللاتينية هي أداة التعبير : أندريه أيمار وجانين أوبوايه روما وإمبراطوريتها.

إذن لقد بزغت المسيحية في عالم شرقي الديانة حيث النبوآت والدين ووحدانية الله وإغريقي الثقافة حيث الفكر والجمال والفلسفة ، وروماني السياسة حيث القوة والعظمة والسلطة وكل منهم مهد الطريق للمسيحية بشكل معين:

الشرقي : بناموسه الإلهي ونبوآته .

والإغريقي : بعقليته الباحثة وميله للإقناع والاقتناع .

والروماني : بشرائعه ونظمه الحكيمة[2].

---

(١) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص٣٤ ، ٣٦ .

(٢) راعي كنيسة اللاذقية ، مرجع سابق .

ثانيا : أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي.

من المعلوم أن روما انتقلت من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري بعد التخلص من حكم الأتروسكيين سنة ٥٠٨ ق.م وقد استغرق هذا النظام الخمس قرون الأولى قبل الميلاد نجحت فيه روما في تدعيم نظامها السياسي في الداخل ، واستطاعت مد نفوذها وتوسيع رقعة أراضيها في الخارج خاصة بعد خروجها منتصرة في الحروب البونية وتدميرها لقرطاجة سنة ١٤٦م ، حتى أصبحت قبل الميلاد بسنوات قليلة قوة سياسية واقتصادية هائلة ودولة عظمى في ميزان العالم القديم ، فقد أقامت روما نظام حكم دستوري استجاب لحاجة المجتمع وتطور تطوراً إيجابياً وفقاً لمصلحة البلاد ، وخلال العصر الجمهوري كذلك تمت الفتوحات الكبرى وبلغت روما شأواً عظيماً من حيث اتساعها ونفوذها ، وعلى الرغم من أن إعلان الإمبراطورية في نهاية القرن الأول قبل الميلاد في زمن أغسطس (٢٧ ق. م . ١٤م) جاء على حساب النظم الدستورية الجمهورية السائدة في ذلك الوقت إلا أنه ما لبثت أن أصبحت روما في أثناء النظام الإمبراطوري في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي أعظم قوة سياسية وحضارية عرفها التاريخ خاصة بعد أن ضمت الإمبراطورية إليها بلاد الإغريق ومناطق الشرق المتمثلة في الشام ومصر وهي البلدان العريقة حضارياً ، إذ زادت هذه البلاد من زخم ونفوذ روما الحضاري والثقافي والاقتصادي ، وكان من الطبيعي أن يواجه الرومان الكثير من الإشكالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والدينية نتيجة اتصالهم بشعوب كثيرة وتحكمهم السياسي والحربي في أقاليمها(١) .

وبدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر واضحة على الإمبراطورية في نهاية القرن الثاني الميلادي ، وبدأت أكثر وضوحاً خلال القرن الثالث الميلادي ، إذ يبدو أن تأثير روما الحضاري لم يستطع أن يسع جميع الشعوب والرعايا بطريقة متكافئة وخاصة شعوب الشرق التي كانت صاحبة السيادة الحضارية والسياسية قبل الرومان بعشرات القرون ، وكانت شعوب الشرق تحمل داخل أراضيها تركة حضارية هائلة توقفت تحت الضغط الخارجي وذلك إثر سيادة الاسكندر على الشرق ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنعها من محاولة أداء دورها السياسي والحضاري مرة ثانية ، ولذلك وجد الرومان صعوبات كثيرة في عملياتهم الحربية في شرقي البحر المتوسط

---

(١) رشيد الناظوري ، تاريخ المغرب الكبير ، **الجزء الأول** ، العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م ، ص ص٣١٤ . ٣١٥ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، مكتبة الجمهورية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩م ، ص١٤.

وخاصة في أرمينيا وبنطوس وبارثيا وسوريا وفلسطين ومصر[١] ، وبقيت تلك الشعوب محافظة على عاداتها ودياناتها وتراثها ولغاتها رغم تبعيتها سياسياً لروما ، ولم تستطع روما إلا بسط سيطرتها السياسية فقط على هذه الشعوب لكنها وُوجهت بمقاومة حضارية كبيرة حتى تفوقت عليها شعوب الشرق في ذلك [٢].

ومن الأشياء الملاحظة في القرن الثالث الميلادي أن كثافة السكان لم تكن متعادلة بين شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي فقد ازدادت أعداد السكان في الشطر الشرقي بفعل الرخاء الاقتصادي وكثرة موارد وخيرات الولايات الشرقية ، وارتفع تبعاً لذلك مستوى الحياة الاقتصادية والفكرية والثقافية للسكان مقارنة بالجانب الغربي الذي كان يعاني من نقص موارده الاقتصادية ومن الحروب الأهلية فضلاً على انتشار الأوبئة والأمراض خاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق والتي زادت في انخفاض أعداد السكان واضمحلال في المستوى الحضاري والثقافي في الشطر الغربي من الإمبراطورية[٣].

ولكن الأحوال ازدادت سوءاً مع بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى سنة ٢٨٤م عندما تولى دقلديانوس السلطة ، فقد انتشرت الحروب الأهلية بين قادة الفرق الرومانية في مختلف الولايات وازدادت ضغوط الجرمان على الحدود الرومانية من الشمال والغرب بالإضافة إلى ظهور الخطر الفارسي في الشرق ، وزادت تبعا لذلك نفقات الإمبراطورية لمواجهة تلك

---

(١) رشيد الناضوري ، مرجع سابق ، ص٣٠١ .

(٢) ر.هـ. بارو ، الرومان ، ت. عبدالرزاق يسري ، م سهير القلماوي ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٨م ، ص ص ١٧١ . ١٧٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص١٤ ؛ والجدير بالذكر أنه ورغم ارتباط شعوب الشرق وبالخصوص العرب بالإغريق والرومان ، وامتداد المواطنة الرومانية لتشملهم مع بقية شعوب الإمبراطورية سنة ٢١٢م وفق دستور كراكلا (Caracalla)، إلا أن الحضارة اليونانية الرومانية ظلت سطحية المظهر في حياتهم وإن كانت تفاوتت درجة محافظتهم على هويتهم ، فلم يندمجوا مع الرومان أو لم يكن اندماجهم كاملاً ، وحافظوا على أبجديتهم وعلى ديانتهم وقوانينهم وظلوا أوفياء لعادات أسلافهم وطقوسهم السامية ، فقد اعتادوا على امتصاص صدمات الغزاة الجدد عسكرياً وثقافياً ، لأنهم كانوا مركز الصدارة السياسية والحضارية عند ظهور الرومان ، وكذلك بسبب قربهم من المستودع البشري والحضاري المتمثل في شبه الجزيرة العربية : للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر عرفان شهيد ، مرجع سابق ، ص ص٣٧ . ١٠٥.

(٣) سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢١ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، مرجع سابق ، ص١٤ .

الأخطار وهذه الأمور ألقت بظلالها على الحياة الاقتصادية التي أصبحت تعاني من انحطاط في الزراعة وكساد التجارة وتدهور الصناعة وانخفاض مستوى العملة [١].

وللوقوف على أحوال الإمبراطورية لابد من استعراض الأحوال السياسية والاقتصادية والدينية للإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث الميلادي والتعرف من خلالها عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى ضعفها خلال هذا القرن حتى اعتلاء دقلديانوس الحكم (٢٨٤ . ٣٠٥م) وما قام به من إصلاحات إدارية وسياسية ساهمت إلى حد ما في انتشال الإمبراطورية من أزمتها ، وأدت تلك الإصلاحات فيما بعد (بسبب تحول الإمبراطورية نحو الشرق) إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين غربي وعاصمته روما القديمة وشرقي وهو الذي يطلق عليه الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية (بيزنطة) التي أنشأها قسطنطين سنة ٣٣٠م وهذه السنة التي أنشئت فيها القسطنطينية تعتبر على تقدير كثير من الباحثين هي البداية للعصور الوسطى في أوربا ، وانتهت بسقوطها في القرن الخامس عشر الميلادي [٢].

١. الأحوال السياسية والعسكرية.

بدأ النظام الذي وضعه أغسطس يتدهور في القرن الثالث الميلادي وعانت الإمبراطورية من صعوبات داخلية أدت إلى بلبلة مجهودات الأباطرة وأصابت بالشلل الأوضاع الداخلية والخارجية للإمبراطورية ، ولم يفلح الأباطرة والمصلحون الرومان من رأب الصدع الذي حلَّ بالدولة في تلك الفترة ، وأول تلك الصعوبات هو الحروب الأهلية والصراع حول عرش الإمبراطورية. فمما لاشك فيه إن عدم الاستقرار السياسي هدد كيان الإمبراطورية ووجودها وعرض مؤسساتها للدمار وانتشر الفساد في جميع نواحي الحياة السياسية ، فبعد مقتل كراكلا (Caracalla) (٢١١ . ٢١٧م) سنة ٢١٧م بدأت سلسلة من الاغتيالات السياسية وأخذ الجيش

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني (قسطنطين) ، ط٢ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص٣٥ ؛ نورمان بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، ط٢ ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ص١ .

(٢) هـ.أ.ل.فشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ت. محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط٥ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦م ، ص ١١ ؛ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ص ١٣ . ١٤ .

الروماني يتدخل في شؤون الحكم وعانت الإمبراطورية من أمراض مزمنة تتمثل في مسألة خلافة العرش والاغتصابات الكثيرة التي حدثت لمنصب الإمبراطور فلم يكن هناك نظام ثابت ينظم طريقة تداول وانتقال السلطة وأكبر دليل على هذه الفوضى هو زوال عدد كبير من الأباطرة بشكل سريع [١] .

وأخذ الجيش الروماني يسعى لتحقيق مآربه في السلطة والحكم ، فالانتصار في الحرب يكون مبرراً كافياً لأي قائد عسكري ومن أي طبقة اجتماعية لأن يندفع إلى المقدمة للتنافس حول منصب الإمبراطور ، وأضحت روما متاعاً للجيش الذي حاد عن مهمته الأساسية المتمثلة في حفظ الأمن بالداخل والدفاع عن حدود الدولة الخارجية إلى التدخل في شؤون الحكم وعزل وتولية الأباطرة ، وكان على كل إمبراطور وبمجرد توليه الحكم أن يواجه منافسين طوال فترة حكمه التي غالبا ما تكون قصيرة لا يتيسر له فيها أن يقيم النظام ، وكانت الجيوش تولي الأباطرة وتعزلهم لأتفه الأسباب ، واستخدم العسكر كل ما لديه من قوة لنهب الأقاليم دون رحمة ، واستشرى النزاع كذلك بين جيوش الولايات وتحكمت فرق الأقاليم في اختيار قادتها[٢]غير عابئة برغبة الإمبراطور ومجلس الشيوخ فبدلا من أن يمارس الإمبراطور سلطاته عن طريق الجيش أصبح الجيش يدير شؤون الدولة عن طريق الإمبراطور الذي يختاره وأدت هذه الصراعات أيضا إلى ظهور مجموعات وحركات انفصالية داخل الجيش تنافست على المناصب المهمة في الدولة [٣].

وأصبح نظام الحكم الروماني نظاماً استبدادياً يعتمد على العسكر في ممارسة سلطاته وأضحى مجلس الشيوخ ألعوبة في أيدي رجال الجيش ، وأصبح كل هم الإمبراطور هو كسب ولاء الجند ، فقد أدت الحروب الأهلية التي أعقبت مقتل كومودس (١٨٠ . ١٩٢م) عام ١٩٢م إلى اقتناع سبتيموس سيفيروس (Septimius Severus) بأن القوة العسكرية وولاء الجند هو

---

(١) حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ط٥ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ص ص١٩ . ٢٠ .

(٢) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص١٦ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢٠ .

(٣) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٣٦ ؛ بارو ، مرجع سابق ، ص ص١٧٢ .١٧٣ نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٣٧ .

أهم شي وقد ظهر ذلك في نصيحته لابنه ووريثه (كراكلا)من بعده قائلا : " أجزل العطاء للجند ولا تلق بالاً للآخرين " [١].

ويكفي أن نشير إلى مدى ما وصلت إليه الإمبراطورية من عدم استقرار سياسي أنه تولى العرش في فترة نصف القرن بين عامي ٢٣٥ . ٢٨٤م ستة وعشرون إمبراطورا كلهم لقوا مصرعهم ولم يمت منهم إلا واحداً ميتة طبيعية[٢]، وفي ولاية غالـه وحدها بين عامي ٢٥٧ . ٢٧٣م كان هناك خمسة أباطرة ، وبالتالي لم يستطع أباطرة الدولة النظر إلى أمراض الإمبراطورية ومعالجتها لأنه كان كل شغلهم هو حماية أنفسهم من المنافسين لهم على السلطة بتحريض العسكر [٣].

وكان لهذه الصراعات الداخلية بين فرق الجيش أثر سيئ على البنية الداخلية للشعب الروماني إذ أوجدت فجوة عميقة بين الإمبراطور والرعية وظهرت المعارضة الكثيرة بين المواطنين وزاد حنق الناس على الإمبراطورية [٤] ، وازدادت الأمور سوءاً بانتشار الأوبئة والأمراض بين المواطنين في إيطاليا وبلاد الإغريق وذلك منذ سنة ١٦٦م ، وكان وقع هذه الأوبئة بالإيطاليين شديداً إذ لم يعد في إيطاليا وروما خصوصا سوى القليل من السلالات القوية والعريقة والتي كانت تكون الطبقة الأرستقراطية والتي يخرج منها عادة الأباطرة وأعضاء مجلس الشيوخ وقادة الجيوش[٥] ، وخلال هذا القرن كذلك لم يعد منصب الإمبراطور مقصوراً على

---

(١) أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ١٩٩٣م ، ص٩٩ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة، ص٣٦ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, P. 113.

(٢) أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠١ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, P. 115.

(٣) رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ت. زكي علي ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، د.ت ، ص٢٠٦ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص١٦ ؛ السيد الباز العريني ،تاريخ أوربا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٦٨م ، ص١٢ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣(. ١٠٨١م) ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٨٢م ، ص٢٣.

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص١٦ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٥) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص١٦ . ١٧ ؛ سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢١ .

المواطنين ذوي الأصل الروماني بل أصبح هذا المنصب مطلباً لكل القادة العسكريين حتى كان أحد الأباطرة سورياً وأخر عربياً وآخر إفريقياً(١).

وجري التغير كذلك في نظام الجيش الروماني الذي كان يتألف أساساً من المواطنين ذو الأصل الروماني والمواطنين الرومان المقيمين بالأقاليم ، وتشكلت الفرق العسكرية في معظمها من هاتين الفئتين*، فكان الجيش الروماني يمثل الفئة البالغة الاستنارة من بين نسيج الشعب الروماني في ذلك الوقت ، إلا أنه ونظرا لحاجة الإمبراطورية المتزايدة للجنود لمواجهة الفتن الداخلية والأخطار الخارجية وخاصة خطر الجرمان ، ولتعويض الأعداد التي فقدت إما في المعارك الداخلية أو بسبب الأوبئة والأمراض جرى تجنيد أعداد كبيرة من المشتغلين بالزراعة وبعض الحرف الأخرى ، كما أضحت حرفة الجندية وراثية إذ كان أفراد الجيش يعيشون في المعسكرات والمنازل المحيطة بها وليس لأطفالهم إلا أن يمتهنوا حرفة آبائهم وبالتالي دخل في الجيش رجال قليلي الخبرة والكفاية وأقل مدنيةً وتحضراً ، وخاصة السكان القاطنين بأطراف الإمبراطورية مثل سكان تراقيا وإليريا وأفريقيا وسكان الجبال في آسيا الصغرى وبلاد الشام ، هذا فضلاً عن تجنيد أعداد كبيرة من الجرمان وجبال أسبانيا وشمال غالة(٢).

---

(١) وهم سبتيموس سيفيروس والذي يرجح أنه كان فينيقي الأصل وتحديداً من مدينة لبدة الكبرى (Leptis Magna) في ليبيا الحالية والإمبراطورين إيلاجابوليس Elagabolus (٢١٧ . ٢٢٢م) والاكسندر سيفيروس Alexander Severus (٢٢٢ . ٢٣٥م) وهما من سوريا ، والإمبراطور فليبوس العربي Philippus Arapik (٢٤٤ . ٢٤٩م) : السيرهامرتون ، تاريخ العالم ، الجزء الثالث (الإمبراطورية في دور الانحلال٢١١ . ٣٣٠م) ، ت. محمد غنيم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت ، ص ص٩٤ ، ١٠١ ؛ عرفان شهيد ، مرجع سابق ، ص ص٨٩ . ٩٦ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص٩٦ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, PP. 97-98

* كان الجيش الروماني يعتمد أساساً على أبناء روما ثم من إيطاليا ، وعندما ازدادت الحاجة إلى الجنود جُندوا من الأقاليم الغربية كأسبانيا وبلاد الغال ، وكانت كلما تقلصت حدود الإمبراطورية كان التجنيد المحلي يمد الجيش بجنود أوفر وأفضل ، ولكن عندما دخل القرن الثالث كان الجنود الرومان يُجندون من نفس القبائل التي كان على الجيش أن يكبح جماحها ، مثل القبائل الجرمانية الغربية ، والقبائل الوافدة من الدانوب ومن إليريا ودلماشيا وهي التي لم يتم صبغها بالصبغة الرومانية : بارو مرجع سابق ، ص١٧٢ .

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص١٦ . ١٧ ؛ بارو ، مرجع سابق ، ص١٧٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط، ص١٧ .

أما عن الأخطار الخارجية فإن أكبر ما كانت تواجهه الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي كان يتمثل في تهديد الجرمان* (البرابرة) لحدودها الشمالية وتوغلهم داخل هذه الحدود حتى إن أحد الباحثين يصف أثر غارات البرابرة على الإمبراطورية بأنه كان عميقا جداً في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية والمعنوية بل إنها ساهمت في إنها العالم القديم وبداية مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية [١].

فقد أغار الفرنجة على أراضي الراين سنة ٢٥٣م وسنة ٢٥٦م وغزا القوط مواشيا سنة٢٥١م ونهبوا بلاد اليونان واستولوا على شبه جزيرة القِرم وخربوا بعض المدن في آسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود ، واندفعت قبائل الجرمان من خلال الألب وهددوا شمال إيطاليا ٢٧٠م ، كما أغار السكسون على سواحل بريطانيا ونهبوها ، وشكلت القبائل الجرمانية أحلافاً فيما بينها ضد الرومان تهدف إلى انتزاع السيادة الرومانية ، ومن جهة الشرق ازداد خطر الساسانيين الذي كان على الإمبراطورية أن تواجه تنامي أطماعهم فقد أخذ الفرس منذ سنة ٢٣٣م يهددون أرمينيا وبلاد ما بين النهرين والشام تهديداً خطيراً حتى إنهم تمكنوا من إنزال الهزيمة بالإمبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ . ٢٦٠م) وأسره على يد الملك الفارسي شابور عام ٢٦٠م[٢]، وكذلك ظهور الثورات والانتفاضات ضد الحكم الروماني في شكل دول

---

* الجرمان هم أقوام كانوا يحتلون المنطقة التي تسمى اليوم ألمانيا والنمسا وسائر شمال أوربا ، وهم فرع من العرق الآري الذي كان يسكن قديما آسيا أو من الأجناس الهندوأوربية وانفصلوا عن القبائل الآرية التي تتجه بسيرها نحو الغرب منطلقة من آسيا واستقر المقام بالقبائل الجرمانية في بداية العصور التاريخية في حوض نهري الأودر والإيليب ، وكانوا شقر الشعر زرق العيون ، يقيمون في قرى ويسكنون أكواخاً بسيطة ينقلونها عند ترحالهم ، ولم يميلوا إلى الاشتغال بالزراعة بل امتهنوا حرفة الرعي ، وكانوا يجهلون الكتابة ، ولا يتعاطون التجارة أقوياء البنية يميلون إلى الحرب والغزو والنهب ، يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها ، أما كلمة المتبربرين أو البرابرة التي أطلقت عليهم فهي كلمة قديمة ظهرت في الإلياذة ، وتدل على الاحتقار والازدراء وتغير مفهومها فيما بعد لتصبح تعني الصغار أو الانحطاط الاجتماعي والفكري وقد أطلقها إفلاطون وأرسطو على الشعوب التي لا تفقه الإغريقية ، فمفهومها عند اليونان يعني غير مثقف أو فظ ومتوحش وأخذت اللاتينية هذه الكلمة وأطلقوها على كل الأعداء الذين يهددون الثقافة الإغريقية . اللاتينية . والدولة الرومانية : نورالدين حاطوم ، الموسوعة التاريخية الحديثة ، تاريخ العصر الوسيط في أوربة ، الجزء الأول (من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر) دار الفكر ، ١٩٦٧م ، ص ص١٥ . ١٦ ؛ أسد رستم ، تاريخ الروم ، الجزء الأول ، دار المكشوف بيروت لبنان ، ١٩٥٥م ، ص ص١٧ . ١٨ .

(١) نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٤٦ .

(٢) رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة١٩٩٧م ص٢٤ .

الفصل الأول

الأحوال العامة للإمبراطورية الرومانية والديانة المسيحية قبل زمن قسطنطين

المبحث الأول: الإمبراطورية

المبحث الثاني: المسيحية

المبحث الثالث: الصراع بين الإمبراطورية الرومانية (الوثنية) والمسيحية

المبحث الأول : الإمبراطورية

أولاً : أحوال الإمبراطورية الرومانية أثناء ظهور المسيحية.

ثانيا : أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي.

١. الأحوال السياسية والعسكرية.
٢. الأحوال الاقتصادية والاجتماعية.

ثالثاً: الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤.٣٠٥م) وإصلاحاته .

١. إعادة الهيبة لمنصب الإمبراطور .
٢. الإصلاحات السياسية والإدارية.
٣. الإصلاحات العسكرية .
٤. الإصلاحات الاقتصادية .

رابعاً: نتائج وآثار الإصلاحات .

أولاً : أحوال الإمبراطورية الرومانية أثناء ظهور المسيحية .

لقد بزغ فجر المسيحية في عالم رفرف فيه العلم الروماني في الشرق والغرب حيث كانت الإمبراطورية الرومانية تشكل أعظم وحدة سياسية وحضارية عرفها التاريخ ؛ إذ لم تبلغ أية إمبراطورية في العالم قديماً وحديثاً ما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية من اتساع حيث ضمت هذه الإمبراطورية داخل حدودها أغلب حضارات العالم القديم عدا بلاد فارس والهند ، وامتدت حدودها من الفرات شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وبلاد العرب جنوباً والدانوب شمالاً ، فشملت البلاد الواقعة في الغرب المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وإليريا وإيطاليا فضلاً عن أفريقيا من طرابلس حتى موريتانيا على المحيط الأطلسي ، أما في الشرق فقد شملت بلاد البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين بالإضافة إلى الشام ومصر وبرقة ، بل إن نفوذ روما امتد إلى ما وراء حدودها السياسية ليصل إلى فارس والهند وبلاد النوبة وإلى دواخل الصحراء الكبرى كما بلغ الشعوب الواقعة شرق الراين المعروفة بالشعوب الجرمانية[١].

وكانت الإمبراطورية الرومانية في أزهى عصورها وقمة مجدها في هذه الفترة الممتدة من اعتلاء أغسطس (Augustus)العرش ٢٧ ق.م إلى وفاة ماركوس أوروليوس (Marcus Aurelius) ١٨٠م ، ورغم قوتها إلا أنها لم تلجأ دائما إلى القوة في حكم هذه البلاد ، بل استعانت بالذكاء وحسن التدبير ، وحاول أغسطس في أثناء حكمه الطويل (٢٧ق.م . ١٤م) أن يجعل الرومان متساويين في الحقوق والواجبات مع الشعوب الأخرى المنضوية تحت سلطتهم ، فقد اهتم بكل شؤون الدولة الداخلية مثل الزراعة والصناعة والتجارة وحتى الدين والأخلاق واهتم بالشؤون الخارجية بتوفير الأمن للدولة وتحصينها ضد أي تهديد خارجي فنشرت الكتائب العسكرية على حدود الولايات ووضعت ثمان كتائب على نهر الراين وثمان على نهر الدانوب وثمان في سوريا وتكفل الأسطول الروماني بحراسة سواحل الدولة في البحر المتوسط ، ولم يمت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ط٦ ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص١١.

أغسطس إلا بعد أن نشر النظام والاستقرار في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ووضع نظام حكم مستقر وهيأ لها الأمن والعدالة[١].

وكانت حكومة الرومان منذ زمن أغسطس حتى إصلاحات دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م) حكومة أقرب إلى الملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري ، أو بمعنى أقرب إنها ظلت جمهورية مع وجود رأس للدولة والجيش يتمتع بمنصبه طوال حياته ، واستمر مجلس الشيوخ يمارس سلطاته ، وظلت الوظائف العليا بأيدي الأرستقراطية وكبار الملاك ، كما بقي المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة ، فالنظام السياسي الذي وضعه أغسطس يعتبر وسطاً بين النظامين الملكي الاستبدادي والجمهوري الدستوري[٢] ، ولكن ومع كل ذلك فقد عاب البعض على الإمبراطورية الرومانية افتقارها لقانون وراثي ثابت ينظم طريقة تداول السلطة ورئاسة الإمبراطورية [٣].

أما بخصوص أوضاع المنطقة التي ظهرت فيها الديانة المسيحية فقد دخلت تحت السيادة الرومانية عندما قضى بومبيوس على القراصنة في سنة ٦٤ق.م وفتح سوريا وفلسطين [٤] ، وأطلق على هذه المنطقة ولاية سوريا والتي كانت تسمى مملكة سوريا (خريطة رقم ١)، وكانت ذات أهمية كبيرة للرومان فجُعلت ولاية إمبراطورية ، وُضعت تحت الحكم المباشر لنائب (legate) للإمبراطور الروماني برتبة قنصل ومنح سلطات واسعة وتتراوح مدة وظيفته من ثلاث إلى خمس سنوات ، فمنحت لسوريا وبلاد الغال أشرف المناصب التي تمنحها الإمبراطورية وأكثرها قيمة ، وكانت سوريا في الشرق وبلاد الغال في الغرب مركزين للسلطة العسكرية الرومانية [٥].

---

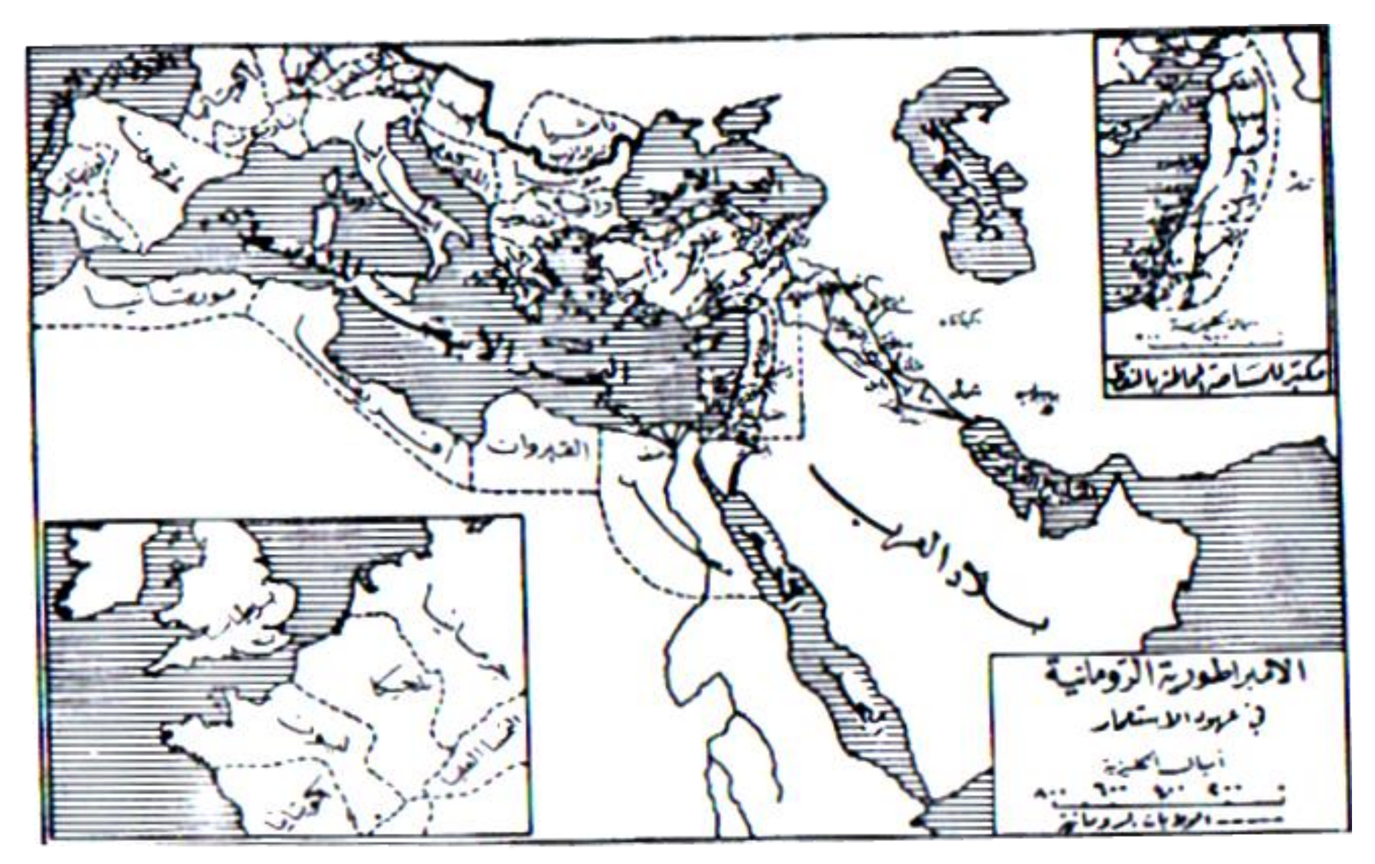
(١) هـ. سانت ل.ب.موس ، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ . ٨١٤م ، ت. عبدالعزيز توفيق جاويد والسيد الباز العريني الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص١٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٣) نورمان كانتور ، العصور الوسطي الباكرة القرن الثالث / القرن التاسع الميلادي ، ت. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة د.ت ، ص٣٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص١٤ .

(٤) فليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ، ت. جورج حداد . عبدالكريم رافق ، م جبرائيل جبور ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، د.ت ، ص٣٠٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٣١٥ .



خريطة رقم (١) سوريا في أوائل الإمبراطورية الرومانية

فليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.

ولكن الحرب الأهلية في روما كان لها وقع سيء على سوريا التي كانت أرضها مسرحاً لهذه الحرب ، وأثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية الثانية(١) التي كان اكتافيوس (أغسطس) عضواً فيها كانت سوريا ومصر من نصيب أنطونيوس الذي دام حكمه أربع سنوات (٤٠ – ٣٦ ق.م) والذي أهمل شؤون الدولة وانهمك في لهوه ومجونه مع كليوباترا ، ومن المعلوم إن أنطونيوس هذا هو الذي أوصل الأسرة الهيرودية إلى السلطة وكان مؤسس

---

(١) سميت بالحكومة الثلاثية لأنها كانت تتكون من ثلاثة أعضاء ، والحكومة الثلاثية الأولى تشكلت في عام ٥٩ ق.م وكان أعضاءها هم يوليوس قيصر وبومبيوس وكراسوس ، وقد حدث صراع بينهم استطاع يوليوس قيصر تصفية منافسَيه والانفراد بالحكم سنة ٤٨ ق.م ، أما الحكومة الثلاثية الثانية تشكلت بعد اغتيال قيصر سنة ٤٤ق.م وأعضاءها هم اكتافيوس (أغسطس)وأنطونيوس وليبيدوس ، واستطاع اكتافيوس تصفية غريمَيه وحكم الإمبراطورية منفرداً حيث انتهى في فترة حكمه نظام الحكم الجمهوري الذي كان يسيّر الإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٥٠٨ ق.م ، وقد استمر حكم اكتنافيوس إلى ما بعد الميلاد حتى سنة ١٤م : حسن صبحي بكري ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، عالم الكتاب للنشر ، الرياض ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٦٨ . ٢٧٣ ؛
Abdulhafid Fadil Elmayer, Tripolitania and the Roman Empire (B.C 47 – A.D 235) , Markaz jihad al-libyin – studies centre series.8, dar al-kotob, Tripoli 1997, P. 31.

هذه الأسرة سياسياً ماكراً وهو هيرودس الأكبر* (٣٧ . ٤ ق.م) حيث وُلّي حاكم على اليهود في أورشليم تحت السيادة الرومانية ، وقد استطاع هيرودس أن ينفرد بالحكم كملك في سنة ٣٧ ق. م ، وبقى يدير الأمور لمدة ٣٣ سنة ، وقد وُلد المسيح (عليه السلام) في عهده إذ إنه مات بعد سنتين من ميلاد المسيح (١).

ومن خلال ما سبق فإنه من الممكن القول أن المسيحية نشأت في ثلاثة عوالم مختلفة ولكنها اتحدت فيما بينها واندمجت ووفرت الجو المناسب الذي ولدت فيه هذه الديانة الجديدة.

العالم الأول : العالم الشرقي ، فقد ولدت المسيحية في الشرق مهد الحضارات ومنبت الديانات ، وظهرت المسيحية في منطقة من الشرق تابعة للإمبراطورية الرومانية تسود فيها الديانة اليهودية ، وكانت شعوب هذه المنطقة حريصة على شعائرها الدينية ونظمهما الاجتماعية رغم تبعيتهما للرومان ، وقد سادت المذاهب الفكرية وبشكل كبير في هذه المنطقة التي حدث فيها اختلاط بين الشرق والغرب منذ ما قبل الميلاد حين غزا الاسكندر الشرق سنة ٣٣٣ق.م ، حيث انتشرت فيها الكثير من المذاهب الفلسفية ومن أهمها الفيثاغورية والابيوقورية والرواقية ، وقد تناول كثير من العلماء الأثر الكبير الذي تركته هذه المذاهب في العالم الروماني خاصة مذهب الرواقية ، حتى أن كثيراً من الساسة والملوك والرؤساء والقادة تباهوا بالانتماء إلى هذا

---

* ويرجح أنه من أصل عربي وقد أسرفت كتب العهدين القديم والجديد في تشويه سمعته ، وذُكر في الأناجيل بتآمره على ميلاد المسيح ، وكان هيرودس صديقا للرومان ومحباً للحضارة الإغريقية الرومانية ، ولذا اتهمه اليهود بالخروج عن الديانة اليهودية وبالقسوة والشراسة وحبه لسفك دماء اليهود المعارضين لسياساته ، ولكنه كان بالإضافة إلى كفاءته العسكرية أحد المظاهر الحضارية في الشرق ، فقد كان شديد التأثر بالحضارة الإغريقية فشيد مضامير الخيول (Hippodromes) والمسارح والمدرجات على الطراز الإغريقي ، بالإضافة إنه كان رياضياً عظيماً ومن المحتمل أنه كان حكماً (Agonothetes) في أولمبيا ، وارتبط اسمه ببناء المدن في فلسطين مثل قيصرية (Caesare) ، وسباست (Sebaste) ، بالإضافة إلى إعادته لبناء المعبد الكبير في بيت المقدس وتوسيعه وتجميله : سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ط ٣ ، دار النهضة العربية القاهرة ، د.ت ، ص١٨٣ ؛ عرفان شهيد ، روما والعرب مقدمة لدراسة بيزنطة والعرب ، ت. محمد فهمي عبدالباقي محمود ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة د.ت ، ص١٠٦.

(١) فيليب حتي ، مرجع ،سابق ، ص٣١٢ .

المذهب ، وكان عدد كبير من اليهود مشتتين في العالم فكانت هناك جاليات يهودية كبيرة في معظم الولايات الرومانية ، وهؤلاء هم الذين شكلوا نواة المسيحية الأولى خارج أرض فلسطين[1].

العالم الثاني : هو العالم أو الحضارة الإغريقية (اليونانية) ، فقد كانت منطقة البحر المتوسط متأثرة جداً بالثقافة الإغريقية خاصة في المدن الكبرى ، فبينما بسطت روما نفوذها السياسي بسطت الحضارة الإغريقية لغتها وفلسفتها ، فقد اهتم الإغريق بالتعمق في دراسة كل ما يتعلق بالفكر والحياة مثل نشأة العالم وفكرة الوجود والله والإنسان ، ومن أقطاب الفكر الإغريقي الذين ساهموا في النهضة في الفلسفة وعلوم الدين والأخلاق منذ القرن السادس حتى الثالث قبل الميلاد سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م) وإفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) وأبيقور (٣٢٤ . ٢٧٠ ق.م) وزينو (٢٠٧ ق.م) وغيرهم .

وهناك خدمة أخرى قدمها الإغريق ساهمت في نشر الديانة المسيحية وهي اللغة الإغريقية التي سادت بلدان شاطئ البحر المتوسط فقد كانت الأناجيل التي كتبها الرسل مكتوبة باللغة الإغريقية وذلك سهل عملية الدعوة لهذه الديانة في الوسط الذي يجيد الحديث بهذه اللغة (خريطة رقم ٢) ، فكانت أينما اتجهت الجيوش الرومانية تحمل معها أرقى الحضارة فسارت عظمة الرومان جنباً إلى جنب مع ثقافة الإغريق ، وكان الروماني مثالاً للقوة والعظمة بينما كان الإغريقي مثالاً للفكر والجمال [2]، وهناك عالم ثالث آخر كان له شأن مع العالمين السابقين وهو :

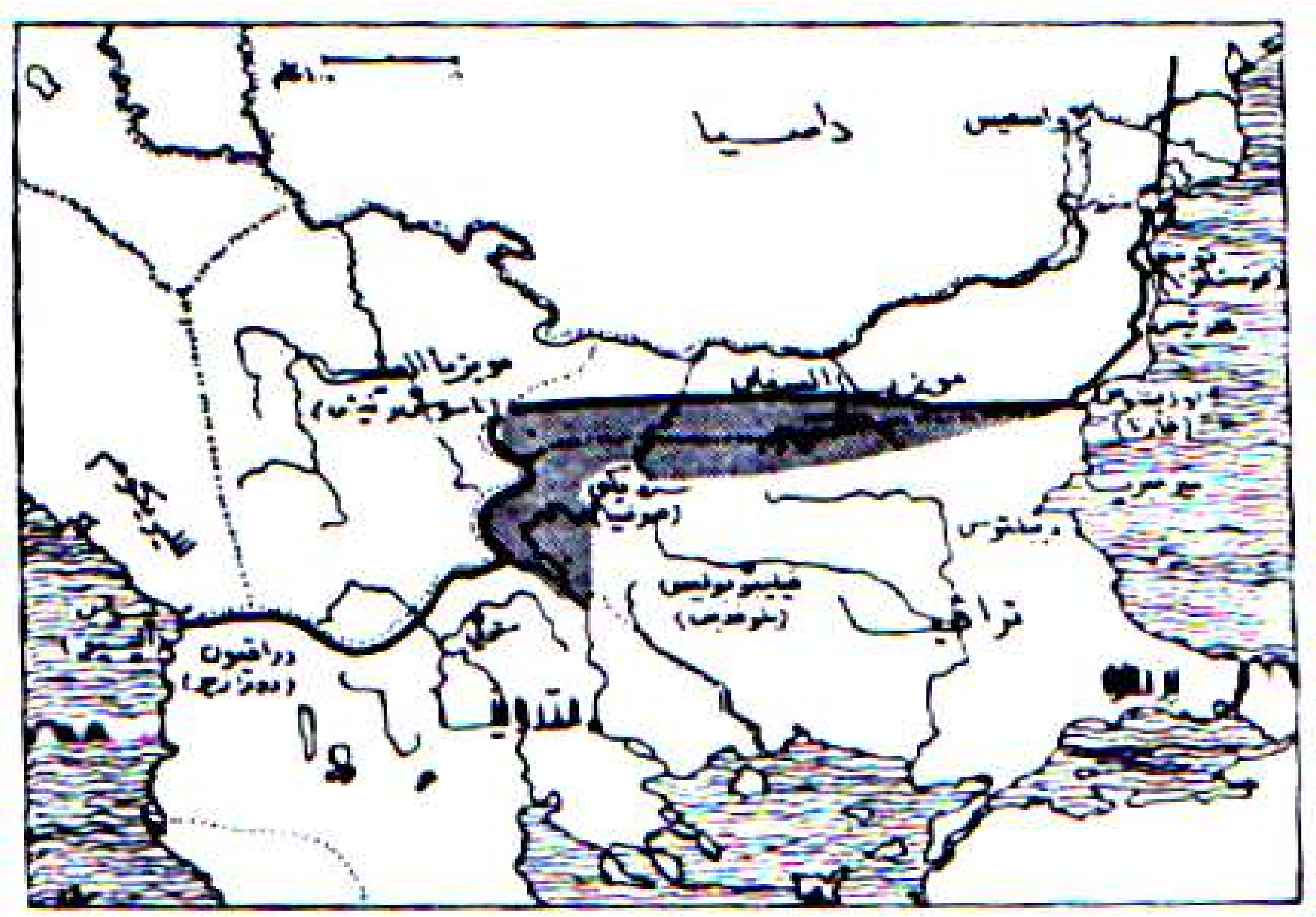
العالم الثالث : الرومان ، فقد بزغت بذور المسيحية الأولى في عالم روماني امتاز بالقوة والسلطة وبسط النفوذ ففرضوا أنفسهم على العالم ، فسنوا الشرائع والقوانين وكانت إدارتهم الحازمة وعبقريتهم السياسية الممهد المناسب للمسيحية ، وكانت السمة البارزة في العالم الروماني في فترة الميلاد هي السلام الروماني (Romana Pax) فالحروب توقفت بفضل

---

(١) عباس محمود العقاد ، حياة المسيح ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٣م ، ص٨٤ ؛ القس أمير اسحق راعي كنيسة اللاذقية (تاريخ المسيحية) أضواء على التاريخ المسيحي في القرون الخمسة الأولى ، ٢٠٠٣م ، www.revameer.com .

(٢) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، تاريخ الحضارات العام **روما وإمبراطوريتها** ، ت. فريد م. داغر وفؤاد ج. أبوريحان ط٣ ، منشورات عويدات ، بيرون – باريس ، ١٩٩٤م ، ص ص٣٦١ . ٣٦٤ .

مجهودات بعض الأباطرة ، إلا أنه ورغم هذه الثروة المادية الكبيرة فقد كان ينقصهم ويعوزهم ديانة توحد جهودهم وتحفظ مكانتهم الحضارية الأمر الذي كان ملائماً لميلاد الديانة الجديدة [1].



خريطة رقم (٢) مواطن اللغات في الإمبراطورية وحدودها.

الخطوط المعكوسة تشير إلى المناطق التي انتشرت فيها اللاتينية في القرن الثالث ، أما في الجنوب فالمستعمرات التي أنشأها الأباطرة للمعمرين اللاتين ، مثل ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، حيث اللغة اللاتينية هي أداة التعبير : أندريه أيمار وجانين أوبوايه روما وإمبراطوريتها.

إذن لقد بزغت المسيحية في عالم شرقي الديانة حيث النبوآت والدين ووحدانية الله وإغريقي الثقافة حيث الفكر والجمال والفلسفة ، وروماني السياسة حيث القوة والعظمة والسلطة وكل منهم مهد الطريق للمسيحية بشكل معين:

الشرقي : بناموسه الإلهي ونبوآته .

والإغريقي : بعقليته الباحثة وميله للإقناع والاقتناع .

والروماني : بشرائعه ونظمه الحكيمة[2].

---

(١) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص٣٤ ، ٣٦ .

(٢) راعي كنيسة اللاذقية ، مرجع سابق .

ثانيا : أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي.

من المعلوم أن روما انتقلت من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري بعد التخلص من حكم الأتروسكيين سنة ٥٠٨ ق.م وقد استغرق هذا النظام الخمس قرون الأولى قبل الميلاد نجحت فيه روما في تدعيم نظامها السياسي في الداخل ، واستطاعت مد نفوذها وتوسيع رقعة أراضيها في الخارج خاصة بعد خروجها منتصرة في الحروب البونية وتدميرها لقرطاجة سنة ١٤٦م ، حتى أصبحت قبل الميلاد بسنوات قليلة قوة سياسية واقتصادية هائلة ودولة عظمى في ميزان العالم القديم ، فقد أقامت روما نظام حكم دستوري استجاب لحاجة المجتمع وتطور تطوراً إيجابياً وفقاً لمصلحة البلاد ، وخلال العصر الجمهوري كذلك تمت الفتوحات الكبرى وبلغت روما شأواً عظيماً من حيث اتساعها ونفوذها ، وعلى الرغم من أن إعلان الإمبراطورية في نهاية القرن الأول قبل الميلاد في زمن أغسطس (٢٧ ق. م . ١٤م) جاء على حساب النظم الدستورية الجمهورية السائدة في ذلك الوقت إلا أنه ما لبثت أن أصبحت روما في أثناء النظام الإمبراطوري في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي أعظم قوة سياسية وحضارية عرفها التاريخ خاصة بعد أن ضمت الإمبراطورية إليها بلاد الإغريق ومناطق الشرق المتمثلة في الشام ومصر وهي البلدان العريقة حضارياً ، إذ زادت هذه البلاد من زخم ونفوذ روما الحضاري والثقافي والاقتصادي ، وكان من الطبيعي أن يواجه الرومان الكثير من الإشكالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والدينية نتيجة اتصالهم بشعوب كثيرة وتحكمهم السياسي والحربي في أقاليمها[١] .

وبدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر واضحة على الإمبراطورية في نهاية القرن الثاني الميلادي ، وبدأت أكثر وضوحاً خلال القرن الثالث الميلادي ، إذ يبدو أن تأثير روما الحضاري لم يستطع أن يسع جميع الشعوب والرعايا بطريقة متكافئة وخاصة شعوب الشرق التي كانت صاحبة السيادة الحضارية والسياسية قبل الرومان بعشرات القرون ، وكانت شعوب الشرق تحمل داخل أراضيها تركة حضارية هائلة توقفت تحت الضغط الخارجي وذلك إثر سيادة الاسكندر على الشرق ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنعها من محاولة أداء دورها السياسي والحضاري مرة ثانية ، ولذلك وجد الرومان صعوبات كثيرة في عملياتهم الحربية في شرقي البحر المتوسط

---

(١) رشيد الناظوري ، تاريخ المغرب الكبير ، **الجزء الأول** ، العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م ، ص ص٣١٤ . ٣١٥ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، مكتبة الجمهورية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩م ، ص١٤.

وخاصة في أرمينيا وبنطوس وبارثيا وسوريا وفلسطين ومصر[١] ، وبقيت تلك الشعوب محافظة على عاداتها ودياناتها وتراثها ولغاتها رغم تبعيتها سياسياً لروما ، ولم تستطع روما إلا بسط سيطرتها السياسية فقط على هذه الشعوب لكنها وُوجهت بمقاومة حضارية كبيرة حتى تفوقت عليها شعوب الشرق في ذلك [٢].

ومن الأشياء الملاحظة في القرن الثالث الميلادي أن كثافة السكان لم تكن متعادلة بين شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي فقد ازدادت أعداد السكان في الشطر الشرقي بفعل الرخاء الاقتصادي وكثرة موارد وخيرات الولايات الشرقية ، وارتفع تبعاً لذلك مستوى الحياة الاقتصادية والفكرية والثقافية للسكان مقارنة بالجانب الغربي الذي كان يعاني من نقص موارده الاقتصادية ومن الحروب الأهلية فضلاً على انتشار الأوبئة والأمراض خاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق والتي زادت في انخفاض أعداد السكان واضمحلال في المستوى الحضاري والثقافي في الشطر الغربي من الإمبراطورية[٣].

ولكن الأحوال ازدادت سوءاً مع بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى سنة ٢٨٤م عندما تولى دقلديانوس السلطة ، فقد انتشرت الحروب الأهلية بين قادة الفرق الرومانية في مختلف الولايات وازدادت ضغوط الجرمان على الحدود الرومانية من الشمال والغرب بالإضافة إلى ظهور الخطر الفارسي في الشرق ، وزادت تبعا لذلك نفقات الإمبراطورية لمواجهة تلك

---

(١) رشيد الناضوري ، مرجع سابق ، ص٣٠١ .

(٢) ر.هـ. بارو ، الرومان ، ت. عبدالرزاق يسري ، م سهير القلماوي ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٨م ، ص ص ١٧١ . ١٧٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص١٤ ؛ والجدير بالذكر أنه ورغم ارتباط شعوب الشرق وبالخصوص العرب بالإغريق والرومان ، وامتداد المواطنة الرومانية لتشملهم مع بقية شعوب الإمبراطورية سنة ٢١٢م وفق دستور كراكلا (Caracalla)، إلا أن الحضارة اليونانية الرومانية ظلت سطحية المظهر في حياتهم وإن كانت تفاوتت درجة محافظتهم على هويتهم ، فلم يندمجوا مع الرومان أو لم يكن اندماجهم كاملاً ، وحافظوا على أبجديتهم وعلى ديانتهم وقوانينهم وظلوا أوفياء لعادات أسلافهم وطقوسهم السامية ، فقد اعتادوا على امتصاص صدمات الغزاة الجدد عسكرياً وثقافياً ، لأنهم كانوا مركز الصدارة السياسية والحضارية عند ظهور الرومان ، وكذلك بسبب قربهم من المستودع البشري والحضاري المتمثل في شبه الجزيرة العربية : للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر عرفان شهيد ، مرجع سابق ، ص ص٣٧ . ١٠٥.

(٣) سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢١ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، مرجع سابق ، ص١٤ .

الأخطار وهذه الأمور ألقت بظلالها على الحياة الاقتصادية التي أصبحت تعاني من انحطاط في الزراعة وكساد التجارة وتدهور الصناعة وانخفاض مستوى العملة [١].

وللوقوف على أحوال الإمبراطورية لابد من استعراض الأحوال السياسية والاقتصادية والدينية للإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث الميلادي والتعرف من خلالها عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى ضعفها خلال هذا القرن حتى اعتلاء دقلديانوس الحكم (٢٨٤ . ٣٠٥م) وما قام به من إصلاحات إدارية وسياسية ساهمت إلى حد ما في انتشال الإمبراطورية من أزمتها ، وأدت تلك الإصلاحات فيما بعد (بسبب تحول الإمبراطورية نحو الشرق) إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين غربي وعاصمته روما القديمة وشرقي وهو الذي يطلق عليه الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية (بيزنطة) التي أنشأها قسطنطين سنة ٣٣٠م وهذه السنة التي أنشئت فيها القسطنطينية تعتبر على تقدير كثير من الباحثين هي البداية للعصور الوسطى في أوربا ، وانتهت بسقوطها في القرن الخامس عشر الميلادي [٢].

١. الأحوال السياسية والعسكرية.

بدأ النظام الذي وضعه أغسطس يتدهور في القرن الثالث الميلادي وعانت الإمبراطورية من صعوبات داخلية أدت إلى بلبلة مجهودات الأباطرة وأصابت بالشلل الأوضاع الداخلية والخارجية للإمبراطورية ، ولم يفلح الأباطرة والمصلحون الرومان من رأب الصدع الذي حلَّ بالدولة في تلك الفترة ، وأول تلك الصعوبات هو الحروب الأهلية والصراع حول عرش الإمبراطورية. فمما لاشك فيه إن عدم الاستقرار السياسي هدد كيان الإمبراطورية ووجودها وعرض مؤسساتها للدمار وانتشر الفساد في جميع نواحي الحياة السياسية ، فبعد مقتل كراكلا (Caracalla) (٢١١ . ٢١٧م) سنة ٢١٧م بدأت سلسلة من الاغتيالات السياسية وأخذ الجيش

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني (قسطنطين) ، ط٢ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص٣٥ ؛ نورمان بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، ط٢ ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ص١ .

(٢) هـ.أ.ل.فشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ت. محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط٥ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦م ، ص ١١ ؛ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ص ١٣ . ١٤ .

الروماني يتدخل في شؤون الحكم وعانت الإمبراطورية من أمراض مزمنة تتمثل في مسألة خلافة العرش والاغتصابات الكثيرة التي حدثت لمنصب الإمبراطور فلم يكن هناك نظام ثابت ينظم طريقة تداول وانتقال السلطة وأكبر دليل على هذه الفوضى هو زوال عدد كبير من الأباطرة بشكل سريع [١] .

وأخذ الجيش الروماني يسعى لتحقيق مآربه في السلطة والحكم ، فالانتصار في الحرب يكون مبرراً كافياً لأي قائد عسكري ومن أي طبقة اجتماعية لأن يندفع إلى المقدمة للتنافس حول منصب الإمبراطور ، وأضحت روما متاعاً للجيش الذي حاد عن مهمته الأساسية المتمثلة في حفظ الأمن بالداخل والدفاع عن حدود الدولة الخارجية إلى التدخل في شؤون الحكم وعزل وتولية الأباطرة ، وكان على كل إمبراطور وبمجرد توليه الحكم أن يواجه منافسين طوال فترة حكمه التي غالبا ما تكون قصيرة لا يتيسر له فيها أن يقيم النظام ، وكانت الجيوش تولي الأباطرة وتعزلهم لأتفه الأسباب ، واستخدم العسكر كل ما لديه من قوة لنهب الأقاليم دون رحمة ، واستشرى النزاع كذلك بين جيوش الولايات وتحكمت فرق الأقاليم في اختيار قادتها[٢]غير عابئة برغبة الإمبراطور ومجلس الشيوخ فبدلا من أن يمارس الإمبراطور سلطاته عن طريق الجيش أصبح الجيش يدير شؤون الدولة عن طريق الإمبراطور الذي يختاره وأدت هذه الصراعات أيضا إلى ظهور مجموعات وحركات انفصالية داخل الجيش تنافست على المناصب المهمة في الدولة [٣].

وأصبح نظام الحكم الروماني نظاماً استبدادياً يعتمد على العسكر في ممارسة سلطاته وأضحى مجلس الشيوخ ألعوبة في أيدي رجال الجيش ، وأصبح كل هم الإمبراطور هو كسب ولاء الجند ، فقد أدت الحروب الأهلية التي أعقبت مقتل كومودس (١٨٠ . ١٩٢م) عام ١٩٢م إلى اقتناع سبتيموس سيفيروس (Septimius Severus) بأن القوة العسكرية وولاء الجند هو

---

(١) حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ط٥ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ص ص١٩ . ٢٠ .

(٢) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص١٦ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢٠ .

(٣) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٣٦ ؛ بارو ، مرجع سابق ، ص ص١٧٢ .١٧٣ نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٣٧ .

أهم شي وقد ظهر ذلك في نصيحته لابنه ووريثه (كراكلا)من بعده قائلا : " أجزل العطاء للجند ولا تلق بالاً للآخرين " [١].

ويكفي أن نشير إلى مدى ما وصلت إليه الإمبراطورية من عدم استقرار سياسي أنه تولى العرش في فترة نصف القرن بين عامي ٢٣٥ . ٢٨٤م ستة وعشرون إمبراطورا كلهم لقوا مصرعهم ولم يمت منهم إلا واحداً ميتة طبيعية[٢]، وفي ولاية غاله وحدها بين عامي ٢٥٧ . ٢٧٣م كان هناك خمسة أباطرة ، وبالتالي لم يستطع أباطرة الدولة النظر إلى أمراض الإمبراطورية ومعالجتها لأنه كان كل شغلهم هو حماية أنفسهم من المنافسين لهم على السلطة بتحريض العسكر [٣].

وكان لهذه الصراعات الداخلية بين فرق الجيش أثر سيئ على البنية الداخلية للشعب الروماني إذ أوجدت فجوة عميقة بين الإمبراطور والرعية وظهرت المعارضة الكثيرة بين المواطنين وزاد حنق الناس على الإمبراطورية [٤] ، وازدادت الأمور سوءاً بانتشار الأوبئة والأمراض بين المواطنين في إيطاليا وبلاد الإغريق وذلك منذ سنة ١٦٦م ، وكان وقع هذه الأوبئة بالإيطاليين شديداً إذ لم يعد في إيطاليا وروما خصوصا سوى القليل من السلالات القوية والعريقة والتي كانت تكون الطبقة الأرستقراطية والتي يخرج منها عادة الأباطرة وأعضاء مجلس الشيوخ وقادة الجيوش[٥] ، وخلال هذا القرن كذلك لم يعد منصب الإمبراطور مقصوراً على

---

(١) أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ١٩٩٣م ، ص٩٩ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة، ص٣٦ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, P. 113.

(٢) أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠١ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, P. 115.

(٣) رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ت. زكي علي ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، د.ت ، ص٢٠٦ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص١٦ ؛ السيد الباز العريني ،تاريخ أوربا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٦٨م ، ص١٢ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣(. ١٠٨١م) ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٨٢م ، ص٢٣.

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص١٦ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٥) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص١٦ . ١٧ ؛ سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢١ .

المواطنين ذوي الأصل الروماني بل أصبح هذا المنصب مطلباً لكل القادة العسكريين حتى كان أحد الأباطرة سورياً وأخر عربياً وآخر إفريقياً[(١)].

وجري التغير كذلك في نظام الجيش الروماني الذي كان يتألف أساساً من المواطنين ذو الأصل الروماني والمواطنين الرومان المقيمين بالأقاليم ، وتشكلت الفرق العسكرية في معظمها من هاتين الفئتين*، فكان الجيش الروماني يمثل الفئة البالغة الاستنارة من بين نسيج الشعب الروماني في ذلك الوقت ، إلا أنه ونظرا لحاجة الإمبراطورية المتزايدة للجنود لمواجهة الفتن الداخلية والأخطار الخارجية وخاصة خطر الجرمان ، ولتعويض الأعداد التي فقدت إما في المعارك الداخلية أو بسبب الأوبئة والأمراض جرى تجنيد أعداد كبيرة من المشتغلين بالزراعة وبعض الحرف الأخرى ، كما أضحت حرفة الجندية وراثية إذ كان أفراد الجيش يعيشون في المعسكرات والمنازل المحيطة بها وليس لأطفالهم إلا أن يمتهنوا حرفة آبائهم وبالتالي دخل في الجيش رجال قليلي الخبرة والكفاية وأقل مدنيةً وتحضراً ، وخاصة السكان القاطنين بأطراف الإمبراطورية مثل سكان تراقيا وإليريا وأفريقيا وسكان الجبال في آسيا الصغرى وبلاد الشام ، هذا فضلاً عن تجنيد أعداد كبيرة من الجرمان وجبال أسبانيا وشمال غالة[(٢)].

---

(١) وهم سبتيموس سيفيروس والذي يرجح أنه كان فينيقي الأصل وتحديداً من مدينة لبدة الكبرى (Leptis Magna) في ليبيا الحالية والإمبراطورين إيلاجابوليس Elagabolus (٢١٧ . ٢٢٢م) والاكسندر سيفيروس Alexander Severus (٢٢٢ . ٢٣٥م) وهما من سوريا ، والإمبراطور فليبوس العربي Philippus Arapik (٢٤٤ . ٢٤٩م) : السيرهامرتون ، تاريخ العالم ، الجزء الثالث (الإمبراطورية في دور الانحلال٢١١ . ٣٣٠م) ، ت. محمد غنيم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت ، ص ص٩٤ ، ١٠١ ؛ عرفان شهيد ، مرجع سابق ، ص ص٨٩ . ٩٦ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص٩٦ ؛
Abdulhafid fadil elmayer, op. cit, PP. 97-98

* كان الجيش الروماني يعتمد أساساً على أبناء روما ثم من إيطاليا ، وعندما ازدادت الحاجة إلى الجنود جُندوا من الأقاليم الغربية كأسبانيا وبلاد الغال ، وكانت كلما تقلصت حدود الإمبراطورية كان التجنيد المحلي يمد الجيش بجنود أوفر وأفضل ، ولكن عندما دخل القرن الثالث كان الجنود الرومان يُجندون من نفس القبائل التي كان على الجيش أن يكبح جماحها ، مثل القبائل الجرمانية الغربية ، والقبائل الوافدة من الدانوب ومن إليريا ودلماشيا وهي التي لم يتم صبغها بالصبغة الرومانية : بارو مرجع سابق ، ص١٧٢ .

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص١٦ . ١٧ ؛ بارو ، مرجع سابق ، ص١٧٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط، ص١٧ .

أما عن الأخطار الخارجية فإن أكبر ما كانت تواجهه الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي كان يتمثل في تهديد الجرمان* (البرابرة) لحدودها الشمالية وتوغلهم داخل هذه الحدود حتى إن أحد الباحثين يصف أثر غارات البرابرة على الإمبراطورية بأنه كان عميقا جداً في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية والمعنوية بل إنها ساهمت في إنها العالم القديم وبداية مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية (١).

فقد أغار الفرنجة على أراضي الراين سنة ٢٥٣م وسنة ٢٥٦م وغزا القوط مواشيا سنة٢٥١م ونهبوا بلاد اليونان واستولوا على شبه جزيرة القِرم وخربوا بعض المدن في آسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود ، واندفعت قبائل الجرمان من خلال الألب وهددوا شمال إيطاليا ٢٧٠م ، كما أغار السكسون على سواحل بريطانيا ونهبوها ، وشكلت القبائل الجرمانية أحلافاً فيما بينها ضد الرومان تهدف إلى انتزاع السيادة الرومانية ، ومن جهة الشرق ازداد خطر الساسانيين الذي كان على الإمبراطورية أن تواجه تنامي أطماعهم فقد أخذ الفرس منذ سنة ٢٣٣م يهددون أرمينيا وبلاد ما بين النهرين والشام تهديداً خطيراً حتى إنهم تمكنوا من إنزال الهزيمة بالإمبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ . ٢٦٠م) وأسره على يد الملك الفارسي شابور عام ٢٦٠م(٢)، وكذلك ظهور الثورات والانتفاضات ضد الحكم الروماني في شكل دول

---

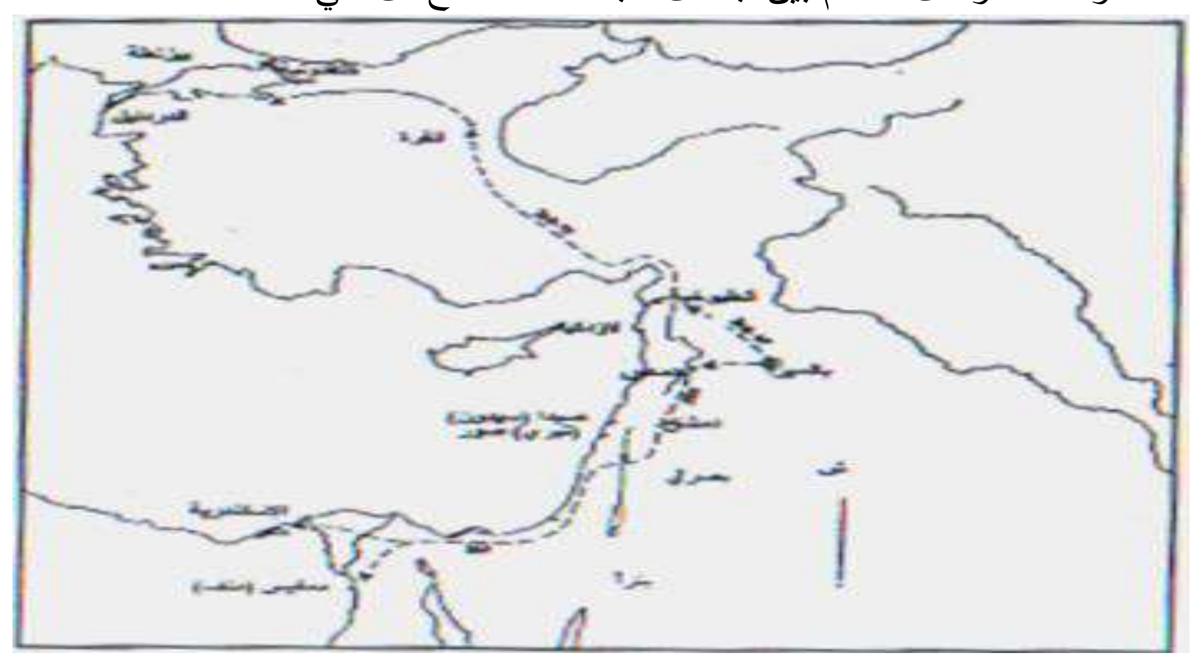
* الجرمان هم أقوام كانوا يحتلون المنطقة التي تسمى اليوم ألمانيا والنمسا وسائر شمال أوربا ، وهم فرع من العرق الآري الذي كان يسكن قديما آسيا أو من الأجناس الهندوأوربية وانفصلوا عن القبائل الآرية التي تتجه بسيرها نحو الغرب منطلقة من آسيا واستقر المقام بالقبائل الجرمانية في بداية العصور التاريخية في حوض نهري الأودر والإيليب ، وكانوا شقر الشعر زرق العيون ، يقيمون في قرى ويسكنون أكواخاً بسيطة ينقلونها عند ترحالهم ، ولم يميلوا إلى الاشتغال بالزراعة بل امتهنوا حرفة الرعي ، وكانوا يجهلون الكتابة ، ولا يتعاطون التجارة أقوياء البنية يميلون إلى الحرب والغزو والنهب ، يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها ، أما كلمة المتبربرين أو البرابرة التي أطلقت عليهم فهي كلمة قديمة ظهرت في الإلياذة ، وتدل على الاحتقار والازدراء وتغير مفهومها فيما بعد لتصبح تعني الصغار أو الانحطاط الاجتماعي والفكري وقد أطلقها إفلاطون وأرسطو على الشعوب التي لا تفقه الإغريقية ، فمفهومها عند اليونان يعني غير مثقف أو فظ ومتوحش وأخذت اللاتينية هذه الكلمة وأطلقوها على كل الأعداء الذين يهددون الثقافة الإغريقية . اللاتينية . والدولة الرومانية : نورالدين حاطوم ، الموسوعة التاريخية الحديثة ، تاريخ العصر الوسيط في أوربة ، الجزء الأول (من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر) دار الفكر ، ١٩٦٧م ، ص ص١٥ . ١٦ ؛ أسد رستم ، تاريخ الروم ، الجزء الأول ، دار المكشوف بيروت لبنان ، ١٩٥٥م ، ص ص١٧ . ١٨ .

(١) نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٤٦ .

(٢) رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة١٩٩٧م ص٢٤ .

محلية مثل مملكة تدمر في سوريا بقيادة زنوبيا التي استطاعت أمام ضعف الرومان أن تقيم إمبراطورية امتد نفوذها من خليج العقبة جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً (خريطة رقم٣) ، بل إنها استطاعت ضم مصر ، ومن الممكن أن تضم آسيا الصغرى [١] .

ويُجمل أحد الباحثين واصفاً وضع الإمبراطورية في أحسن تعبير فيقول : " لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء ، حقا لقد كان الرجال فخورين بأنهم مواطنون رومان وليسو برابرة ، ولكن عاطفة الولاء لم تحرك أحداً منهم ليضحي من أجل روما بحياته أو ماله لقد كانت الإمبراطورية شديدة الاتساع ، وكان الأباطرة بعيدين جداً عن القدرة على إحياء أية عاطفة سوى شعور الخوف ، لقد كانت العواطف التي تعتمد عليها الإمبراطورية عواطف محلية ، فالجندي يحارب من اجل شرف فرقته أو قائده وحاكم المدينة يعمل وينفق ماله من أجل مدينته ، والقواد والإداريون وطبقة مجلس الشيوخ يتحركون بدافع الطبقية أكثر منها خدمة الإمبراطورية ، لقد اختفى شعور النبالة الملزمة بين الطبقة الأرستقراطية ، وانتهى الإحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة ، وانحل النظام بين جحافل الجند ، لقد ضاع كل شيء"[٢].



خريطة (٣) امتداد الوجود التدمري في الشرق خلال حكم زنوبيا ، عرفان شهيد ، روما والعرب.

---

(١) بارو ، مرجع سابق ، ص١٧٤ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص ص٢٠ . ٢١ ؛ السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص١٣ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ص١٧ . ١٨.

(٢) رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٧٣ . ٧٤ .

٢. الأحوال الاقتصادية والاجتماعية.

أخذت الأزمات الاقتصادية تعصف بالإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي نتيجة ضعف الأحوال السياسية والعسكرية ، فما حدث في هذه الفترة من مشاكل اقتصادية كان لها آثار بالغة خاصة على الشطر الغربي من الإمبراطورية مقارنة بالجزء الشرقي الذي كان لديه من قوة المقاومة ما لم يتوفر للجزء الغربي ، فبسبب اندلاع الحروب الأهلية والصراع على السلطة وانتشار الفتن والأوبئة هددت طرق التجارة في البر والبحر وقل تبادل السلع والبضائع بسبب وجود العصابات المسلحة على هذه الطرق ، وكان من نتاج الحروب والفتن الداخلية أيضاً أن زادت الحاجة إلى موارد جديدة للإنفاق ، فاتجهت الدولة إلى زيادة عبء الضرائب على المواطنين ، وعلى الرغم من إن النصيب الأكبر منها وقع على كاهل الفلاحين إلا إن التجار والصناع لم يسلموا من دفع الضرائب على أنواع متعددة من سلعهم تتراوح من ٢ . ١٢% ، هذا فضلاً عما تفرضه السلطات المحلية في كل ولاية من رسوم وضرائب أخرى ، ولم تكتفي الحكومة خلال هذه الأزمة بزيادة عدد الضرائب المفروضة ، بل إنها رفعت مستوى الضريبة الواحدة ارتفاعاً مستمراً ، وربما كان الحصول على أكبر قدر من الضرائب هو الذي دفع كراكلا (٢١١ . ٢١٧م) أن يمنح الجنسية الرومانية سنة ٢١٢م لجميع سكان الإمبراطورية[١].

وقد تحرر كبار الملاك من الضرائب المفروضة وذلك بإضافتها للمستأجرين عن طريق رفع قيمة الإيجار الأمر الذي أدى إلى عدم قدرة المزارعين الصغار على الوفاء بالتزاماتهم الضريبية فلجأوا إلى رهن أراضيهم لدى كبار الملاك فأضافوها إلى أملاكهم الخاصة وتحول أصحاب تلك الأراضي إلى أقنان وطبقة رقيق الأرض[٢] .

ومن أسباب تدهور الأحوال الاقتصادية في القرن الثالث هو اعتمادها على العمالة اليدوية دون تطوير لوسائل الصناعة واكتشاف موارد أخرى ، ولم يكن هناك دافع لاكتشاف مصادر جديدة طالما هناك طاقة العبيد (القليلة التكلفة)المجلوبين من الولايات المستعمرة ، وإذا كانت هناك حاجة لزيادة الإنتاج كان يُلجأ لزيادة عدد العبيد ، فالخطأ الجوهري في الاقتصاد

(١) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٢٨ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص١٩ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص ص١٠١. ١٠٢ .

(٢) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٢٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٢٨.

الروماني متمثلاً في نظام العمالة ، الذي أدى إلى تحديد نوعية السلع المصنعة والتي كانت يدوية وبسيطة ، وكان هناك اتجاه إلى الاكتفاء بالسلع المحلية للاكتفاء الذاتي أو الإنتاج من أجل الاستهلاك المحلي ، وهذا ساهم في عدم ازدهار التجارة الخارجية بسبب أنه لم يكن لدى روما ما تقايض به سلع الشرق ، ولما ازدادت الحاجة إلى السلع الشرقية اضطرت روما إلى دفع ثمنها نقدا الأمر الذي أدى إلى استنزاف ملحوظ للذهب باتجاه الشرق تسبب في تصدع النظام النقدي والتضخم* ، وعبثاً حاول الأباطرة معالجة هذا الوضع وذلك بتخفيض قيمة العملة أو تزويرها عن طريق خلطها بالنحاس أو الفضة، وأدى هذا التزييف للعملة إلى انخفاض قيمتها وإفلاس التجار واختفاء النقود الجيدة من السوق واقتصر التداول على النقود المزيفة الأمر الذي ساهم في ارتفاع الأسعار بشكل كبير(١).

وأمام هذه الاعتبارات يمكن تفسير تلك الثورات والانتفاضات التي عانت منها الإمبراطورية في القرن الثالث لأن المزارعين والفلاحين أخذوا يتركون مزارعهم ويتجهون إلى المدن للبحث عن العمل وإلا يلجأون لنهبها ، وأدى ذلك إلى اتساع أعمال القرصنة والسطو وانتشر الفساد في البر والبحر(٢).

وقد جاء في التماس قدم إلى أحد الأباطرة في القرن الثالث من أحد سكان آسيا الصغرى يعرض له المعاملة السيئة التي يتلقاها المواطنون من الجنود وموظفي الحكومة " إننا نتعرض لأفظع أنواع الظلم والضغط على أيدي أولئك الذين من واجبهم حماية الناس ... كالضباط والجنود وحكام المدينة . والمندوبون الإمبراطوريون يأتون إلى قريتنا وينتزعوننا من أعمالنا

---

* تناول أحد الباحثين هذا التدهور الذي أصاب عملة الإمبراطورية فيقول : " كانت الضرائب باهظة متباينة غير منظمة وبقي جانب كبير منها في أيدي الجباة ، فكان لا يزال يوجد الكثير من أصحاب الملايين ، بينما هناك مقاطعات بأكملها غارقة في الفقر ، فضلاً على إن الإمبراطورية كانت تعاني من ميزان تجاري ليس في مصلحتها ، ففي أيام بليني (Pliny) جاوزت الواردات الآتية من الهند الصادرات بمقدار ٦٠٠،٠٠٠ جنيه سنويا ، وجاوزت واردات الصين الصادرات بمبلغ ٤٠٠،٠٠٠ جنيه أخرى ، وبات من المتعذر إصلاح هذا الوضع . وفي العصر المبكر من تاريخ الإمبراطورية كانت قيمة العملة الإمبراطورية آخذة في التدهور التدريجي المطرد ، وكان الانهيار سريعا منذ عهد كراكلا (Caracalla) ، إلى أن أصبحت العملة النحاسية آخر الأمر لا تحتوي على معدن نفيس بينما غدت العملة الفضية لا تحتوي سوى على ٢% من الفضة " : جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ . ١٤٥٣م) ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية د.ت ، ص٣٦.

(١) كانتور ، مرجع سابق ، ص٣٩ ؛ إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص١٨ .

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٢٠ .

ويستولون على ثيراننا ويأخذون عنوة ما ليس بمستحق الدفع ، ونحن نعاني ألواناً شنيعة من المظالم والاستغلال ...[1]".

ولقد صاحب الخلل في الأحوال الاقتصادية خللاً آخر في الأحوال الاجتماعية إذ على الرغم من أن الطبقة الأرستقراطية المتنفذة في الدولة التي تتحكم في شؤون الحكم من كبار الإقطاعيين والملاك على الرغم من أنها لا تمثل سوى نسبة قليلة من مجموع السكان إلا أنها استطاعت أن تستحوذ على النصيب الأكبر من الثروة بالإضافة إلى تحررها من الالتزامات والضرائب المفروضة ، وفي الاتجاه الآخر أخذت الطبقة الوسطى في المدن والقرى تتضاءل وتتقلص ليتحول الكثير منها إلى فئة من العبيد والأقنان مما زاد من حدة التناقضات داخل المجتمع الروماني[2] .

ثالثاً: الإمبراطور دقلديانوس (Diocletianus) (٢٨٤ . ٣٠٥م)وإصلاحاته .

وأمام هذه الفوضى وسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت الدولة في حاجة إلى من يستطيع إخراجها من هذه الهوة ويمدها بكل ما تعوزه وفي جميع نواحيها ؛ لأنها وصلت إلى مرحلة من الفوضى توقفت فيها كل مؤسساتها ومرافقها العامة تقريباً بل وتفاقمت مشكلاتها سياسياً وعسكرياً حتى هددت كيانها ووجودها ، فكان لابد لها من رجل قوي يستطيع بسط سيطرته على الجيش أولاً ثم ينظم شؤون الدولة الداخلية ويحمي حدودها الخارجية ثانياً ، وفي الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي وصل إلى سدة الحكم الإمبراطور دقلديانوس الذي دفع به الجيش إلى تولي هذا المنصب ، ومع إنه كان من طبقة اجتماعية متوسطة إلا أنه حاول أن ينتشل الإمبراطورية من أزمتها عن طريق عدة إصلاحات إدارية وسياسية وعسكرية واقتصادية[3] .

---

(١) بارو ، مرجع سابق ، ص١٧٦ .

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص١٩ . ٢٠ .

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٣٥ ؛ رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص٣٣ .

ينتسب أوريليوس فاليريوس دقلديانوس إلى أسرة وطبقة متواضعة فلم يكن من الأسر الأرستقراطية الكبيرة ولكن أسرته ترجع أصولها إلى إقليم إليريا القديم في الشمال الغربي لشبه جزيرة البلقان كما يرجح أن أصل أمه يرجع إلى مدينة دلماشيا ، ويرجح أيضا أن آباءه كانوا عبيداً عند أحد أعيان الرومان وأحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني يدعى أنولينوس وإن أبوه وفق في الحصول على حرية الأسرة[١] .

ويرجح أن اسمه اشتقه من مدينة صغيرة في إليريا ، وتشير الروايات أن أباه كان قد حصل على وظيفة كاتب إلا أن دقلديانوس قد سلك نهج الجندية وشغل بعض الوظائف في غالة وتدرج في سلك الجندية حتى وصل إلى حكم ماسيا (مدينة في البلقان) ثم إلى رتبة قنصل ومنها إلى قائد الحرس الإمبراطوري وهذه تعد وظيفة على قدر كبير من الأهمية ، ثم أصبح قائداً لجيوش الإمبراطورية الغربية إلى أن نادت به الفيالق البانونية إمبراطوراً في أوج الأزمة التي كانت ضاربة أطنابها في الإمبراطورية عام ٢٨٤م[٢] ، ولكن وعلى الرغم من أنه استلم تركة مثقلة إلا إن دقلديانوس أنقذها من الضياع ونظمها وحافظ عليها وحدة متكاملة حتى تنحيه عن الحكم سنة ٣٠٥م ، وقام بالعديد من الإصلاحات أعاد بها الكثير من أمور الأمن والنظام إلى نصابها ، ومن هنا كانت الإمبراطورية تدين إلى ثلاثة من أباطرتها بالكثير، وهم أغسطس الذي أنشأها، وأورليان Aurelian (٢٧٠ . ٢٧٥م) الذي أنقذها، ودقلديانوس الذي نظمها تنظيماً جديداً [٣].

وشابه دقلديانوس الأباطرة في بعض الأمور ولكنه أختلف عنهم في أمور أخرى ، فهو كبقية الأباطرة من أنه كان جندياً في الجيش الروماني ووصل إلى السلطة بمساعدة الجيش ولكنه اختلف عنهم في أنه شخصية قوية ذا مواهب في الإدارة والحكم اتبع في حكمه مذهباً

---

(١) ادوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ت. محمد علي أبودرة ، دار الكتاب العربي ، ص٢٨٥ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٣٦ ؛ بارو ، مرجع سابق ، ص١٧٦ .

(٢) ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٢٨٦ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠٢ ؛ رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص٣٣ .

(4) السير هامرتون ، مرجع سابق ، ص١٠٩ ؛ ول ديورنت ، قصة الحضارة (قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية) ت. محمد بدران ، الجزء الثالث من المجلد الثالث ، دار الجيل بيروت ، د.ت ، ص٣٥٩ ؛ ادوارد جيبون ، مرجع سابق ص٢٨٦.

استبدادياً ، فادعى لنفسه حقوقاً إلهية ، واعتبر أن الإله جوبتير هو الذي اختاره للحكم واكتسب لنفسه كإمبراطور سلطة عليا ، وقد دعم حكمه بجهاز من الشرطة السرية والمخبرين وفرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب والقتل على المخالفين ، وأصبحت جميع المدن خاضعة للحكم المركزي[١].

ربما لو أن دقلديانوس استطاع أن يجد حلاً لمسألة المسيحية وعلاقتها بالإمبراطورية ، لما وجد من ينتقد سياساته وأعماله ، وكذلك لن يجد قسطنطين ذلك الاهتمام الكبير الذي لَقيه من قبل المؤرخين وخاصة مؤرخو الكنيسة الذين جعلوه في عليين ، فقد كان دقلديانوس شخصية مرموقة اشتهر بقوة العقل والدهاء وكان يحيط نفسه بمظاهر الملكية وأبهتها ، حريصاً على إرضاء صرامته وقسوته ويضفي على شخصيته المهابة والهيبة الدينية ، ومع ذلك فقد انصب تفكيره على أن يتخذ من الخطط والإجراءات ما يكفل بقاء الإمبراطورية وقوتها وتوصل إلى عدة حلول لمشاكل عصره حرص على تحقيقها أثناء توليه الحكم[٢] ، وأهم إصلاحاته وأعماله هي : .

١. إعادة الهيبة لمنصب الإمبراطور .

رأى دقلديانوس أن الفوضى التي كانت تفتك بالإمبراطورية في القرن الثالث تحتاج إلى يد قوية وحازمة ، ومن ثم أخذ يضفي على منصب الإمبراطور نوعاً من القداسة والمهابة لكي يثير الرهبة والخوف من الإمبراطور في نفوس رعاياه ورأى في اختيار الجنود له في هذا المنصب على أنه تنفيذ لمشيئة جوبتر (Jupitre) حتى سمى نفسه جوفيوس (Jovius) أي المنتمي لجوبيتر ، وكان على رعاياه أن يخروا سجدا قبل أن ترى أعينهم شخص الإمبراطور هذا إذا سمح لهم بالمثول بين يديه ، وكان كل ما يخص الإمبراطور مقدساً سلاحه ، كلماته ، بلاطه خزانته ، حذاءه ، وكان هو نفسه مقدساً وبذلك ثبت الأوتوقراطية التي أصبحت من العلامات المميزة للإمبراطورية البيزنطية ، ولعل دقلديانوس تأثر بوجوده في الشطر الشرقي من

---

(١) مصطفى العبادى ، الإمبراطورية الرومانية :النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١م ، ص٢٤٣ ؛ نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص٤٧ . ٤٨ .

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٣٢ .

الإمبراطورية على مقربة من الحكم الساساني الأوتقراطي ، وكذلك وسط الولايات الشرقية مثل مصر والتي جرت على عادة تأليه ملوكها في عصرها الفرعوني والبطلمي ، وربما يكون هذا أيضا من بين العوامل التي دفعت دقلديانوس ومن بعده قسطنطين إلى الاتجاه نحو الشرق وإقامة العاصمة الجديدة فيه(١).

وكان في إضفاء القداسة والمهابة على منصب الإمبراطور أن أضفت على أعماله وأوامره ونواهيه مهابة أيضاً ، وربما أكبر دليل على ذلك هو إنه استطاع أن يحكم إحدى وعشرين سنة متواصلة وأن يعتزل بعد ذلك طواعية ، وقد سمحت له هذه المدة الطويلة أن يقيم خططه وإصلاحاته الإدارية والعسكرية (٢).

٢. الإصلاحات السياسية والإدارية.

استطاع دقلديانوس أن يقضي على جميع الفتن وينفرد بالحكم بعد إزاحته للمنافسين والطامحين في العرش وأدرك أن عبء حكم هذه الإمبراطورية الشاسعة والمترامية الأطراف قد بلغ من الجسامة ما لم يكن بوسع شخص واحد أن يقوم به ، فمن المستحيل على الإمبراطور أن يتواجد في كل الجبهات وكثرة عدد المنافسين كان يُرى باستمرار حيث ما تسنح فرصة أو يتجمع جيش أو تظهر مكانة ما لدى الجنود كالانتصار في معركة ، وإن غياب الإمبراطور لمحاربة عدو داخلي أو خارجي يكون هذا كافياً لبروز منافسين ، مع إن دقلديانوس كان على قناعه أيضاً أنه من الضروري أن تكون هناك إدارة مركزية صارمة ومجموعة كبيرة من الموظفين يتبعون الإمبراطور مباشرة ، ورأى أنه يجب إيجاد علاج للخطر الناجم عن كبر حجم الولايات وما يترتب عليه من مخاطر الانفصال ، وبذلك أقدم دقلديانوس بدايةً على إلغاء التمييز بين الولايات السناتورية والولايات الإمبراطورية ، وقام بإنقاص حجم الولايات وزيادة عددها من ٥٠

(١) هسي ، العالم البيزنطي ، ت. رأفت عبدالحميد ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٧م ص ص١٩ . ٢٠ ؛ ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ت. عبدالعزيز توفيق جاويد ، م زكي علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ص١٦ . ١٨ ؛ نورمان بينز ، مرجع سابق ، ص٤ .

(٢) هسي ، مرجع سابق ، ص٢١ .

إلى مائة ولاية[١] حتى يحول دون استغلال ولاتها لضخامة موارد الولاية في الخروج على الحكومة المركزية ، وللتحسين من إدارتها ، وهذه من الصور التي تميزت بها الإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وكذلك قام دقلديانوس بتقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام رئيسة كبرى على رأس كل منها حاكم إداري يتمتع إما بلقب قيصر أو أغسطس ، يعتبر القيصر شريكاً للإمبراطور (الأغسطس) في حكم الإمبراطورية ونائبه إذا مات أو حالت ظروف أبعدته عن الحكم[٢].

قام دقلديانوس بتقسيم الإمبراطورية إلى قسمين إداريين بخط يمتد من الشمال إلى الجنوب عبر البحر الإدرياتيكي ، واختار أحد زملاءه من العسكر ليكون شريكا له في إدارة الإمبراطورية وهو ماركوس أوريليوس فاليريوس مكسيميانوس (ماكسيميان Maximian)[٣] سنة ٢٨٦م وأضفى عليه في البداية لقب قيصر ثم ما لبث أن منحه لقب أغسطس في العام التالي وجعله على القسم الغربي بينما بقى هو في القسم الشرقي ، واستمر هذا الوضع لعدة سنوات ولكن دقلديانوس رأى أن هذه التدابير التي اتخذها ليست كافية وأدرك كل من دقلديانوس ومكسيميان أنه ليس بوسعهما الاطلاع على كل الأمور الملقاة على عاتقهما ، لذلك رأيا ضرورة تنصيب قيصرين لمساعدة الإمبراطورين في تسيير أمور الحكم ، ووقع اختيار دقلديانوس على جاليريوس ليكون قيصراً له بينما اختار مكسيميان قسطنطيوس (والد قسطنطين الكبير) وذلك سنة ٢٩٣م ، وقسمت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام على رأس كل منها حاكم يتمتع اثنين منهما بلقب

---

(١) . Michael Grant, History Of Rome, Faber And Faber, London. Boston 1979, p. 301.

(٢) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٢٣ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠١ ؛ جوزيف نسيم يوسف مرجع سابق ، ص٣٧ .

(٣) يرجح أن أصل مكسيميان كان من مقاطعة أليريا انخرط في سلك الجندية وارتقى في المناصب العسكرية وأظهر براعة كبيرة في فنون القتال ، وكان مخلصاً جداً لدقلديانوس ويكن له احتراماً عميقاً ، حتى اعتبره دقلديانوس بعيداً عن أية محاولة انفصالية ترمي إلى اغتصاب العرش أو الانفراد به ، وبالتالي منحه حكم نصف الإمبراطورية الغربي ، وقَبِل التنازل مع دقلديانوس عن العرش في سنة ٣٠٥م : هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١١ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٣٨.

أغسطس والاثنين الآخرين منحا لقب قيصر وارتبط الشركاء الأربعة بأواصر المصاهرة ، ويعتبر القيصر شريك الإمبراطور في حكم الإمبراطورية ويخلفه في منصبه منعاً للتنافس على الحكم[١].

وهذه الأقسام هي[٢]:

١. غاليا وتشمل : بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء المعروف حاليا باسم مراكش وعاصمتها تريف الواقعة على نهر الراين وكانت من نصيب قسطنطيوس .

٢. إيطاليا وتشمل : الأراضي الواقعة بين الدانوب والبحر الأدرياتيكي فضلا عن إيطاليا وإقليم شمال إفريقيا والمعروف حاليا بليبيا وتونس والجزائر وعاصمتها ميلانو ، وكانت من نصيب مكسيميان .

٣. إليريا وتشمل : البلقان وولايات الدانوب وبلاد اليونان وعاصمتها سرميوم (بلغراد الحالية) وكانت من نصيب جاليريوس .

٤. الجانب الشرقي ويشمل : بقية أجزاء الإمبراطورية الشرقية تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر وعاصمتها نيقوميديا وكانت من نصيب دقلديانوس .

كما قسمت كل ولاية منها إلى عدد من المقاطعات يحكم كل منها حاكم محلي ينوب عن الوالي العام ، وكان هذا التقسيم إداريا في طبعه ، ولم يؤثر على وحدة الإمبراطورية ، فأصبحت الإمبراطورية مقسمة على أربع أقسام أو ما يطلق عليه حكومة الأربعة (The Tetrarchy) وتقرر أن تكون مدة حكم الإمبراطور عشرين سنة يتخلى بعدها عن الحكم ليخلفه القيصر، ومع إن دقلديانوس لا يعدو أن يكون أحد الإمبراطورين وشريك في الحكم الرباعي ، إلا أن السلطة العليا والإشراف العام على شؤون الإمبراطورية كان في يده ، فهو القائد الأعلى للجيش وهو الذي يضع السياسة العامة للدولة ، وظل من الناحية العملية يقبض على زمام

---

(١) م . ب . تشارلزوورث ، الإمبراطورية الرومانية ، ت. رمزي عبده جرجس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩ف ، ص ص١٩٥ . ١٩٦ ؛ السير هامرتون ، مرجع سابق ، ص ص١١٠ . ١١١ .

(٢) هارفي بورتر ، موسوعة مختصر التاريخ ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ١٩٩١ف ، ص ص٥٢٢ . ٥٢٣ ؛ تشارلزوورث مرجع سابق ، ص١٩٦ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٣.١٠٢ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٢٣ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص٣٧ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص١٨ ؛ محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص٣٧ ص٣٨ ؛ السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص٣٢ ، ٣٧ .

الأمور ، وهكذا قضى دقلديانوس على كل مظاهر الحكم الجمهوري بحيث بدأت الإمبراطورية في عهده ملكية استبدادية مطلقة ، ولم تعد ثمة حدود لحق الأباطرة في تشكيل العالم وتقرير مصائر البشر وزاد من قوة هذا النظام ما صار للأباطرة من صفة إلهية(١).

٣. الإصلاحات العسكرية .

إن أول ما قام به دقلديانوس في هذا المجال هو إنه فصل النظام الإداري عن النظام العسكري ، ووضع الجيش تحت إمرة الحكومة ولم يسمح بوجود ميليشيات مسلحة لا تتبع أجهزة الدولة محاولة منه لكبح جماح القواد المتمردين الذين زاد عددهم في أواخر القرن الثالث ، وعانت الإمبراطورية الكثير من جراء الصراعات التي حدثت بينهم على السلطة ، كما جعل الكفاية العسكرية هي الشرط الأول في التعيين للمناصب العسكرية ، ووضع الأسس التي تحول دون اغتصاب أي قائد طموح للحكم بأن زاد عدد الولايات وقلل بالتالي من عدد القوات التابعة لأي قائد بمفرده(٢).

كما قام بإنشاء قوة متحركة إضافية غير مرتبطة بإقليم معين تنتقل من جهة إلى أخرى مهمتها حماية الأطراف من هجمات الأعداء ، بالإضافة إلى جيش آخر قوامه فرق مرابطة على الحدود بلغت على عهده مائتي وخمسون ألفاً من المشاة ، وأحد عشر ألفاً من الخيالة أما الجيش الثابت فكان عدده مائه وخمسون ألفاً من المشاة ، وستة وأربعون ألفاً من الخيالة هذا فضلاً عن قوة الحرس الإمبراطوري المسؤولة عن حماية الإمبراطور ، فكان عدد أفراد الجيش في الإمبراطورية في زمن دقلديانوس حوالي نصف مليون جندي وهو أكثر من الجيش الذي تحت سيفيروس(٣) ، وأدخل دقلديانوس أعداداً كبيرة من المتبربرين والشعوب البدائية في الجيش حتى أنه كان معظم الخيالة من الجرمان ، وقام بمنح القوات الحدودية هبات من الأراضي يمكن نقل ملكيتها إلى من يشاء صاحبها ، وكان أبناء هؤلاء الجنود ملزمين أن يأخذوا مكان آبائهم أي يرثونهم على الأرض وفي المسؤولية كجنود لحراسة الحدود ، وفتح دقلديانوس الطريق أمام الجندي ليرتقي ويصبح ضابطاً وبإمكانه أن يصل إلى مرتبة القائد الأعلى على أن يتحلى

---

(١) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٣٦ .

(٢) نورمان بينز ، مرجع سابق ، ص ص ٣ . ٤ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠٣ .

(٣). Michael Grant, Op. Cit. p. 302.

بالشجاعة وبالخبرة في شؤون الحرب ومخلصاً للإمبراطور ، وربما يكون هذا الإجراء نابع من التجربة التي مر بها دقلديانوس حيث تمكن من مرحلة العبودية أن يصل إلى أعلى المراتب حتى وصل إلى منصب الإمبراطور ، كما اهتم دقلديانوس بإنشاء القلاع وإقامة أبراج المراقبة على الطرق الرومانية وبناء نظم دفاعية على الحدود(١).

وقام دقلديانوس بإصلاح أسوار المدن وحشد فرق عسكرية جديدة للدفاع عن الإمبراطورية وحماية السلطة من الطغاة والمغتصبين سميت باسم رفاق الإمبراطور أو الحرس الخاص (Comitatenses) ، ولما كانت كل تلك الإجراءات غير كافية لمواجهة خطر الجرمان جهز دقلديانوس جيوش أخرى خلفية ترابط في الولايات والمدن المهمة ، وقد رابطت هذه الجيوش في أسيا الصغرى ووسط البلقان لحماية ولايات الإمبراطور من غارات البرابرة إذا اخترقت الحدود(٢).

٤. الإصلاحات الاقتصادية .

لم يقتصر دقلديانوس في إصلاحاته على النظام السياسي والعسكري بل تعداه إلى النواحي الاقتصادية والمالية ، فقد عمل على تثبيت العملة وأصدر عملة ذهبية وفضية جديدة نالت ثقة التجار ، وحاول تثبيت الأسعار للسلع الأساسية وتحديد الأجور والمرتبات منعاً للاستغلال ، إلا أن مقاومة التجار لهذا التحديد في الأسعار دفعتهم إلى إخفاء السلع من السوق مما أجبر دقلديانوس على إغفال الموضوع بأكمله ، وتدل لائحة الأسعار التي صدرت في سنة ٣٠١م على الاهتمام الكبير الذي توليه الدولة بهذه المشكلات الاقتصادية ، واحتوت لائحة الأسعار هذه على أسعار السلع المختلفة مثل اللحوم والخضروات والقمح والشعير والفواكه والأسماك والمنسوجات وغيرها(٣).

وكان دقلديانوس أكثر توفيقاً من غيره في إصلاح نظام الضرائب حيث أخضع جميع ولايات الإمبراطورية لنظام ضريبي واحد يتلخص في فرض ضريبة مزدوجة على الأفراد والأرض ، ومع إن هذه الإصلاحات لم تقض على مشكلة غش العملات النقدية وزيادة التضخم النقدي

---

(٢) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٣ السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص٤٠ .٤١ ؛ ستيفن رنسيمان ، مرجع سابق ، ص١٦ .

(٣) حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص ص١٩ .٢٠ .

(٣)حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢٠ .

وارتفاع الأسعار ونفقات المعيشة ، ولكنه نجح في منع انهيار الأوضاع الاقتصادية ومنع حدوث أزمة مالية كبيرة ، فلا يخفى أن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في القرن الثالث حدت كثيراً من انطلاق دقلديانوس فلم تكن هناك نتائج واضحة لجهوده في هذا الميدان وإن أفلح في منح البلاد فترة هدوء نسبي وخفف من هذه الأزمة وترك لخلفه القيام بهذا الدور(1).

وثمة ظاهرة اتسمت بها فترة حكم دقلديانوس تتمثل في إعلاء مكانة آسيا الصغرى التي أصبحت مركز رئيسي للدولة وغدت حلقة وصل حيوية في شبكة مواصلات البلاد ، فقد أدرك دقلديانوس أن المركز الحقيقي لقوة العالم الروماني لم يعد في الغرب ولكنه انتقل إلى الشرق ، وذلك لما يتمتع به الجانب الشرقي من وفرة في الموارد الاقتصادية والبشرية والحضارية ، ويرجع كذلك إلى ما واجهته الإمبراطورية من أخطار في الجانب الغربي وخاصة في منطقة الدانوب الأدنى ، حيث ازداد تهديد المتبربرين واندفاعهم نحو الحدود الرومانية من جهة الشمال والغرب ، فاتخذ دقلديانوس عاصمة جديدة له في الشرق هي نيقوميديا في الشمال الغربي من آسيا الصغرى على بحر مرمرة وعلى الشاطئ الشرقي للبسفور ، فأقام بها وجعلها مركزاً لحكمه ، وكان قد خص نفسه في التقسيم الرباعي بمنطقة الشرق الغنية التي توجد بها هذه المدينة(2).

وليس من شك في أن هجر روما واتخاذ عاصمة في الشرق كان له اثر كبير ينبئ ببداية حقبة جديدة ، وكانت سابقة لقسطنطين احتذى حذوها ببناء عاصمة جديدة في الشرق هي القسطنطينية (روما الجديدة) على ضفاف البسفور لتصبح عاصمة للدولة البيزنطية على مدى العصور الوسطى . وكان طبيعياً مع انتقال ثقل الإمبراطورية إلى الشرق أن فقد الجزء الغربي تأثيره الحضاري والسياسي بعد أن تحولت اغلب المناطق التي تسيطر عليها الإمبراطورية تدريجيا إلى الحديث باللغة اليونانية ، وراحت اللاتينية تتوارى أمام التأثير الحضاري اليوناني القوي حتى أصبحت هي السمة البارزة للإمبراطورية البيزنطية(3) .

---

(2) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٤ ص٤٥ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ص ص٢٠ . ٢١ .

(1) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٢٩ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٨.

(2) نورمان بينز ، مرجع سابق ، ص ص ٥ . ٦ ؛رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٤٧ . ٤٨ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٩ ؛ هسي ، مرجع سابق ، ص٣١ .

رابعاً: نتائج وآثار الإصلاحات .

هذا هو دقلديانوس وهذه هي إصلاحاته ، التي كانت تهدف إلى المحافظة على النظام والأمن ووحدة الإمبراطورية ورخاءها الاقتصادي ، ومع أن نظامه الجديد أفلح في استرجاع الحدود القديمة وفي سحق عناصر الفوضى الداخلية ولكن بنظرة عامة إلى فترة حكمه نجد أنه لم يقدم حلولاً ثابتة لمشاكل عصره بل إن إصلاحاته ساهمت في بعض الأحيان في تضخيم تلك المشاكل ، حتى إن بعض إصلاحاته لم تستمر إلا في فترة وجوده في الحكم ، ففي المجال السياسي نجد إنه قضى على كل ما تبقى من بعض مظاهر النظام الجمهوري ، وتلاشت جميع اختصاصات مجلس الشيوخ حتى كونه هيئة استشارية ، وجاء بنظام بيروقراطي مركزي صارم طويل الأمد يقوم على الحكم الفردي المطلق ، وفي المجال الإداري والعسكري يلاحظ أن زيادة أعداد العسكريين والموظفين ترتب عليه زيادة في نفقات الدولة ، وتطلب إعادة ترتيب الولايات موظفين كبار يحصلون علي رواتب كبيرة مما زاد أيضاً في إرهاق الخزينة العامة ولم تقضِ إصلاحاته على مشكلة غش العملات النقدية ، ولم يوفق في وضع حد لزيادة نفقات المعيشة ، وكذلك فإن إصلاحات دقلديانوس زادت عبئاً جديداً على دافعي الضرائب من الفلاحين الأمر الذي أجبرهم على ترك مزارعهم وشكلوا جماعات معارضة نزلت إلى المدن وأخذت في ئنهب مزارع الطبقة المرتبطة بالإمبراطورية وهم الذين عرفوا بالدوناتيين أو الدوارين في شمال إفريقيا(١) .

وأما ما استحدثه من إصلاحات إدارية بما يعرف بالحكم الرباعي والذي كان يقضي بتفويت الفرصة على الفيالق العسكرية وتدخلها في اختيار الأباطرة ووقف نزيف الحروب الأهلية ، إلا أن هذا التقسيم كان هو الذي كرس للتنافس والصراع داخل الإمبراطورية فبمجرد اعتزال دقلديانوس في سنة ٣٠٥م احتدم النزاع بين الساسة الأربعة ، وكذلك فإن ما ابتدعه دقلديانوس من تقسيم للإمبراطورية جرى بمقتضاه رسم هيكلية لتجزئة الإمبراطورية إلى قسمين ، ولم يستطع دقلديانوس كذلك أن يحل مشكلة قصور الوثنية عن ملء الحاجات النفسية لسكان الإمبراطورية ، ولم يقدم حلاً لمشكلة المسيحيين إلا الحل الأمني وذلك باستئصالهم وتصفيتهم ، وهذا أيضا جاء بنتائج عكسية إذ ازدادت المسيحية قوةً وتأثيراً ، بل إنه صار كمن سكب الزيت على الماء ،

---

(١) حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص ص٢٠ . ٢١ ؛ أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠٤.

لأنـه مـن المسـتحيل أن تجتـث جـذور نظـام أصـبح يـدين لـه بـالولاء قرابـة خمـس سـكان العـالم الروماني ، ولم يمت دقلديانوس حتى رأى مراسيم التسامح التي أصدرها الساسة من بعده [١].

إلا أنـه ورغـم كـل ذلـك فـإن مـا ابتدعـه دقلـديانوس مـن النظـام الربـاعي أدى إلـى قيـام قسطنطيوس (والد قسطنطين) ، فقد اختاره دقلديانوس شريكاً لـه فـي الحكم الربـاعي وما يعنيه ذلك من التمهيد لظهور رجل قوي نقل الإمبراطورية من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى ، وأنشـأ القسـطنطينية ، وأعلـن مرسـوم التسـامح الـديني ، ووضـع حجـر الأسـاس للإمبراطوريـة البيزنطية الشرقية وهو الإمبراطور قسطنطين الكبير[٢].

المبحث الثاني: المسيحية

أولاً : الحياة الدينية للعالم الروماني أثناء ظهور المسيحية .

ثانيا : المسيح والحواريون والأناجيل .

١. المسيح .
٢. الرسل (الحواريون) .
٣. الأناجيل .

---

(٢) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٤٢ .٥٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٨ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ص٢١ .

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٩ .

ثالثا : الأحوال الدينية في القرن الثالث الميلادي وقبيل زمن قسطنطين.

أولاً : الحياة الدينية للعالم الروماني أثناء ظهور المسيحية .

لقد بلغت الإمبراطورية اتساعاً كبيراً فامتدت حدودها من الهند شرقاً إلى حدود الأطلسي غرباً ، ومن أقصى شمال أوربا إلى منطقة جنوب البحر المتوسط ، وضمت داخل هذه المساحة الكبيرة أناساً مختلفين في الجنس واللغة والعقيدة ووجدت فيها كل عبادات هذه الشعوب ، والتقى فيها الفلاسفة والمفكرون من كل مكان ونظر الناس إلى المعتقدات والاتجاهات نظرة عالمية فلم تكن هناك خصوصية كبيرة لها ، فاتساع الإمبراطورية ورحابتها وسع أمامها مجال الاقتباس في أمور العبادة والدين ، فقد استقبلت باهتمام كثير من المؤثرات الدينية من خارج روما ولم تقف الحدود الجغرافية حائلاً أمام دخول ديانات ومعبودات جديدة وخاصة الشرقية إلى الإمبراطورية ، فالعلاقات التجارية مثلاً والتي كانت قائمة بين روما والشرق حملت معها إلى جانب السلع التجارية ثقافات وديانات جديدة[1] ، وإذا كانت روما قد فرضت سيادتها السياسية على كل هذه الشعوب المختلفة إلا أنها لم تستطع أن تفرض عقيدتها ومعبوداتها عليهم وكانت متسامحة جداً مع كل الأديان ، حتى إن معبودات هذه الشعوب هي التي دخلت إلى روما وانتقلت من هذه

---

(١) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٤٠٩ .

الأمم المحكومة إلى الحاكم وخاصة عبادات الشرق ، إلى أن جاءت المسيحية فلم تنحرف عن هذا الاتجاه باعتبار أن الديانة المسيحية ديانة شرقية ، ولذلك فقد اختلطت في هذه الإمبراطورية ديانات وعقائد مختلفة بالإضافة إلى العقائد التي كانت موجودة عند الرومان[1].

وكان هناك اختبارات تخضع إليها أي ديانة أجنبية قبل أن تدخل للإمبراطورية وتكون شرعية فلابد أن تكون الديانة الجديدة مأمونة العواقب من الوجهة السياسية ولا تحدث انقلاباً في مركز العبادات الرومانية ، وأن لا تكون غير مقبولة من الناحية الخُلقية ، فإذا تعدت هذه الاختبارات تلقى التسامح من السلطات[2].

ولكن رغم تسامح الرومان مع الديانات الوافدة إلا أن قاعدة التسامح هذه لم تسع عبادة شرقية واحدة وهي التي كانت منتشرة في قرطاجة وهي تقديم القرابين والذبائح البشرية[3] وتشددت في تحريمها حتى اجتثت من الإمبراطورية ، والتي رأوا أنها غير مقبولة إنسانياً وأنها تحتوي على طقوس دموية ، ولكن الغالب أن محاربتها كانت لأسباب سياسية[4].

وقد لاقت الديانة اليهودية الاحترام من قبل الأباطرة الرومان ، وسمح لليهود بحرية تطبيق شعائرهم الدينية ومنحوا العديد من الامتيازات وسمح لهم بإنشاء المؤسسات الخاصة بهم في جميع الولايات ، وأعطوا حكماً محلياً سُمح لهم فيه بممارسة القضاء وفق تعاليم دينهم ، ولكن تدمير الهيكل جاء نتيجة لما قام به اليهود من أعمال ، فمنذ زمن نيرون حتى أنطونيوس أظهر اليهود ضجراً كبيراً من حكم روما وقاموا بالعديد من المذابح والثورات ، فقد ارتكبوا أعمالاً فظيعة في مدن مصر وقبرص وبرقة ، ويقول جيبون عن اليهود إننا نميل إلى تشجيع ما أنزله جيش الإمبراطورية من قصاص بهذا العنصر المتعصب والذين يدعون أن خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة كانت من ألد الأعداء ليس للحكومة الرومانية وحدها بل للجنس البشري بأسره[5].

---

(١) عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٧٠ ؛ رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص١٨.

(٢) بارو ، مرجع سابق ، ص١٤٩ .

(٣) للمزيد عن الأضحية البشرية ينظر عبدالحفيظ الميار ، ((ظاهرة الأضحية البشرية في الديانة الفنيقية)) ، مجلة آثار العرب العدد الحادي عشر والثاني عشر ، طرابلس ١٩٩٩م ، ص ص١٤-١٨.

(٤) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٤٠٩ .

(٥) ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٢١٠ .

ويدور محور العبادات عند الرومان حول الآلهة والمعبد وما يرافقها من شعائر أصبحت بمرور الزمن ذات قدسية مطلقة ، فنجدهم يحاولون التوفيق بين ما ورثوه عن اليونان وبين طقوسهم المحلية وكذلك ما جلبته الشعوب التي تدخل تحت لوائهم فقد عبدوا آلهة كثيرة اختلفت في قدسيتها من مدينة إلى أخرى حتى قيل إن الروماني " يبتهل في دعاء واحد إلى آلهة كثيرة بل لم يعد في وسع الرومان التمييز بين تمثال الأرباب وتمثال قيصر " [١].

وقد أدى كثرة الآلهة والمعبودات الموجودة إلى اندماج العبادات بعضها ببعض وتشابهت طقوسها ووعودها لاتباعها كثيراً ، وهذه صيغة ابتهال واحد إلى آلهة رومانية متعددة " إلى جوبيتر أحسن الآلهة وأعظمها ، وإلى الملكة جونو ومنيرفا المقدسة وميثراس إله الشمس وإلى هرقل ومارس وميركوري وإلى الروح الحارسة للمكان وإلى كافة الآلهة والإلهات " [٢].

أما عن الشعوب فقد كانت غارقة في الخرافات الكثيرة ، حيث كان لكل مدينة إله أو آلهة ، ولكل حرفة أو تجارة ربها وحاميها ، ولكل حادث أو مناسبة مثل الميلاد والزواج والوفاة آلهة خاصة ، وساد عند الناس اقتناع أن من مقتضيات بقاء الدولة هو الاحتفاظ بالعبادات والنظم القديمة ، وإنه إذا حاد الناس عنها فسوف تحل بهم المصائب ، وكان لهذا الاعتقاد أثره في اضطهاد المسيحية ، وكان للرومان آلهة صغرى خاصة بالأسر والمنازل وآلهة كبرى عامة ، وعبدوا مظاهر الطبيعة المختلفة ، وكانت لديهم آلهة للحرب والتجارة والزراعة والأخلاق وكذلك ظهرت عندهم عبادة الموتى من أسلافهم ، وكان من أعظم آلهتهم الإله جوبيتر (Jupiter) إله المطر أو إله السماء الصامتة[٣] ، ومن آلهتهم أيضا الإله مارس (Mars)إله النمو والرجولة وحامي الجيوش ورب الحرب الرومانية[٤] ، والإلهة فستا (vest) ربة نار الموقد المشتعلة ،

---

(١) عبد الرزاق رحيم صلال الموحي ، العبادات في الأديان السماوية ، اليهودية . المسيحية . الإسلام ، الأوائل للنشر والتوزيع ، دمشق٢٠٠١م ، ص ص٣٢ – ٣٣ .

(٢) بارو ، مرجع سابق ، ص١٥٢ .

(٣) مبارك محمد المنير ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر١٩٦٧م ، ص٢٤٩ ؛ عبد الرزاق رحيم صلال الموحي ، مرجع سابق ، ص٣٣ : والجدير بالذكر أن الإله جوبيتر (Jupiter) إله شرقي كانت عبادته منتشرة في مدن سوريا وقد أخذه الإغريق وأسموه زفس وسمي جوبتر عند الرومان دون أن يجري تجريده من صفاته التي عُرف بها في مواطن عبادته الأصلية : اندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٤١٠ .

(٤) محمود شاكر ، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم ، الجزء الأول ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ٢٠٠٨م ، ص٣٥٩ .

والإلـه جينـوس الـذي يرعـى الإنسـان مـن ولادتـه حتـى وفاتـه ، والإلـه نبـتس المسـؤول عـن حفظ الأطعمة ، والإلهين باليس وفروس (حاميا القطعان) والإلهة فينوس إلهة الحب والجمال ، ومن الآلهة الوافدة من الشرق الإلهة إيزيس التي وفدت من لهم مصر والإله ميثرا (Mithra) الذي وفد إليهم من فارس[١] ، وإلى جانب الآلهة عبد الرومان ملوكهم وأبطالهم وأمرائهم " بل إنهم قد ألهوا عائلة الإمبراطور الحاكم كلها "[٢] .

ويبدو إن عبادة الإمبراطور قد جاءت للرومان من الشعوب الأخرى ، إذ أنه على الرغم من العداء الذي كان قائماً بين الروم والفرس ، إلا إن الرومان نظروا إلى طريقة تقديس الفرس لملوكهم نظرة إعجاب ورهبة وتقدير ، وأيضاً ربما يكونوا قد تأثروا بنظرة المصريين للفراعنة فقد كان المصريون يعتبرون الفرعون أبناً للإله أو هو الإله كما ورد ذلك في القرآن على لسان فرعون موسى الذي قال لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾[٣] وبالتالي يجب تقديسه وعامل المصريون أغسطس عند دخوله مصر معاملة الفرعون ، فمن الممكن أن يكون تحت التأثير الفارسي أو التأثير المصري أخذ الأباطرة الرومان بهذه الطريقة لتثبيت حكمهم وإصباغ القداسة على أشخاصهم[٤] . وفي سنة ٤٣ ق.م أعلن يوليوس قيصر (Julius Caesar ٥٩-٤٤ ق . م) إنه من سلالة الآلهة وبعد اغتياله وتنصيب اكتافيوس ابنه بالتبني مكانه أعلن هذا أنه ابن المؤله يوليوس قيصر ، وقد وردت هذه العبارة في النقوش منذ سنة ٣٦ ق.م وتبعا لذلك فإن كل إمبراطور روماني يصبح بعد موته إلهاً ، إذ كان لا يتم تأليه الإمبراطور إلا بعد موته حتى إن أحد الأباطرة وهو الإمبراطور فسبسيانوس (vespasianus ٦٩ . ٩٧م) لما أحس بدنو أجله أعلن إنه على وشك أن يكون رباً ، ولكن الإمبراطور كاليجولا (Caligula٣٧ . ٤١م) شذ عن هذه القاعدة وأعلن نفسه رباً في حياته[٥].

---

(١) محمود السيد ، التاريخ اليوناني والروماني ، مؤسسة شباب الجامعة ، ٢٠٠٠م ، ص ص٥٢١- ٥٢٢ ؛ . محمود شاكر مرجع سابق ، ص٣٦٠ .

(٢) عبد الرزاق رحيم صلال الموحي ، مرجع سابق ، ص٣٣ .

(٣) سورة النازعات ، الآية ٢٤ .

(٤) سيد أحمد علي الناصري ، الروم والمشرق العربي ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص ص٣- ٤ ؛ ستيفن رنسيمان ، مرجع سابق ص١٨ .

(٥) سيد أحمد علي الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص٥ .

وقد حرص الأباطرة على تقوية هذه العبادة وتحويلها إلى عبادة للدولة حتى تطورت هذه الفكرة وانتشرت في كل أنحاء الإمبراطورية ، ونصب لها كهنة رسميون تحت إشراف الدولة وكانت هذه العبادة وطنية أكثر منها دينية ، وغاية ما في الأمر في عبادة الإمبراطور أن يحاط بالتكريم والتبجيل في أثناء الاحتفالات الرسمية فهي لم تتطلب شكلية معينة ولا وقت معين مما جعل الشعوب المنضوية تحت لواء روما تتقبل هذه العبادة لأنها لا تتعارض مع معبوداتها ومقدساتها ، فظاهر هذه العبادة سياسية وليست دينية لذلك لم تكن لها هيئة خاصة وترك لكل شعوب الإمبراطورية أن تعبده على الوجه الذي يتناسب معها [١].

وبما أن رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة ، فقد سرى هذا الإختلاط إلى الجيش الروماني الذي كان يضم جنود مصريين ونوميديين وليبيين وغيرهم ، وكانوا يسوقون هذه الجيوش إلى الشرق والغرب ويتركونها أحياناً لاتقاء بعض المنازعات ، وكان من الطبيعي أن يقيم هؤلاء الجنود طقوسهم الخاصة بهم دون أن يتعصبوا لعبادات روما ويعرضوا عن عبادات غيرها ، فما من إله شرقي سواء كان من دول الشرق الخاضع لسلطة روما أم من الشرق الأبعد مثل بابل وإيران الخاضعين للفرس ، كل هذه المعبودات اندفعت نحو روما ودخلت الولايات اللاتينية اللسان واللغة[٢].

ويمكن وصف كيفية تعامل الرومان مع الديانات الأخرى ، فقد كان المشرفون على الديانة الرومانية الرسمية يسمحون للجمهور باتباع ديانة أجنبية وذلك بإعطائها مكانا في المهرجانات العامة ، أو منحها قطعة أرض تقيم عليها معبدها ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أجراء تحوير لشعائر هذه الديانة لكي تتناسب مع التقاليد الرومانية ، فقد كانت تتعرض قصة وأسطورة الديانة الوافدة للتغيير ، كما تتعرض طقوسها ومصطلحاتها اللغوية للتغيير بحيث تحمل طابعاً رومانياً ، وعندما يكون ذلك غير ممكن يحذف منها بعض العناصر الغير مقبولة وعندما زاد ضغط الديانات الجديدة بعد توسع الإمبراطورية وقدوم الناس زرافات إلى روما من كل مكان لممارسة الصناعة والتجارة وغيرها من أوجه النشاط وسعت الدولة تسامحها لكل الديانات كما

---

(١) محمود السيد ، مرجع سابق ، ص٥٢٢ ؛ مبارك محمد المنير ، مرجع سابق ، ص٢٩٣ .

(٢) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٤١٣ ؛ عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٧٠ .

كان يمارسها الأفراد ، شريطة ألا تُخل بالآداب العامة ولم تكن خطرة سياسياً بمعنى إنها لاتمارس السياسة تحت ستار ديني ، وبذلك حصلت عبادات شرقية كثيرة على الاعتراف بها من قبل الإمبراطورية ، ولو أن الإمبراطورية كانت تتوخى الحذر فيما يخص عددها وطابعها[١].

واعتنى الرومان كذلك ببناء المعابد لأربابهم ليقدموا القرابين لها وأيضا اهتموا بالكهنة وتثقيفهم وفتحت لهم مدارس خاصة للعلوم الدينية ووفرت لهم كل مستلزمات التدريب ، وكان يترأس الكهنة (الكاهن الأكبر) صاحب الكلمة الأولى في المجتمع الديني وعلى المستوى الشعبي والرسمي ، وكانوا يسيرون في مواكب ويحتفلون بالأعياد فإذا حدث لأحدهم شيء خارق قالوا إنه من الأرباب التي نزلت إلى الأرض[٢] ، وكانت صلاتهم عبارة عن خضوع وقنوت أمام الإله في المعبد على هيئات مختلفة وقوفاً وجلوساً رافعين أيديهم تارة وخافضينها تارة ، ويرددون التراتيل الدينية مصحوبة بصوت الموسيقى خاصة عندما تكون الاحتفالات رسمية وشعبية[٣].

وأهم الظواهر التي تستدعي الانتباه حول الأحوال الدينية هي أنها كانت في مرحلة أشبه ما تكون بحالة تصفية في بداية الميلاد فقد ذكر المؤرخ (سويتنوس) أن القيصر أغسطس جمع حوالي ألفي قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والإغريقية وأمر بها جميعا فأحرقت ولم يبق إلا على أشياء قليلة منها والتي حفظها في صندوق من الذهب ووضعها في معبد الإله أبولون وذلك في سنة ١٢ ق.م [٤].

إن هذه الكثرة في الآلهة سببت إرباكاً للمجتمع الروماني وجعلته أحياناً يسخر منها ومن طقوس عبادتها ، حتى إنه يلاحظ في القرنين السابقين للميلاد إحساس عام بالحاجة إلى الدين الذي يلبي حاجات الناس الروحية ، وكانت الفلسفة توجه قلوب الناس إلى إله واحد ، إلا أن هذه الفلسفات القديمة يبدو إنها عجزت عن إحلال الوحدانية مكان عقيدة تعدد الآلهة الأمر الذي جعل قسطنطين يفتح روما للمبشرين المسيحيين[٥] .

---

(١) بارو ، مرجع سابق ، ص١٤٧.

(٢) محمود السيد ، مرجع سابق ، ص٥٢٢ .

(٣) عبدالرزاق رحيم صلال الموحي ، مرجع سابق ، ص٣٤ .

(٤) عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٧٦ .

(٥) جايمس هنري برستد ، العصور القديمة ، ت. داود قربان ، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م ، ص ٦٢٠ ؛ عبدالرزاق رحيم صلال الموحي ، مرجع سابق ، ص٣٣ .

ثانيا : المسيح[1] والحواريون والأناجيل .

١. المسيح (عليه السلام)

بعد مرور مئات السنين علي ميلاد المسيح (عليه السلام) إلا انه ظهر من بين المؤرخين من يشكك في وجود المسيح فيقول بعضهم إن وجود المسيح هو عبارة عن أسطورة أو خرافة مثل خرافة أوزوريس وأوريس ومثراس ، وشكك البعض الآخر في وجود الأناجيل وصحة نسبتها إلى المسيح عليه السلام ، ولكن سنعرض عن هذه الآراء ومناقشتها لأنها ستذهب بعيداً عن موضوع الدراسة ولأنه أيضاً وجد من الأدلة ما يقطع بوجود المسيح والأناجيل ويأتي على رأسها الكتاب المقدس* والقرآن الكريم [2] .

إذن فقد وُلد المسيح في قرية الناصرة (بيت لحم)[3] بالجليل أو جليل الأم كما كان يُطلق عليها لأنها كانت مفتوحة لجميع الأمم والجليل تعني الدائرة بالعبرية لأنها اتسعت لكثير ممن حيل بينهم وبين الإقامة في مناطق أخرى بفلسطين[4]، ويفهم من رقم التقويم الميلادي المعمول به في العالم وذلك منذ سنة ٥٣٢ م أن المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد وهي السنة التي

---

(١) هي ترجمة للكلمة العبرانية مشيا (Mashiah) (المسيح) وكانت تستعمل كلقب للملوك اليهود . أما يسوع فهو الصيغة الهيلينية ليشوع (Joshua) والتي أتت من (Jehoshua) وهي بالعبرانية (Jehoshua) يهوه هو الخلاص : فيليب حتي مرجع سابق ،ص٣٦٣ ؛ أما لفظة نصارى فهي تطلق في العربية على أتباع المسيح وربما تكون لفظة معربة من أصل سرياني هو نصرويو (Nosroyo) ويرى البعض أنها التسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على أتباع المسيح (Nazerenes) وقد وردت في العهد الجديد في أعمال الرسل الإصحاح الرابع والعشرين ، ويرى البعض الآخر أن لها صلة بالناصرة بلد المسيح حين يقال يسوع الناصري ، وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم لتدل على أتباع المسيحية ، وأطلق على مجتمع النصارى لفظة الكنيسة (Ecclesla) وتعني المجمع في الإغريقية بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المؤمنون : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء السادس ، ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ص٣٨٢ . ٣٨٥ .

* العهد القديم (التوراة) هي الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام . أما العهد الجديد (الإنجيل) فهو الكتاب جاء به عيسى عليه السلام . ويطلق عليهما معا الكتاب المقدس .

(٢) للوقوف على آراء المؤرخين المشككين في وجود المسيح وإنجيله يُنظر : ول ديورانت ، مرجع سابق ص ص٢٠٢ – ٢١١ .

(٣) الكتاب المقدس ، انجيل لوقا ، الإصحاح الثاني .

(٤) عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٩٠ .

دعا فيها الراهب دينوسيوس الصغير إلى أن يبدأ التاريخ من السنة التي ولد فيها المسيح وقد صح عنده الحساب على ما هو معمول به حتى اليوم[١]، ولكن الراجح من تقدير المؤرخين أن ميلاد المسيح كان قبل هذا التقويم ببضع سنوات اختلفوا في عددها ما بين سنة إلى ست سنوات قبل الميلاد ، وإنه على أصح الأقوال لم يولد في السنة الأولى الميلادية ، فنجد أن لوقا ومتا صاحبي الأنجيل يحددان ميلاد المسيح في السنة التي كان فيها هيرودوس ملكاً على اليهود أي قبل العام الثالث قبل الميلاد[٢] ومن المعلوم إن هيرودوس مات في السنة الرابعة قبل الميلاد ، ويذكر يوسفيوس إنه قد أجرى إحصاء في ولاية كيرنيوس على سوريا في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد في عهد القيصر أغسطس ، ويشير إنجيل لوقا[٣] إن الإحصاء أجرى ومريم حُبلى بعيسى عليه السلام[٤].

والأناجيل الأربعة لم تذكر تاريخاً محدداً لهذا الحدث فمنها من يتحدث عن السنة الأولى أو الثانية ويرى البعض أن سنة الولادة هي السنة الرابعة أو الخامسة ويرى البعض الآخر إنها كانت في السنة السادسة ولكن الأقرب من أقوال الباحثين أنه كان في السنة السادسة قبل الميلاد وذلك قبل موت هيرودس الكبير بعامين [٥].

ومثلما اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها المسيح نجدهم يفعلون ذلك في اليوم الذي ولد فيه فيذكر كلمنت الاسكندري (١٠٠م) مجموعة آراء مختلفة حول هذا الموضوع منها يوم التاسع عشر من شهر أبريل ومنها يوم ١٠ مايو ومنها أيضا يوم ١٧ نوفمبر وغيرها من التواريخ [٦].

---

(١)عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٩٥ .

(٢) الكتاب المقدس ، انجيل متى ، الإصحاح الأول ، إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ؛ ول ديورانت . مرجع سابق ، ص٢١٢.

(٣) الكتاب المقدس ، انجيل لوقا ، الإصحاح الثاني .

(٤) عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ص٩٥ – ١١٢ .

(٥) فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص ٣١٢ ؛ سيد أحمد علي الناصري سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص١٨٣ ؛ جمعة البشير الحراري ، الحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية في ولاية أفريقيا البروقنصلية ٣١ ق م ـ ٢٨٤ م ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة السابع من أبريل ، الزاوية ليبيا ٢٠٠٤م ، ص٢٦٢ .

(٦) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢١٢ .

واسم المسيح هو عيسى بن مريم ابنة عمران واختُلف كذلك في نسب عمران إلا أن متى ولوقا نسباه إلى سليمان بن داود عليهما السلام[١]، وكان عمران كبير كهنوتية بيت المقدس وزوجته تدعى حنة ، وكانت من العابدات ولكنهما لم ينجبا أولاد مع تقدم سنهما كما ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم][٢] ، ونذرت حنة زوجة عمران إذا رزقها الله بولد أن تجعله وقفا لخدمة بيت المقدس ، فرزقت بمريم ووفت بنذرها ودفعت بها إلى بيت المقدس إذ كفلها زكرياء حتى كبرت وظهرت على يديها الخوارق قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣]، ومازالت في خدمة بيت المقدس على عبادتها وورعها حتى بشرتها الملائكة أنها سوف تلد ابناً من غير أب وسوف يكون نبياً ورسولاً ، فقدر الله أن تحمل مريم بعيسى ولما ظهر عليها الحمل خشيت أن تتهم في عرضها ، فخرجت من بلدها وأخذها المخاض في الطريق ووضعت عيسى شرقي بيت لحم على بعد ثمانية كيلومترات من بيت المقدس [٤].

هذا ولم يرد ذكر واضح للمسيح في كتب المؤرخين في عهده ، فلم يظهر في كتب التاريخ المعاصرة له إذ يبدو أنه لم يكن المؤرخون ليحفلوا بفتى صغير ، فهو لا يعدوا أن يكون صبياً يهودياً جمع بعض الأتباع من حوله وبشر وشقي ثم صلب (حسب ما يعتقد أكثر المسيحيين) ومات في ولاية نائية من إمبراطورية مترامية الأطراف ، ولكن وجدت بعض الإشارات للسيد المسيح في كتابات بعض المؤرخين مثل: فلافيوس يوسيفوس (٣٧ م – ١٠١م) العصور القديمة (Antiquities) فيقول: كان هناك في هذا الوقت يسوع ، و هو رجل حكيم ، لقد كان يفعل أعمال رائعة ، لقد تحول (آمن به) العديد من اليهود والعديد من الوثنيين وغير اليهود ،. وعندما قام بيلاطس، في اجتماعه مع رجاله الرئيسيين منّا (اليهود) بإدانته بالصلب

---

(١) الكتاب المقدس ، أنجيل متى ، الإصحاح الأول ، إنجيل لوقا ، الإصحاح الأول ؛ ول ديورانت . مرجع سابق ، ص٢١٤.
(٢) سورة مريم ، الآية ٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية٣٧ .
(٤) مبارك محمد المنير ، مرجع سابق ، ص٢٩٤ ؛ جمعه البشير الحراري ، مرجع السابق ، ص٢٦٢ .

فإن أتباع يسوع لم يتركوه لحبهم و أيمانهم منتظرين ظهروه إليهم في اليوم الثالث حيّ (قيامته من الموت) وأنهى كلامه بهذه العبارة " وجماعة المسيحيين التي سميت بذلك نسبة إلى اسمه لم تنقرض حتى اليوم. "(١)وحتى هذه الفقرة القصيرة يعتبرها بعض النقاد مدسوسة على المؤرخ(٢).

وأشار المؤرخ اللاتيني تاكيتوس (Tacitus) ٥٥ م – ١١٧ م) في كتابه سجلات التاريخ (The Annals) إلى المسيح بصورة عرضية في قوله: ربط نيرون الذنب وأوقع التعذيب الأشد قسوة في التاريخ على جماعة كانوا مبغضين منا والمأخوذ اسمهم من المدعو المسيح ، وهم (المسيحيون) عانوا من الأضطهاد فى فترة حكم طيبريوس (طيباريوس)* القيصر على يد بيلاطس البنطى (Pontius Pilatus)، بسبب خرافتهم المؤذية ، هؤلاء المسيحيين حتى هذه اللحظة ، يزداد الأيمان بتعاليمهم التي مصدرها أرض اليهودية (Judea) منبع الشر حتى وصلت إلى روما ، حيث تنتشر فى روما كل الأشياء المخزية و تتحول من أشياء فردية إلى أشياء شعبية ، وقد تعرض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس (١٤ . ٣٧م) بموجب حكم الحاكم بيلاطس النبطي(٣).

أما بليني الأصغر (Pliny) * ذكر المسيح في أحد كتاباته يقول : " كان للمسيحيين عادة الاجتماع فى يوم ثابت محدد قبل شروق الشمس ، في أحد المرات أخذوا ينشدون الألحان للسيد المسيح ألحان مقدمة له كإلَه ، متحدين بوعد قطعوه على أنفسهم ؛ ألا يمارسوا أي أفعال شريرة ، وألا يرتكبوا أي احتيال أو سرقة أو زنا ، وألا يرجعوا في كلمتهم ووعودهم، وألا يكذبوا أو ينكروا الحقيقة عندما يطلب منهم الإدلاء بها ، و كانت سمتهم الروحية والتوحد كل بمفرده ، ثم كانوا يجتمعوا مرة أخرى للأكل معاً ، و كان أكلهم اعتيادي وبسيط"(٥).

---

(١). Josephus, Antiquities, World Wide Web, Volume18, chapter 5, 2nd heading.

(٢) فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص٣٦٣ .

* طيباريوس بهذا اللفظ ورد اسمه عند ابن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم . محمد بن محمد ابن عبدالكريم بن عبدالرحمن الشيباني المعروف بابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد الأول ، دار صابر بيروت لبنان ١٩٩٥م ، ص٣٢١ .

(3) Tacitus, The Annals, Alfred John Church and William Jackson Brodribb, international and pan-American, World Wide Web presentation , 2000.

* بليني كان حاكم بيثينيا (Bithynia) فى أسيا الصغرى، قام بتأليف عشرة كتب، كتبهم حوالى سنة ١١٢م.

(1) Pliny, *Letters*, transl. by William Melmoth, rev. by W.M.L. Hutchinson (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1935), vol. II, P.96◦

ويرى لوشيان (Lucian) الكاتب اليوناني وأحد علماء البلاغة و البيان في اللغة الإغريقية (حوالي ١٢٠ م – بعد ١٨٠ م) أن المسيحيين يعبدون الرجل الذي علمهم أساسيات الدين وصلب بالنيابة عنهم ، وهم ينكرون الآلهة اليونانية واعتبروا أنفسهم إخوة في الدين فهم يعبدون الحكيم المصلوب ويعيشون على قوانينه التي علمهم إياها وقد تميزوا بالإرادة القوية وإيمان راسخ يجعلهم يحتقرون كل الأمور الأرضية الدنيوية ، فهم ينظرون لها على أنها أمور زائلة[١].

وقضى المسيح شبابه في الناصرة والجليل وجاب أنحاء فلسطين ولما بلغ سن الثلاثين نادى بنفسه رسولاً من الله وأصبح يبشر الناس بتعاليم دينه الجديد[٢].

ولم تذكر الأناجيل إلا القليل عن شباب المسيح ، إذ تقول بأنه كان نجاراً امتهن هذه الحرفة وقتاً ما ، وإنه كان على علاقة بمن يمتهن حرفته هذه ، بالإضافة إلى معرفته للملاك ورؤساء الخدم والمستأجرين والأرقاء وقد تردد ذكر هؤلاء في أحاديثه ، وكان قبل بعثته يتردد على المجمع الديني اليهودي ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس (العهد القديم) ولعله قرأ بعض الأسفار بنفسه والتي يلاحظ أنه كان لها أثر كبير في الأناجيل[٣].

وقد مارس المسيح التبشير في مدة لا تزيد عن ثلاثة سنوات كانت مليئة بالأحداث والمعجزات والأخطار ، هذا ولم يزعم المسيح ولا تلاميذه من بعده أنهم جاءوا بدين جديد بل إن ما أتى به هو إتمام للعهد القديم عند اليهود فيقول : " لا تظنوا إني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء بل لأكمل "[٤] فهو رسول الله إله اليهود الإله الأوحد الذي لا يمكن تمثيله ولا تدركه الأبصار ولا يمكن لأحد أن يراه[٥]، وكان يتوجه إلى عامة الشعب اليهودي في أحاديثه ويختلط بالفقراء والمساكين ويخاطبهم بلغة بسيطة سهلة يفهمها جميع الناس ، وكان يستخدم القصص والأمثال والصور الحسية في خطاباته ، ويبدو أنه كان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته لذلك

---

(2) Lucian, The Death of Peregrine, 11–13, in The Works of Lucian of Samosata, transl. by H.W. Fowler and F.G. Fowler, 4 vols. (Oxford: Clarendon, 1949), vol. 4.

(٢) نورالدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٦٢ .

(٣) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص ص٢١٤ – ٢١٥ .

(٤) الكتاب المقدس ، إنجيل متى ، الإصحاح الخامس .

(٥) نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٦٢ .

كان يبني آماله ومساعيه على انقلاب يدخل قلوب الفقراء ، وقد أيده الله بمعجزات كبرى يستعملها للتدليل على صدق نبوءته[١].

وكان أكثر أتباع هذه الدعوة من الفقراء (خلال المرحلة المبكرة من دعوته) ومن الطبقات المحرومة وخاصة في المدن التي يكثر فيها الفقر ، ووجد الفقراء في دعوة المسيح الخلاص لهم من أحوالهم السيئة في الدنيا وذلك بأن ينالوا ما حرموا منه بعد موتهم بدخولهم الجنة[٢].

ولكن دعوة المسيح هذه ما لبثت أن اصطدمت باليهود سوءاً من الحزب الهيرودي الموالي للرومان والذين خافوا من أن يعزلهم المسيحيون من مواقع القرار ، أو من المتطرفين اليهود (الفريسيون) الذين اعتبروه خارجاً عن الناموس والشريعة اليهودية ، لأن ما جاء به من مبادئ تنادي بالإخاء والمساواة بين جميع البشر ، يتناقض مع طموحات اليهود وأفكارهم ، فقد كانوا ينتظرون نبياً ماجداً منتصراً وينظرون إلى أنفسهم على أنهم أفضل البشر وأن المسيح سوف يرفع هذا الشعار وينتصر لآرائهم ، ولكن جاءت تعاليم المسيح بخلاف ما كان ينتظر اليهود ، فليس هناك في تعاليمه ما يسمى بشعب الله المختار ولا ينال الحظوة عند الله أي قوم إلا بعملهم ، لذلك ما كان من اليهود إلا أنهم أثاروا السلطات الرومانية عليه وأظهروه بأنه خارج عن قانون الإمبراطورية وأنه يقود تمرداً على السلطة في حركة ثورية تتستر بالدين وتسعى إلى قلب الأوضاع في البلاد[٣].

وكانت فلسفة الرومان في إدارة الولايات هي أن تمنح السلطات المحلية وأعيان الشعوب جانبا كبيرا من إدارة شؤون الولاية ، ولذلك فقد مُنح اليهود في هذه المنطقة مثل تلك السلطات من خلال مجلس تشريعي اسمه مجلس السنهدرين (Sanhedrin) يتولى شؤونهم الإدارية والقضائية وقد كان لهذا المجلس حق إصدار كل الأحكام القضائية ماعدا حكم الإعدام الذي كان من حق الوالي الروماني وحده ، فكان على المجلس اليهودي أن يحصل على موافقة الوالي

---

(١) ابن الأثير ، مصدر سابق ، ص٣١٤ ؛ نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٦٢ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ص٢٢٠.

(٢) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٣ ؛

Michael Grant, op. cit, p. 305.

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ص١٨٤ . ١٩٠ ؛ جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٣ ؛ نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٦٢ مبارك محمد المنير ، مرجع سابق ، ص٢٩٥ .

الروماني إذا أراد اصدار حكم الإعدام في حق اليهودي الذي يرتكب جريمة الكفر ، أما الجرائم السياسية وخاصة التي تمس أمر الإمبراطورية فكانت من اختصاص الوالي الروماني فقط باعتباره ممثلاً للإمبراطور في الولاية[١].

ويظهر ذلك جلياً في خطاب السنهدرين للوالي الروماني بونتيوس بيلاطس (Pontius Pilatus) (٢٦ . ٣٦ م) عندما طلبوا منه أن يستلم المسيح ويطبق فيه حكم الإعدام ، خرج عليهم وقال لهم " أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟ "أجابوه وقالوا له " لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك! " فقال لهم بيلاطس "خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم" فقال له اليهود " لا يجوز لنا أن نقتل أحداً"[٢].

وكان أغلب نشاط المسيح في الدعوة في الجليل والتي كان يحكمه أنتيباس (Antipas)ابن هيرودس ثم انتقل إلى أورشليم وهناك لقي معارضة شديدة من اليهود الذين اتهموه بأنه يهيج الشعب ويقود تمرداً سياسياً ضد الإمبراطورية وبمقتضى السلطات المخولة للسنهدرين إلقي عليه القبض بعد أن دلهم على مكانه أحد تلاميذه وهو يهودا الأسخريوطي ، وكان ذلك في ليلة عيد الفصح في شهر أبريل من السنة الخامسة عشر من حكم تيبريوس وأُصدر عليه حكماً بالصلب ، وأرسل الله لهم شبيهاً بالمسيح فنفذوا فيه الحكم وقتلوه ظناً منهم إنه السيد المسيح عيسى بن مريم[٣](عليه السلام) قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا االمسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبهَ لهم ﴾[٤].

٢. الرسل* (الحواريون) .

اتخذ المسيح اثني عشرة رجلاً من أصحابه كان يجلس معهم كثيراً ليعلمهم تعاليم الدين الجديد لينقلوه وينشروه من بعده ، وكان هؤلاء التلاميذ يحضرون دروسه ويشهدون معجزاته

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص١٨٤.

(٢) الكتاب المقدس ، إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثامن عشر .

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ص ١٨٥.١٨٨.

(٤) سورة النساء ، الآية ١٥٧ .

* وهذه أسماء الرسل كما وردت في الكتاب المقدس ، إنجيل متى: " سمعان الذي دعي بطرس ، وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا أخوه ، فيلبس ، وبرثلماوس ، توما ، ومتى جابي الضرائب ، يعقوب بن حلفي ، تداوس ، سمعان القانوني ، ويهودا الأسخريوطي الذي خانه ".

وصاحبوه في كل رحلاته التبشيرية ولازموه طيلة سنوات تبشيره الثلاثة قبل أن يرفعه الله إلى السماء[1] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى الحواريين في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2] وكان عدد المسيحيين يزداد مع مرور الوقت وكل جماعة كانت تنظم نفسها في كنيسة[3].

وكان هؤلاء الحواريون قد تركوا بيوتهم وأبنائهم وأعمالهم وقعدوا بجانب المسيح حتى إنهم خلال طوافهم مع المسيح في رحلاته لا يصطحبون معهم لا أكل ولا زاد ولا حتى أحذية بل كانوا يعيشون على ما يقدمه لهم الناس من طعام وينزلون ضيوفا على من يتبع دينهم الجديد ويسود اعتقاد عند المسيحيين إن جميع الرسل قد استشهدوا في سبيل نشر دينهم [4].

وقد اتخذ هؤلاء الرسل اثنين وسبعين تلميذاً للاستعانة بهم في نشر دعوة المسيح وانتشروا في كافة أنحاء الإمبراطورية بما في ذلك العاصمة روما ، وتابع الرسل بعد المسيح الطقوس اليهودية الشائعة إذ كان جميع الحواريين الإثني عشر من اليهود ومن الطبقات الوضيعة وكانوا يتعبدون في أماكن عبادة اليهود ، وقد تجمعوا من الجليل وأورشليم وسائر فلسطين ، ويعقدون في بعض الأحيان اجتماعات خاصة تغمرهم فيها المحبة والإخاء ، ولم يعتبروا أنفسهم في هذه المرحلة الأولى من دعوتهم مذهباً خاصاً يختلف عن مذاهب اليهود حتى أن المسيح عليه السلام كان لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود يؤمن بأفكار أنبيائهم ويواصل عملهم ، فلم يفكر في نقض شريعة اليهود بل إنه جاء ليكمل هذه الشريعة[5]، وكان حسب ما يظهر من أقواله أنه لم يُبعث لجميع الناس بل هو مبعوث من الله لليهود خاصة حتى أنه لما أرسل أتباعه لينشروا دعوته أرسلهم لمدن اليهود دون غيرها ، وأيضا معجزاته كان

---

(١) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥٢ .

(٣) والكنيسة هي لفظة يونانية الأصل (اكليزيا) ومعناها جماعة المؤمنين ، وكان اليونان يستعملونها من قبل لمجمع العامة : جايمس هنري براستد ، مرجع سابق ، ص ٦٢٢ .

(٤) جمعة البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٤ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢٢٣ .

(٥) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص١٨٥ .

يسخرها لخدمة اليهود ، ففي أحد المرات جاءته امرأة كنعانية تطلب منه أن يشفي ابنتها من علة أصابتها فلم يفعل وقال لها : " لم أُرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالة" (١).

وقد وجدت فرق من المسيحية وبعض الرسل الذين كانوا يؤمنون بأن المسيح لم يصلب ولم يمت(٢)وإنه سيعود ليقيم ملكوت السماوات والأرض وهذه العقيدة تشبه عقيدة المسلمين في المسيح ، إلا أن هذه العقيدة حرفت بمرور الزمن ليصبح إيمان المسيحيين أن المسيح قد صلب فعلاً ومات وضحى بنفسه في سبيل غفران ذنوب اليهود (٣).

٣. الأناجيل .

الإنجيل هو كلمة يونانية الأصل (euangelion) واللفظ الدال على الإنجيل (gospel) وهو في اللغة الإنجليزية (evangel) ومعناها الأخبار السارة أو البشارة ، ويعرف كذلك بالكتاب المقدس(٤) ، والإنجيل هو الكتاب المقدس عند المسيحيين أنزله الله على نبيه عيسى الذي بدوره سلمه إلى حوارييه ليبشروا به ، ويعتبره المسيحيون دستورهم الديني الذي يجب أن ينظم حياتهم الخاصة والعامة وهو عبارة عن أربعة كتيبات وضعها اثنان من الرسل هما متى ويوحنا واثنان من الأتباع هما لوقا ومرقس ، ويرى ول ديورانت إن النسخة الأصلية تعرضت لكثير من التحريف والتغيير في النقل يقصد به التوفيق بينها وبين أغراض الناسخ(٥).

وكان هناك عدة أناجيل في القرنين الأول والثاني الميلادي إلا أن المجامع الكنسية اعتبرتها غير صحيحة وفاقدة لمصداقيتها عدا أربعة منها هي إنجيل متى ولوقا ومرقس

---

(١) الكتاب المقدس ، إنجيل متى ، الإصحاح الخامس ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص ص٢٢٩ – ٢٣٩ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ١٨٧.

(٣) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢٤٢ .

(٤) ويتكون الكتاب المقدس من ٦٦ سفراً ويقال له الكتاب المقدس أو كلمة الله المقدسة لأن مصدره هو الله ، وينقسم الكتاب المقدس إلى العهدين القديم والجديد ، وكلمة عهد تعني وثيقة أو عقد ، وهو عادة يكون بين طرفين ، فكل من العهد القديم والجديد هو عهد بين الله والناس ، ويأتي العهد القديم قبل العهد الجديد لأن العهد القديم قد خص الله به اليهود وقد كتب باللغة العبرية لأنها هي اللغة التي كانت مستعملة بين اليهود في دلك الوقت ، ويمكن تقسيمه إلى خمس مجموعات رئيسية هي : كتب التشريع وهي خمسة أسفار ، كتب التاريخ وعددها ١٢ ، كتب الحكمة وعددها خمسة ، كتب الأنبياء الكبار وعددها خمسة ، كتب الأنبياء الصغار وعددها ١٢ . والعهد الجديد هو الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح وهو يروي قصة يسوع وأعماله وأقواله وقد كتب باللغة اليونانية لأنها هي اللغة التي كانت سائدة والتي يفهمها جميع البشر في تلك المنطقة ، وكذلك يمكن تقسيم كتب العهد الجديد المكون من ٢٧ سفراً إلى خمسة أقسام هي : الأناجيل الأربعة (متي ، ومرقس ، ولوقا ويوحنا) ، وكتب التاريخ (أعمال الرسل) ، ورسائل بولس ، والمجامع الكنسية ، وكتاب النبوة (سفر الرؤيا) .

(٥) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٢ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢٠٧ .

ويوحنا[1] ، ويسود اعتقاد لدى كثير من المؤرخين إن جميع الأناجيل اعتمدت على نسخة قديمة مكتوبة باللغة الآرامية ولكنها فقدت ولم تصل إلى أيدي الباحثين ، وإن هذه الأناجيل الأربعة قد نقلت منها وكانت تشير إلى النسخة المفقودة بحرف (ك) وهي مختزلة من كلمة (quelle) بمعنى الأصل ومنهم من يسمي هذه النسخة الأصلية (لوجيا) (Logia) وهي الأقوال الشفهية التي سمعت ثم كتبت باللغة الآرامية ، ومما يدلل على صحة هذا الرأي هو اتفاق وتشابه إنجيلي متى ولوقا في كثير من الأقوال[2] . أما الاناجيل الموجودة اليوم فقد كتبت باللغة اليونانية وتتفق الروايات على إن نسختين من هذه الأناجيل كتبها مسيحيان لم يجتمعا بالمسيح ولم يسمعا منه وهما نسخة مرقص الذي اعتمد فيها على ما سمعه من بطرس الرسول وكتبها ما بين سنتي ٦٥ – ٧٠م ، والنسخة الثانية هي نسخة لوقا والتي أخذها عن بولس الرسول مع بعض الزيادات من النسخة المفقودة وكان تدوينها حوالي سنة ٨٠م ، أما إنجيل يوحنا فالكثير من الأقوال ترجح أن يوحنا تلميذ المسيح هو الذي كتبه وإنه لم يكتب قبل سنة ٩٦م[3] والإنجيل الرابع هو إنجيل متى الذي تجده يردد الكثير من أقوال إنجيلي مرقس ولوقا ، فتجد فيه ستمائة آية من الستمائة والإحدى والسبعين الموجودة في إنجيل مرقس ، وثلاثمائة وخمسين من إنجيل لوقا ، ويرجح إن إنجيل متى كتب في الفترة المحصورة بين عامي ٧٥ . ٩٠م[4] .

ثالثا : الأحوال الدينية في القرن الثالث الميلادي .

من المعلوم أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد اعتمدت على عبادة الإمبراطور كعبادة رسمية للدولة وذلك منذ زمن الإمبراطور أغسطس ، بالإضافة للديانات الأخرى القديمة ولكن هذه الديانات فشلت في استقطاب أصحاب العقول النيرة وذوي الفكر الذين لم يجدوا ما يشبع نفوسهم في ديانات الإمبراطورية الوثنية ، وأخذت تقل جاذبيتها بمرور الزمن وشعر الناس بفراغ

(١) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ .

(٢) عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص٢٠٨ .

(٤) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٢٠٨ .

كبير في النواحي الدينية والروحية ، وتحول أصحاب العقول والفكر إلى الفلسفة وأخذوا ينهلون من مذاهبها ومدارسها الفلسفية علهم يروون ضمأهم[١] .

على إن الحقيقة الكبرى في هذا المجال هو اتجاه العالم الروماني نحو عبادات الشرق التي وفرت لكل شخص ما كان يطلبه للتطهر من الأدران والآثام وذلك في الحياة الأبدية وكان الناس في حاجة إلى ديانة عالمية تدعو إلى توحيد العبودية إلى إله واحد ونبذ جميع العقائد والأديان الأخرى المنتشرة في الإمبراطورية وهو الأمر الذي دعت إليه المسيحية ولكن هذا الأمر لم يكن سهلا في دولة مثل روما تجذرت فيها الكثير من الديانات والمعبودات والفلسفات ، إلا أن المسيحية أخذت تنتشر وبشكل واسع في كل أرجاء الإمبراطورية ومع إن الأباطرة لم يسنّوا قانون عام يسري في كل الإمبراطورية حتى منتصف القرن الثالث يحدد كيفية المعاملة مع المسيحيين ولكن ترك لحكام الولايات التصرف معهم وفقاً لمصلحة الولاية والإمبراطورية فنعمت المسيحية طوال قرنين من الزمن بحرية عقدية ، ورغم تلك الاضطهادات التي حدثت للمسيحيين في القرنين الأول والثاني إلا أنها كانت متقطعة ومتباعدة ولم تكن سياسة عامة للدولة ، ولكن بحلول القرن الثالث الميلادي وزيادة حدة الأزمات السياسية والاقتصادية على الإمبراطورية والحروب الأهلية والأخطار الخارجية التي تعرضت لها من قبل الجرمان والفرس ، ونظراً لحاجة الإمبراطورية لكل الجهود للوقوف أمام كل تلك الأزمات ، ولأن المسيحيين لم يرغبوا في الدخول في الوظائف الحكومية ورفضوا الانخراط في الجندية تحت شعار النسر الروماني الوثني ، بل إنهم في كثير من الأحيان يظهرون الشماتة بما يحل بالإمبراطورية من أزمات ومن هزائم على أيدي أعداءها من الفرس والجرمان ، ويذيعون نبوءات عن الكوارث التي تنتظر الإمبراطورية مستقين إياها مما جاء في الكتاب المقدس من تدمير بابل وعودة المسيح[٢].

وعلى الرغم من ذلك ونتيجة لكل ذلك حاول الأباطرة في النصف الثاني من القرن الثالث تجميع كل العناصر السكانية في جبهة واحدة لمواجهة تلك المحن وبالطبع ضمن هذه العناصر

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٢٠ ؛ إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٢٢ .

(٢) الكتاب المقدس ، رسالة بطرس الثانية إلى أهل روما .

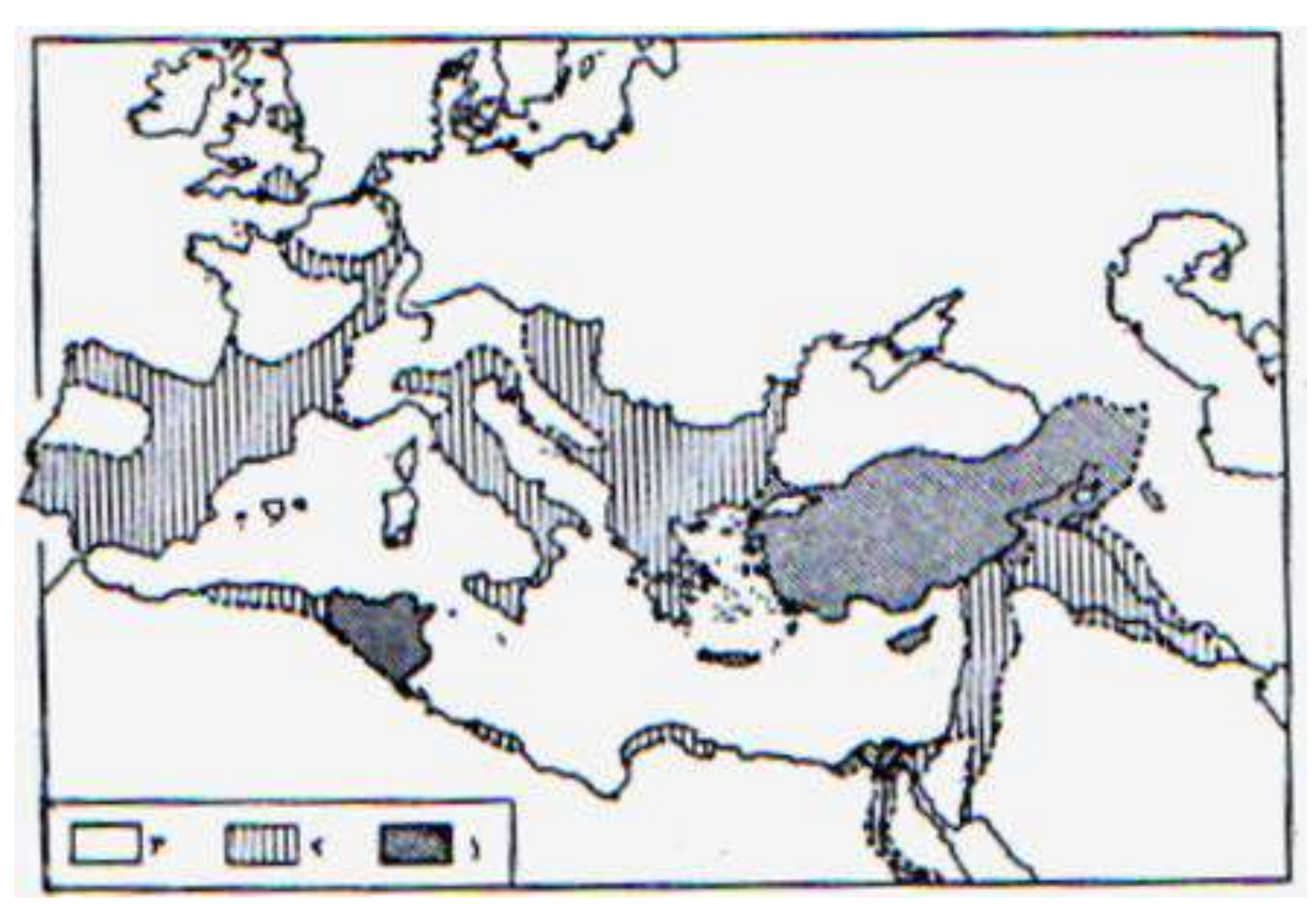
المسيحيين ، غير إن الأباطرة أصيبوا بخيبة أمل إذ إنه وفي هذا الوقت الذي يتعرض فيه كيان الدولة للتهديد بالداخل والخارج وهرع الرجال والنساء إلى الهياكل والآلهة يضرعون إليها ويطلبون عونها إلا إن المسيحيين وقفوا وقفة متفرج وظلوا يستنكرون الانخراط في الجندية ويسخرون من الآلهة ، فرأى الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩ . ٢٥١م) أنه من اللازم تقوية الروح الوطنية وبعث الحماس في النفوس لتقوية الوحدة الوطنية فأقدم على إصدار مرسوم عام يحكم على كل رعايا الإمبراطورية بأن يظهروا الاحترام لأرباب الرومان ، وذلك بتقديم القرابين لها ، غير إن المسيحيين رفضوا تقديس آلهة وثنية لأن ذلك يتنافى مع تعاليم الدين المسيحي وبذلك بدأت موجات الاضطهاد العنيفة للمسيحيين على يد الساسة الرومان وتعتبر هذه المراسيم التي أصدرها ديكيوس هي أول اضطهاد عام تقوم به الدولة ضد رعاياها من المسيحيين ، فيعد الاضطهاد وفق هذه المراسيم قانون تشرف الدولة على تطبيقه في كل ولاياتها ، وكان لهذا الاضطهاد كذلك دور في تهديد استقرار الإمبراطورية الداخلي وأحدث فجوة كبيرة بين النظام ورعيته الأمر الذي أدى إلى تفتيت الوحدة الوطنية وتغذية الحروب الأهلية بأسباب جديدة إلى جانب الصراع على السلطة [١].

والواقع إن تردي أحوال الإمبراطورية في القرن الثالث وتدهور أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية كان يصب في مصلحة الكنيسة المسيحية (خريطة رقم ٤) ، فقد حمل الكثير من الناس على الاستعداد لتسليم مصيرهم للكنيسة ، ونظروا إليها على إنها المخلص الوحيد لهم من سوء الأحوال العامة[٢] .

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الإمبراطورية البيزنطية ، الجزء الأول العقيدة والسياسة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص٢٢ . ٢٣ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٣٨ .٣٩ .

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٢٧ .



خريطة رقم (٤) المسيحية في أواخر القرن الثالث ، أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، روما وإمبراطوريتها.

١. مناطق تضم نسبة مرتفعة أو أكثرية مسيحية .

٢. مناطق دخلتها المسيحية .

٣. مناطق لم تدخلها المسيحية .

المبحث الثالث : الصراع بين الإمبراطورية الرومانية (الوثنية) والمسيحية

أولاً: موقف الرومان من المسيحية في بداية ظهورها .

الأسباب التي ساعدت على انتشار المسيحية.

ثانياً: اضطهاد المسيحية .

أسباب اضطهاد الرومان للمسيحية .

ثالثاً: مراحل الاضطهاد الديني للمسيحيين .

الاضطهاد في القرن الأول الميلادي .

الاضطهاد في القرن الثاني .

الاضطهاد في القرن الثالث .

الاضطهاد في زمن دقلديانوس .

أولاً : موقف الرومان من المسيحية في بداية ظهورها .

لم ينظر الرومان للمسيحية في بداية ظهورها على إنها خطر يهدد أوضاع الإمبراطورية فلم يعتبروها إلا مذهب يهودي غامض أو فلسفة من الفلسفات الكثيرة التي كانت منتشرة في الشرق ، فالإمبراطورية لا تفرض عبادة معينة على رعاياها باستثناء عبادة الإمبراطور ولا تطلب منهم كذلك ترك عباداتهم الخاصة ، فقد كانت متسامحة إلى حد ما مع جميع الأديان والعبادات

، وانتشرت في ولاياتها الكثير من الديانات والمعبودات ، فمن ديانات الرومان المحلية إلى معبودات الإغريق إلى الديانة اليهودية في فلسطين هذا بجانب الديانات الشرقية المتعددة ، فهي لم تمنع رعاياها من ممارسة شعائرهم الدينية طالما إنهم يعترفون بعبادة الإمبراطور ولا يخرجون عن القوانين العامة للدولة (١).

وكان جو التسامح هذا هو الذي استغلته الديانة المسيحية التي أخذت تنتشر بعد فترة قصيرة من رفع المسيح وبشكل كبير في كل أرجاء الإمبراطورية ، ولم يكد ينتهي القرن الأول الميلادي إلا وكان المسيحيون يشكلون جاليات كبيرة في كل البلدان المحيطة بالبحر المتوسط حتى إن روما نفسها تكونت فيها جالية ملحوظة منذ سنة ٦٤م ، وكذلك لم يكن انتشار الديانة المسيحية انتشاراً أفقياً فحسب أي إنها انتشرت بين الفئات الفقيرة والمعدمة في الشعب الروماني ، ولكن هذا الانتشار الأفقي صحبه انتشار راسي تصاعدي بين الفئات العليا والراقية والتي تمثل الطبقة الأرستقراطية ، صحيح إنه كان أغلب من اعتنق المسيحية في القرون الثلاثة الأولى كان من الطبقات الدنيا من العمّال والمعدمين وإن الطبقات العليا لم تقبل على اعتناق هذه الديانة بشكل كبير ، ولكن هذا الديانة لم تعدم أنصاراً لها من هذه الطبقة العليا في القرون الثلاثة الأولى(٢) .

الأسباب التي ساعدت على انتشار المسيحية

كانت هناك عدة أسباب ساهمت في انتشار الدين المسيحي في الإمبراطورية الرومانية منها ما يلي :

١. الظروف التي صاحبت توحيد الإمبراطورية الرومانية في عهد أغسطس بعد الحروب الأهلية التي وقعت بعد مقتل يوليوس قيصر ، فقد توقفت الحروب بين الأمم تحت وطأة سلطة جبارة

---

(١) محمود السيد ، مرجع سابق ، ص ص٥٢٢ – ٥٢٣ .

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص ص٣٤– ٣٥ ؛ ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٢٨٣ .

وكان هذا السلام عاملاً مناسباً لانتشار المسيحية لأنها تدعو للإخاء والمحبة والسلام ، وكذلك قامت الدولة بإنشاء شبكة من الطرق البرية والبحرية تربط بين مختلف ولاياتها ، وجعلت التنقل فيها آمنا وذلك بحراستها وإقامة المخافر عليها ، فانقطعت عصابات السطو وقطاع الطرق ، وزادت العلاقات التجارية والثقافية وقد استخدمت هذه الطرق للأعمال العسكرية والتجارية وكذلك لتبادل الأفكار واستخدمها المبشرون المسيحيون لنشر عقيدتهم بين المسافرين ، وهذه الطرق هي التي ساعدت القديس بولس علي التنقل بحرية حتى بلغ روما نفسها وهو ينشر التعاليم المسيحية [(١)].

٢. انتشار اللغة الإغريقية واللاتينية بين مختلف ولايات الإمبراطورية ، فإنك لا تجد في جميع الولايات من لا يتقن اللغتين أو إحداهما ، فاللغة الأولى هي اللغة الرسمية لغة الإمبراطورية ، واللغة الثانية هي لغة الحضارة والعلوم وهي كانت وسيلة تفاهم بين شعوب الإمبراطورية ، فبهذه اللغة نادى المبشرون بالمسيحية ، وبها كتبت أسفار العهد الجديد ، ولذلك وجد هذا الدين الجديد لغة تخاطب واحدة سهلت من عملية انتشاره في كافة أرجاء العالم الروماني[(٢)] .

٣. لم ترَ الإمبراطورية الرومانية في الديانة المسيحية في بداية ظهورها ولم تعتبرها إلا حركة فلسفية أو مذهب من المذاهب المتعددة التي كانت منتشرة عند اليهود وفي الشرق بصفة عامة ، فاعتقد الرومان أن المسيحية مثل الديانة اليهودية لا تعارض القوانين والأوضاع الرومانية الدينية والسياسية[(٣)]، وبالتالي هذا أعطى حرية الحركة للمبشرين والدعاة حيث استفادوا من عدم فهم الرومان لدعوتهم وعدم معارضتهم لها فأخذوا ينشرون تعاليمهم في الولايات الرومانية ، ولكن بمرور الزمن وبتحريض من اليهود الذين كانوا يتربصون بالمسيحية ويؤلبون الرأي العام الرسمي والشعبي عليها ، وتقديمها على أنها حركة ثورية سياسية في ستار ديني تهدد استقرار الإمبراطورية ، واستجاب الرومان في بعض الأحيان لأقوال اليهود في المسيحية وضيقوا عليها واضطهدوا أتباعها[(٤)] .

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٣٥ ؛ جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٥ .

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٣٥ .

(٣) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٤٢٠ .

(٤) فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٥ ؛ جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥ .

٤. حالة الإفلاس التي كانت تعاني منها الآلهة الوثنية الرومانية ، فلم يعد ينظر المواطن الروماني إلى هذه المعبودات الكثيرة نظرة إجلال لأنها لم تُشبع المتطلبات الروحية له ، فقد استهلكت تماماً خاصة بعد التغيرات الكبرى التي حدثت نتيجة لتوسع العالم الروماني في بداية القرن الأول الميلادي ، فقد صاحب هذا الحدث ازدهار التجارة والذي أدى بدوره إلى طغيان الجانب المادي على الجانب الروحي ، وعندما بحث الناس وأرادوا العودة إلى الروحانيات وجدوا ضالتهم في هذه الديانة الجديدة التي جاءت من الشرق الأرض التي اشتهرت بأنها منبع الروحانيات للعالم [١].

٥. قوة إيمان المسيحيين الأوائل وجهودهم الفائقة في نشر المسيحية وكذلك لكونه ديناً سماويا جاء لجميع الناس ونادى بالمساواة بين البشر ، فكان الدين الجديد في مجموع تعاليمه الأخلاقية وأفكاره وفلسفته وعقيدته في الخلود قادراً على تلبية الكثير المطالب الروحية والفكرية والاجتماعية التي لم يجدها الناس في تعاليمهم السابقة ، و كذلك أعطى الدين الجديد للمضطهدين والمقهورين والمعدومين الأمل في حياة أخرى ينالوا فيها ما حرموا منه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا ما جعلهم يقبلون على اعتناق هذا الدين بأعداد كبيرة [٢].

ثانياً : أسباب اضطهاد الرومان للمسيحية .

كان المسيحيون في نظر الرومان لا يعدوا أن يكونوا طائفة منشقة عن اليهود يتبعون المعبد اليهودي ، وهم كذلك لم يأتوا لينسخوا ديانة اليهود بل إنهم وكما هو موجود في أناجيلهم جاءوا ليكملوا تلك الديانة ، وحتى المسيح نفسه كان لا يدعو إلى ديانته إلا اليهود ، ولا يخطب

---

(١) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص ١٥ .

(٢) فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٥ .

إلا في جموع اليهود ، وجميع تلاميذه ورسله من اليهود وكان لا يبعث رسله إلا لقرى اليهود دون غيرهم من الشعوب الأخرى حتى جاء عام ٤٨م عندما أعلن أنصار السيد المسيح في اجتماع عقدوه وأعلنوا فيه إن الخلاص متاح لجميع الناس وليس وقفاً على اليهود ، وبدأوا ينشرون دعوتهم بين كافة شعوب الإمبراطورية الرومانية(١).

وكانت هناك عدة أسباب جعلت الرومان لا يتقبلوا هذا الدين ويضطهدوا أتباعه منها :

١. لقد اعتُبر المسيحيون في نظر العامة والسلطات الرومانية على أنهم من العناصر التي تشكل خطراً على المؤسسة الدينية في العالم الروماني ، وذلك بسبب عدم قبولهم عبادات الدولة الرسمية ونبذها والسخرية منها ، فلم يعترفوا بعبادة الإمبراطور ورفضوا تقديم الأضاحي أمام معابده وحرق البخور أمام تماثيله بل إنهم نظروا للأباطرة على أنهم طواغيت يجب الوقوف في وجوههم وعدم طاعة أوامرهم ، ولهذا أثاروا سخط العامة والسلطات عليهم فالعامة الذين هم وثنيون لم يقبلوا من المسيحيين الاستهزاء بآلهتهم وعقائدهم والسخرية منها ، والأباطرة خشوا أن تسقط هيبتهم وعظمتهم في نظر الناس ، يدل رفض المسيحيون الاعتراف بآلهة الإمبراطورية على عدم الولاء للدولة الرومانية و إمبراطورها والذي يعد من العوامل المفككة لوحدة الإمبراطورية ، وكذلك أخذ المسيحيون يدعون الناس للإستعداد لعودة المسيح وإنهاء الظلم الذي يعانونه من هذه الدولة الظالمة وقيام دولة العدل السماوي(٢).

والجدير بالذكر أن التعاليم المسيحية دعت إلى احترام السلطة السياسية القائمة كما جاء ذلك في الإنجيل على لسان المسيح عندما سئل عن دفع الجزية لقيصر فأجابهم : " أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله "(٣) وورد بصيغة أخرى في رسالة بولس إلى روما والتي تدعو بصورة واضحة إلى احترام السلاطين القائمين ، وأن الخروج عليهم هو خروج عن الله " لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، السلاطين القائمة هي مرتبة

---

(١) فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٥ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p. 306.

(٢) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٨ .

(٣) الكتاب المقدس ، انجيل متى ، الإصحاح الثاني والعشرون .

من الله ، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة "[1].

٢. كان المسيحيون بعد التضييق عليهم وخشية فضح أمرهم يجتمعون في أماكن سرية ويشكلون جمعيات خاصة مما أثار الشكوك حولهم وحول نواياهم على أنهم يمارسون شعائر تدعوا للثورة والتآمر على الإمبراطورية ويدعون إلى قلب الأوضاع فيها ، وكان اليهود هم الذين يحيكون هذه الشكوك والشبهات للعامة والسلطات لقمع المسيحيين ومنعهم والحيلولة دون انتصار دعوتهم التي حاربها اليهود بكل ما أوتوا من قوة[2]، واتهم المسيحيون بتدبير المؤامرات وممارسة الشعائر المخلة وأنهم يأتون أبشع أنواع الفجور في اجتماعاتهم هذه خاصة في اجتماع الجنسين ، وقد تناول ترتوليانوس*تلك الأمور التي كان يثيرها اليهود ضد المسيحيون حيث أورد: " يتهموننا أننا في أسرارنا العبادية نذبح طفلاً ونأكله ، وبعد هذه الجريمة نرتكب الفسق والزنا مع إخواننا وأمهاتنا بمساعدة كلاب مدربة تقلب الشموع وتنشر الظلمة ... بعضكم يقول إننا نعبد رأس حمار تاكيتوس هو صاحب هذا القول ... لقد عرضوا اللوحة وكتبوا عليها إله المسيحيين هو رأس حمار "[4].

---

(١) الكتاب المقدس ، رسالة بولس إلى أهل روما .

(٢) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص٢٦ .

* سبتيموس فلورنيوس ترتوليانوس (Septimius Florens tertullianus) وكان ابن رئيس سرية تابعة لفيلق البروقنصلية ولد بقرطاجة بين عامي ١٥٥ . ١٦٠م من والدين وثنيين ، تعلم في مدينته ما يحتاجه الخطيب ثم توجه إلى روما فدرس الحقوق إلى جانب الفلسفة والتاريخ ، وظل مقيماً بها زمناً يمارس مهنة المحاماة ، حتى نال شهرة كبيرة ، واعتنق المسيحية ما بين عامي ١٩٠ . ١٩٥م وعاش اكثر من ثلاثين سنة كمسيحي كرسها في خدمة العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، والمرجح أن وفاته لم تكن قبل سنة ٢٢٠م ، وتعتبر مؤلفاته أعظم ما قدمته الكنيسة الأفريقية للعقيدة للمسيحية ، وكانت معظم مؤلفاته باللغة اللاتينية وبعضها باللغة الإغريقية وأهمها " إلى الأمم " حيث دافع فيه عن المسيحيين وحقوقهم ، وله كتابات اخرى تتعلق بالعقيدة والأخلاق والنظام ، كالعقارب ، وعماد جسد المسيح ، وقيام الاجساد ، وإلى الشهداء ، والملاهي ، وزينة النساء والصلاة ، والصبر ، والتوبة ، والصوم، والهروب من الاضطهاد ، وعبدة الأصنام ، وهو القائل " إن الإنسان ليس ملزماً أن يطيع قانون يعتقد إنه ظالم " وهو الذي أشار على المسيحيين برفض الخدمة العسكرية : للمزيد ينظر شارل أندريه جوليان تاريخ أفريقيا الشمالية من البدء إلى الفتح الإسلامي ، ت محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٥م ، ص ص ٢٥٨– ٢٥٩ ؛ امحمد عبدالسلام أبولقاسم السوفال ، ليبيا في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ . ٣٠٥م) رسالة ماجستير غير منشورة ، اشراف عبدالسلام محمد شلوف ، جامعة السابع من أبريل ، الزاوية ٢٠٠٥م ، ص٢٠٣ .

(٤) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

٣. لقد ناهض المسيحيون القوانين المعمول بها في الدولة وكان الرومان يعتبرون الخروج عن القوانين هو خروج على الإمبراطورية الرومانية وخروج عن السلم الروماني وعُدّ المسيحيون بذلك برابرة يجب محاربتهم والقضاء عليهم واستئصال شأفتهم لأنهم يثيرون النعرات الطائفية ويشقون الصف الروماني[١] ، وكذلك فإن الآراء التي نادى بها رجال الدين المسيحي والتي تدعوا إلى العصيان والتمرد والنقد الصريح للوثنية ورجالاتها لقيت أثر بالغ في نفوس المسيحيين والوثنيين فالطائفة الأولى رفضت سلطة الإمبراطور وأخذت الطائفة الأخرى تحقد على رجال ومعتنقي هذا الدين وتجعلهم سببا لكل بلاء [٢].

واعتُبر المسيحيون كذلك غير متجاوبين مع الاتجاه الاجتماعي العام في الإمبراطورية فقد عزلوا أنفسهم عن المجتمع الروماني وأنشطته المختلفة فكانوا يعزفون عن المشاركة في كل أنواع المناسبات الاجتماعية والعائلية ، وينفصلون عن أسرهم ومحيطهم الاجتماعي بل إنهم يمنعون أبناءهم من الدراسة في المدارس العامة ، ويبتعدون عن المناصب المدنية وحضور المهرجانات والحفلات والندوات العامة واعتبروها أماكن محرمة يجب الابتعاد عنها وأغلقوا على أنفسهم أبواب العزلة في ظل تعاليم أباء الكنيسة الأول التي تنادي بوجوب الزهد في الحياة الدنيا وملذاتها ، واعتقد المسيحيون أنهم غرباء عن هذه الحياة وأن موطنهم الأصلي هو السماء ، فهم مواطنون من مملكة الله ، وحرّموا اقتران المسيحي بغير المسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحي ، ونتيجة لذلك فقد نظر الوثنيون لاعتزال المسيحيين على انه هروب من الواجبات المدنية وأنه يضعف الروح والإرادة القومية ، وأنهم يدعون إلى تشتيت الأسر والتفكك الاجتماعي[٣].

وقد أعلن ترتوليانوس عن هذه العزلة في قوله: " أنا لا يربطني شيء بالفوروم ولا بحفل مارس ، ولا بالكوريا ، لن أسهر على خدمة أي إدارة ولن أستحوذ على أي منصب ولن أشم

---

(١) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص٢٥ .

(٢) امحمد عبدالسلام السوفال ، مرجع سابق ، ص٢٠٢ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p. 306.

(٣) رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص ص٢٠ .٢١ .

رائحة القنوات ، لأنني لا أحب مجال المحاكم ولا عدالتكم ، وأنا لست قاضياً ولا جندياً ولا ملكاً لقد عزلت نفسي عنكم "(١).

٤. ومما أثار سخط الرومان (حكومةً وشعباً) على المسيحيين هو رفضهم الدخول في الأعمال العسكرية في وقت كانت الدولة تمر بأزمات وتحتاج فيه لكل ساعد يذود عنها ويرد الأعداء على حدودها ، فقد حرم المسيحيون الدخول في سلك الجندية والخدمة العسكرية تحت إمرة القادة الوثنيين الذين اعتبروهم ظالمين وقتلة(٢)، وقد اعتبر المسيحيون أنفسهم جنود الرب وليسوا على استعداد لإعطاء ولاءهم لقوة ساووا بينها وبين الشيطان ، فلم يكونوا على استعداد للقتال تحت راية النسر الروماني لأنهم يشتركون حسب اعتقادهم في العبادات الوثنية٣ ، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في تبسة بأفريقيا سنة ٢٩٥م عندما كان البروقنصل يقوم بعملية التجنيد إذ امتنع مكسيميانوس (أحد أبناء الجنود القدامى) عن التجنيد وصاح يقول : " لا يمكن أن أخدم الجندية ، لا يمكن أن آتي الشر إني مسيحي " وظل يكرر تلك العبارة " اقطعوا رأسي أنا لست جندي الحكم القائم إني من جيش الله لا يمكن أن أكون جنديا في دنياكم كما قلت لكم ، إنني مسيحي " فاخذوا ينظرون إليه في دهشة حتى ضاق به الحاكم ضرعاً وأمر بقطع رأسه ، وبمناسبة الاحتفال بذكرى ولادة الإمبراطور رمى قائد السرية مرسلوس الذي كان يقوم بمأمورية بأسبانيا سنة ٢٩٨م رمى برتبته أمام راية كوكبته وألحق بها عصى القيادة وسلاحه وقال : " إنما أنا أخدم المسيح الملك الأبدي إني كففت منذ اليوم عن خدمة أباطرتكم " وأخذ يكرر مثل هذا الكلام لقائد الكتيبة ، ومثل هذه الأعمال هي التي أثارت سخط العامة والسلطات الرومانية على المسيحيين ودفعتهم لاتخاذ بعض الإجراءات ضدهم وملاحقتهم وتجفيف منابعهم ، وارتكبت أحياناً أبشع الجرائم ضدهم مما يسمى بالاضطهاد الديني للمسيحيين (٤) .

---

(١) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٧٠ .

(٢) امحمد عبدالسلام السوفال ، مرجع سابق ، ص٢٠٣ .

(٣) رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص٢١ .

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٢٨٧ .

وهناك عدة حقائق تتعلق بالاضطهاد الديني في الإمبراطورية من المفيد الإشارة إليها[١] وهي :

١. أنه قد مر زمن طويل قبل أن تتبين السلطات الرومانية أن الطائفة الجديدة (المسيحيون) تستحق من الدولة الاهتمام بها والالتفات إليها ، فقد عاشت المسيحية طفولتها في جو التسامح الديني الذي كان سائدا في أرجاء الإمبراطورية وذلك حتى زمن نيرون وذلك في سنة ٦٤م حيث وقع أول اضطهاد ديني للمسيحيين[٢].

٢. يشير الباحثون أن هناك عشر اضطهادات وقعت للمسيحيين وذلك منذ سنة ٦٤م وحتى سنة ٣١٣م سنة البراءة [٣].

٣. إن الأباطرة في إدانة رعاياهم بالمسيحية تصرفوا على كره منهم وفي حذر شديد ، إذ لم يكن هناك عداء خاص بين الأباطرة والمسيحية لولا مؤامرات اليهود ، واستجابة بعض الحكام المحليين التابعين للإمبراطورية لما يقوله أعداء المسيحية عليها [٤].

٤. لم يكن هناك اضطهاد للمسيحيين بالمعنى الشائع بسبب عقيدتهم حتى منتصف القرن الثالث وحتى تلك الاضطهادات التي حدثت لم تكن دائمة ومستمرة ، وكانت تخضع لأسباب محلية تزول بسرعة لتنعم المسيحية بفترات سلام طويلة فتنشط فيها دعوتها ويزيد أتباعها[٥] .

٥. أن الاضطهادات لم تكن لأسباب دينية فقط ولم تكن أيضاً بسبب غلظة الأباطرة وقسوتهم في التعامل مع رعاياهم مثل الإمبراطور نيرون ودقلديانوس ، بل إن الاضطهاد وقع في عهد أباطرة كانوا يعرفون بالأباطرة الصالحين* ، فكانت هناك أسباب أخرى دفعت الأباطرة لقمع المسيحيين واستعمال الشدة معهم[٦].

---

(١) ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٢٩٧ .

(٢) صابر طعيمه ، الأسفار المقدسة قبل الإسلام ، عالم الكتاب ، بيروت ١٩٨٥م ، ص٢١٨ .

(٣) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٣٣ .

(٤) صابر طعيمه ، مرجع سابق ، ص٢١٨ .

(٥) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ؛ رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، ص٢١ .

* الأباطرة الخمسة الصالحون هم بالتدريج : نرفا (٩٦ . ٩٨م) ، تراجان (٩٨ . ١١٧م) ، هادريان (١١٧ . ١٣٨م) أنطونينيوس بيوس (١٣٨ . ١٦١م) ، ماركوس أوريليوس (١٦١ . ١٨٠م) : فيليب حتي ، مرجع سابق ، ص٣٢٠ .

(٦) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق . ص ٢٧٢ .

ومما يظهر من تتبع أحوال الإمبراطورية في فترات الاضطهاد التي وقعت للمسيحيين أنها لم تكن لأسباب دينية فقط ولكن كانت هناك أسباب أخرى في أغلبها أسباب سياسية جعلت الأباطرة يقدمون على هذه الأعمال ، ومن المستطاع القول أيضاً أن الاضطهادات كانت لكل منها أسبابها وظروفها فمثلا أسباب الاضطهاد الذي حدث في عهد نيرون تختلف عن تلك الاضطهادات التي حدثت في زمن تراجان (٩٨ . ١١٧م) أو سبتيميوس (١٩٢ . ٢١١م) وكذلك لم يكن هناك قانون ثابت ينص على تجريم اعتناق المسيحية والعقوبات التي يجب أن تنزل بمعتنقيها وذلك حتى زمن الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩ . ٢٥١م) الذي أصدر أول مرسوم عام يقضي باضطهاد المسيحيين في كل أرجاء الإمبراطورية(١) .

ثالثا : مراحل الاضطهاد الديني للمسيحيين .

١. الاضطهاد في القرن الأول الميلادي .

سجلت أول مظاهر الاضطهاد الديني في القرن الأول الميلادي ، فقد بدأت الحكومة الرومانية تغير من نظرتها للدين الجديد وأتباعه ، وأصبحت تصنفهم على أنهم فئة هدامة يجب ملاحقتها ومحاسبتها ، وأخذت السلطات الرومانية تنظر إلى الجمعيات والاجتماعات السرية التي كان يعقدها رعاياها خطراً على استقرارها ، خاصة وان أكثر الذين يشتركون في هذه الجمعيات من الطبقات الفقيرة ، وخشيت السلطات من أن تكون المسيحية ثورة اجتماعية من شأنها إذا لم تتصرف معها أن تهدد استقرار المجتمع الروماني ، ولذلك اتخذت إجراءات للحد من استفحال أمر هذا الدين الجديد ، واعتبرت أن اعتناق المسيحية جرما قد يفضي إلى الموت وبدأت تلاحق الجمعيات السرية ومنعت اجتماعاتهم(٢) .

أول اضطهاد لاقاه المسيحيون كان في زمن نيرون وذلك في سنة ٦٤م ، حيث شب حريق مروع في روما استمر ستة أيام أتى على معظم أحياء روما الأربعة عشر ، وقضى الكثير من الناس في هذا الحريق بسبب الهلع والتدافع والخوف من النيران ، وخسرت مدينة

---

(١) توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في الجاهلية والإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٩١م ، ص٤٩ ؛ محمود السيد ، مرجع سابق ، ص ٥٢٦ ؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص٣٧ .

روما في هذا الحريق الكثير من تراثها المعماري كالمسارح والمكتبات والمعابد والقصور وغيرها واعتبر يوم حدوثه يوم نحس على روما(١).

وقد استغل الإمبراطور نتائج هذا الحريق حتى يعيد بناء المدينة من جديد ، ولما كانت الخسائر التي حدثت من جراء هذا الحريق كبيرة كان لابد من وجود كبش فداء ، فاستغل مستشاروا نيرون وبإيعاز من اليهود هذا الحريق وألصقوا التهمة بالمسيحيين واتهموهم بالمسؤولية عن حريق روما (٢).

ومن هنا بدأ الاضطهاد الديني للمسيحيين وأصبحت تنظم حملات لملاحقتهم ، وكابد المسيحيون من جراء ذلك عنتاً كبيراً ، فقد انزل بهم نيرون أشد العقوبة وعذبوا حتى ماتوا مع السباب والسخرية التي تزيد من مرارة التعذيب ، فدق بعضهم بالمسامير على الصلبان وتركوا بعد ربطهم عرضة لنهش الكلاب ، وأجبر بعضهم على لبس جلود بعض الحيوانات وألقوا إلى الكلاب لتنهش أجسامهم ، وطليت أجسام بعضهم بالشمع والقار وغيرها من المواد القابلة للالتهاب وأضرمت النار فيهم أحياء ، وكانت هذه الاضطهادات تقام في الملاعب والحدائق العامة عند إقامة الاحتفالات والمسابقات وكان نيرون يحضر هذه الاحتفالات ، وكان الضحايا يستخدمون كمصابيح تضيء هذه الملاعب بعد إشعال النار فيهم ، ويرى بعض الباحثين إن بطرس وبولس قد قضيا في هذه الفترة ، ولكن اضطهاد نيرون اقتصر على مدينة روما فقط ولم يسرِ على جميع الولايات(٣).

٢. الاضطهاد في القرن الثاني.

وفي القرن الثاني الميلادي في زمن تراجان (٩٨ . ١١٧م) وصلت عقوبة اعتناق المسيحية إلى الإعدام ، ومع ذلك فإن هذه القوانين لم تكن تطبق بجدية إلا عند حدوث كارثة

---

(١) توفيق الطويل ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ؛ نور الدين حاطوم ، مرجع سابق ، ص٦٨ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٢٢٣ ؛ أسد رستم . مرجع سابق ، ص٣٢ ؛ صابر طعيمة ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٢٢٤ ؛
Michael Grant, Op. Cit, p.306.

(٣) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ٣٤ ؛ صابر طعيمة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢١.٢٢٠ ؛ توفيق الطويل ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ؛ أمين القضاة ، محمد أحمد الخطيب ، أديان وفرق ، المكتبة الوطنية عمان ، الأردن ، ١٩٩٠م ، ص ٧٦.

قومية أو انتفاضات شعبية ، وكان تراجان لا يتعقب المسيحيين المستتيرين ، ولا يأخذ باتهام أحد لهم باعتناق المسيحية إلا أن يأتي بدليل على اتهامه[1] ، وكان الولاة أيضا يحجمون عن تطبيق هذه العقوبات على المسيحيين وإن حدث يكون وفق ضوابط قانونية ومحاكمات رسمية [2] ، ومن الصور التي توضح منهج الأباطرة وحكام الولايات في التعامل مع المسيحيين في هذا القرن تلك المراسلة التي كانت بين بليني الأصغر حاكم تراجان على آسيا الصغرى وبين الإمبراطور تراجان ، حيث أرسل بليني رسالة إلى تراجان يوضح له فيها طريقته في التعامل مع المسيحيين فيُؤتى بمن اتهموا بأنهم مسيحيون أمام بليني فيقول : " وإني أسألهم إذا كانوا مسيحيين ، فإن أقروا ، أعيد عليهم السؤال ، ثانية وثالثة مهدداً بالقتل ، فإن أصروا أنفذ عقوبة الإعدام فيهم ، مقتنعاً بأن غلطهم الشنيع وعنادهم الشديد يستحقان هذه العقوبة ، وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها فأنكروا إنهم نصارى وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم ، وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمداً مع تماثيل الأرباب ، بل إنهم شتموا المسيح "[3].

ورد عليه تراجان بقوله : " إن الخطة التي سرت عليها يا عزيزي بليني في بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة يجب ألا تجد في البحث عن هؤلاء الناس ولكن إذا ما بلغت بأمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم فإذا أنكر الواحد منهم إنه مسيحي وأيد ذلك ... بالابتهال إلى آلهتنا فاعفوا عنه ... فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر في البلاغ اسم المتهم فلا تتخذ بينة على احد " [4].

ومن خلال هذا الخطاب يلاحظ أنه لم تكن هناك عقوبة ثابتة لاعتناق المسيحية ينص عليها القانون معروفة لدى الولاة وذلك حتى عهد تراجان ، وكذلك فالدولة لم تأخذهم بمجرد التهمة ، ولا تعرض أحداً للعقوبة إلا بعد اخذ البينة عليه وذلك باعترافه شخصياً بدخوله في

---

(١) توفيق الطويل ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٢) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ .

(٣) أمين القضاة و محمد أحمد الخطيب ، مرجع سابق ، ص ص ٧٦. ٧٧ .

(٤) جمعة البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص ص ٢٧٢ . ٢٧٣ .

المسيحية ، وهذا بعكس ما حصل في القرن الأول في عهد نيرون الذي كان فيه المسيحيون كبش فداء قدمه نيرون ليتجنب اتهام الناس له بإحراق روما[١].

ومن أكبر المحن التي وقعت للمسيحيين في القرن الثاني كانت بين سنتي (١٤٧ . ١٦١م وسنتي ١٧٧ . ١٨١م) حتى إن الوثنيين إذا التقوا بمسيحي كانوا يلوذون بالفرار مخافة أن يمسهم دنس هذا المسيحي حتى حرم المسيحيون من دخول بعض الأماكن العامة مثل الحمامات والمسارح والملاعب[٢].

٣. الاضطهاد في القرن الثالث .

بدأ هذا القرن بحكم سبتيميوس سيفيروس (١٩٢ . ٢١١م) إذ ملاء هذا الإمبراطور السجون بالنصارى ودفع بالبعض إلى الحيوانات المفترسة في المدارج العامة ، ولكن خلفاء سبتيميوس من الأسرة السويرية لم يقتفوا أثره في اضطهاد المسيحيين ، فنجد إن الإمبراطور إيلاجابالوس (٢١٨ . ٢٢٢م) جمع الأديان كلها بما فيها المسيحية وحاول إنشاء ديانة جديدة منها ، بل إن أحد أباطرة هذه الأسرة وهو الإمبراطور الإسكندر سيفيروس (٢٢٢ . ٢٣٥م) حاول إنشاء هيكل لعبادة المسيح في روما ، وكذلك فعل الإمبراطور فيلبيوس العربي* (٢٤٤ . ٢٤٩م) الذي كان يهادن المسيحيين ويلاطفهم[٣].

ولكن الآية انقلبت بعد اعتلاء الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩ . ٢٥١م) وخليفته الإمبراطور فالريان (٢٥١ . ٢٦٠م) فقد صدر في عهدهما أشهر المراسيم وأصبح اعتناق المسيحية له عقوبة قانونية بقرار رسمي من الحكومة الرومانية ، فقد حاولوا من خلالها القضاء على

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٣٢ . ٣٤ .

(٢) توفيق الطويل ، مرجع سابق ، ص٤٩ .

* الجدير بالذكر هنا أن بعض أباطرة القرن الثالث كانوا مسيحيين مثل سيفيروس الإسكندر وكذلك كان الإمبراطور فليب العربي الذي قيل انه كان عربياً ومسيحياً وكذلك كانت زوجته ماركيا أوتاقيليا (سيفيرا) مسيحية ، وقد وصفه يوسابيوس في تاريخه الكنسي بأنه كان مسيحياً ، ويعتبره أول إمبراطور مسيحي ، وقد ولد فيليب في حوران (Auranits) بالقرب من حمص والتي عرفت فيما بعد باسم فيلبّوبولس (Philippopolis) : يوسابيوس القيصري ، تاريخ الكنيسة ، ت. القمص مرقس داود ، ط٣ ، شركة هارموني للطباعة ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص٢٨٣ ؛ عرفان شهيد ، مرجع سابق ،ص٩٤ . ٩٦ .

(٣) محمود السيد ، مرجع سابق ، ص ٥٢٦ ؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٣٥ .

المسيحية وإعادة النظام للدولة ، وكان هذان المرسومان يقضيان بأن يمثل جميع السكان في المدن والأرياف أمام لجنة من مندوبين وموظفين للحكومة ، وتقديم القرابين إلى الإمبراطور والآلهة الرومانية ويعطى شهادة بذلك ، وقد عثر على نموذج من هذه الشهادات في الفيوم بمصر ، ومضمون هذه الشهادة أن يقوم هذا المواطن بنفسه فيذكر اسمه وعمره وأوصافه ومكان إقامته أمام هذه اللجنة ، ويعترف بأنه قدم الذبائح للآلهة طاعة للإمبراطور ويطلب من اللجنة المختصة التوقيع على هذه الشهادة ليحتفظ بها ويقدمها للسلطات عند اتهامه بالمسيحية، ومن يأبى عن تقديم الولاء للآلهة والإمبراطور يتعرض إلى عقوبات قاسية فذبح الكثير منهم وفر الآخرون إلى الصحارى والكهوف والدياميس ، ومن بين هؤلاء اوريجانيوس الفيلسوف اللاهوتي الذي سجن في قيصرين وعذب فيها ومات بعد ذلك متأثرا بجراحه في صور سنة ٢٥٤م ، ومنهم كذلك السكندروس أسقف اورشليم وأسقف انطاكيه بابيلاس ونسطوريوس اسقف مجدّو[١] ، واستمر الوضع كذلك في زمن الإمبراطور فاليريانوس (٢٥١ . ٢٦٠م) الذي لاحق الزعماء المسيحيين وأجبرهم على تقديم الذبائح للآلهة الوثنية وحرم عليهم الاجتماع في المعابد وأماكن العبادة الأخرى وقتل في أثناء حكمه الكثير من الأساقفة مثل أسقف روما سيكستوس وكبريانوس أسقف قرطاج وعدد غير قليل من المسيحيين في الإسكندرية ، والجدير بالذكر إن هذه المراسيم لم تنجح في فضح أمر المسيحيين وارتداد بعضهم عن دينه ولكنها خلقت متاعب للكنائس المسيحية بشأن موضوع قبول المرتدين مرة أخرى في المسيحية ، وظهرت المشكلة التي عرفت في التاريخ باسم الدوناتية وسيأتي ذكرها في الفصل الثالث[٢] .

٤. الاضطهاد في زمن دقلديانوس .

لقد حكم دقلديانوس إحدى وعشرين سنة متتالية (٢٨٤ . ٣٠٥م) واستقرت له الأمور بعد أن أعاد للمنصب الإمبراطوري هيبته وأرسى دعائم الحكومة الرباعية وأمن حدود الإمبراطورية في مواجهة أعدائها في الشرق والغرب ، وأخمد الفتن الداخلية التي أشعلها الثائرون

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٢٨٦ .

(٢) جمعة البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص ٢٧٣ ؛ محمود السيد ، مرجع سابق ، ص ٢٥٦ ؛ أمين القضاة ومحمد أحمد الخطيب ، مرجع سابق ، ص٧٧ ؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

في كثير من الولايات وامتدت إصلاحاته لتشمل النواحي الاقتصادية والمالية حتى أصبح سيد الإمبراطورية بلا منازع ، وكان نموذجا للحاكم الأوتوقراطي الذي أراد جمع كل السلطات في يده بما فيها السلطة الدينية ، ولم يسمح لأي جهة أن تخرج على نطاق صلاحياته ، ومن ثم لم يكن يتصور أن تبتعد السلطة الدينية عن نفوذه فضلاً عن إنها تعارض سلطته ، وقد أدرك دقلديانوس مدى تلك الفوضى التي كانت تعانى منها الإمبراطورية في القرن الثالث من جراء تراخي قبضة الحكومة على الأمور وضياع هيبة الإمبراطور وعدم فرض سلطة الحكومة على رعاياها ، وبدأ من الصعب عليه وهو الأوتقراطور أن يرى نفراً من شعبه جلهم من المستضعفين يأتمرون بأوامر أخرى غير التي تصدرها الحكومة ، ورأى في المسيحية على أنها بهذه الصورة سوف تؤدي إلى تقويض الجهود التي بذلها طيلة تسعة عشرة سنة* من حكمه لتكريس الوحدة الوطنية ، ونظر للكنيسة على أنها آخر العقبات في سبيل تدعيم سلطات الإمبراطور(١).

وكان دقلديانوس حريصاً على أن تكون للدولة ديانة رسمية لما لها من نتائج مهمة في سبيل تحقيق الوحدة الوطنية ، ولذلك نراه يتولى بنفسه تقديم القرابين للآلهة الرومانية وإن كان ميالاً بصفة خاصة إلى الإله جوبيتر الذي كان يأمل أن تصبح عبادته هي العبادة الرسمية للدولة ، لكي يحصل على الولاء من قبل كافة القوى الاجتماعية في نطاق الديانة الواحدة لذلك كره دقلديانوس الديانات الوافدة لخشيته أن تقضي على الولاء للإمبراطور ، وتهدد وحدة البلاد ، وهذا ما دفعه لأن يضطهد المسيحية بتمثيلها لمعارضة جديدة ونظام خارجي يعمل على تحويل رعايا الدولة من المعتقدات الإمبراطورية إلى عبادة إله المسيحيين ، وزاد من سخطه حين تعدت المسيحية نطاق المجتمع ودخلت إلى الجيش بل ووصل تأثيرها إلى القصر الملكي*، ولم يكن الفكر السياسي الروماني كذلك يسمح بقيام كيان مستقل عن سلطة القيصر أو الحكومة أو

---

* لم يقم دقلديانوس باضطهاد المسيحية إلا بعد مرور تسعة عشر سنة على وجوده في السلطة ، إذ بدأ بإصدار المراسيم التي تأمر باضطهاد المسيحيين سنة ٣٠٣م : يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٣٥٣ .

(١) رأفت عبد الحميد ، الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة ، ص ص٣٥ .٣٦ .

* تشير الروايات أن زوجة دقلديانوس بريسيا كانت قد اعتنقت المسيحية ، وابنته فاليريا زوجة جاليريوس كانت مسيحية : يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٣٥١ .

بتعبير آخر (دولة داخل دولة) وهذا ما كانت تشكله الكنيسة المسيحية على زمن دقلديانوس[1].

ومع إن دقلديانوس لم يكن يشعر بالكره للمسيحية كديانة ولا لأي ديانة أخرى ، ولم يكن كذلك يحب ديانة أخرى وإن كان يقدم القرابين لآلهة الدولة ، ولكنه كان رجل دولة كل ما يهمه أن لا تخرج كل مؤسسات الدولة بما فيها الدينية عن الإطار العام للحكومة ، وهو لم يقم باضطهاد المسيحية ويطارد أتباعها لأنه لم يكن يشعر بالميول إليها أو لأنها ديانة جديدة تدعو إلى التوحيد وتخالف ديانات روما الوثنية ، ولكنه شعر بأن وجودها وانتشارها بهذا الشكل وعدم انصياع إتباعها لسياسة الدولة من شأنه آن يقوض جهوده الإصلاحية ، ويهدم كل الإنجازات التي أقامها ، وكذلك فهي ربما تشكل سابقة لظهور نعرات وانقسامات طائفية ودينية وسياسية أفنى تسعة عشر عاماً من حكمه في إيقاف نزيفها ، فهو يحاربها مثلها مثل أي حركة سياسية انفصالية تخرج على سلطة الإمبراطور ، لأن المسيحية كانت تشكل دولة داخل الدولة ، وتدل الوثائق الرسمية المعاصرة لتلك الفترة والتي أوردها المؤرخون الكنسيون إن الاضطهاد الذي وقع في زمن دقلديانوس كان سياسياً بامتياز[2].

وقد جاء بعض المؤرخين والباحثين بعدة أسباب أخرى يمكن أن نطلق عليها الأسباب المباشرة للاضطهاد ، فمنهم من يورد أن دقلديانوس اكتشف مؤامرة مدبرة من قبل المسيحيين لقلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة ، ويقدم آخر تعليل ثان وهو أن دقلديانوس لم يقم بالاضطهاد إلا تحت تأثير من نائبه جاليريوس الذي رأى أن هناك مخطط يقوم به بعض رجال الدولة والمسيحيين في القصر لإقصائه عن خلافة دقلديانوس ، والإتيان بشخصية أخرى تتعاطف مع المسيحيين ، لأنهم يعلمون مدى عداء جاليريوس للمسيحيين ، وأقنع جاليريوس

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٤٦ ؛ رأفت عبدالحميد ، الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة ، ص٣٦ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة ، ص٣٩ .

دقلديانوس بهذا الأمر الذي يدبره المسيحيون لنائبه ، وخلاصة هذه الآراء تظهر أن الاضطهاد كان لأسباب سياسية وليست دينية[١].

أما الكتاب الكنسيون مثل يوسابيوس القيصري* فيرجح أن أسباب الاضطهاد دينية ويرى أن فيها طابع العدل الإلهي وإن المسيحيين عندما ابتعدوا عن تعاليم دينهم ولم يتمسكوا به أنزل الله بهم هذا العقاب على يد دقلديانوس فيقول : " ولكن عندما سقطنا في التراخي والكسل (بسبب زيادة الحرية) وصرنا نحسد ونهين بعضنا بعضا ، ونشهر العداء ضد بعضنا البعض فالرؤساء يهاجمون الرؤساء بالكلمات القارصة كالحراب ، والشعب يؤلب الأحزاب ضد الشعب ، وبلغ الرياء والنفاق أعظم حدود الشر ، فإن العدل الإلهي ، ممتزجا بالصبر والاحتمال وطول الأناة ، سمح بإزعاج الأسقفية بلطف واعتدال ... "[٢].

وبدأ دقلديانوس بإصدار أربعة مراسيم ضد المسيحيين سنة ٣٠٣م ، فبدأ بالجيش ، وتقضي كل تلك المراسيم في مجملها بأن كل الذين يأبون تقديم ذبائح للآلهة يطردون من البلاط ومن صفوف الجيش ويفقدون وظائفهم ، وأملاكهم ، ورواتبهم ، وامتيازاتهم ، ويحرمون من كل حقوق المواطنة ، ويتعرضون للنفي لجهات نائية ويكونون عرضة للتعذيب ، كما قضت تلك

---

(١) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص ص٥٦٠ . ٥٦٢ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٤٧ .٤٨ .

* عاش بين سنتي (٢٦٤ . ٣٤٩م) وهو أول مؤرخ كنسي يعتد به لقب بأبي التاريخ الكنسي وبهيرودوت النصارى ولد بقيصرية والتي كان أسقفها (٣١٣ – ٣٣٤م) ، كان تلميذاً لبامفيلوس (Pamphilius) أشهر شيوخ كنيسة قيصارية في القرن الثالث وتأثر كثيراً بآرائه حتى غلب عليه اسم استاذه ، وقد شهد الاضطهاد الذي وقع للمسيحيين في زمن دقلديانوس ، كما شهد التزاوج بين الإمبراطورية والمسيحية في زمن قسطنطين ، وقد ساعدته علاقته بقسطنطين ، وبرؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة أن يعرف الكثير من الأسرار ويطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة والتي استفاد منها كثيراً في كتاباته ،وله كتابان الكتاب الأول يتناول تاريخ الكنيسة المسيحية منذ ولادة المسيح حتى موقعة خريسوبوليس (Chrysopolis) سنة ٣٢٣م التي انتصر فيها قسطنطين على ليكينيوس ، أما الكتاب الثاني فهو "حياة قسطنطين" (Vita Constantine) والذي يعتبر قصيدة في مدح قسطنطين ، وذكر في بداية الكتاب أنه سوف يتناول فيه فضائل قسطنطين ، وكان مقرباً جداً من قسطنطين ومن أخلص أصدقائه ، وقد قيل إنه من مؤيدي الآريوسية التي ظهرت على يد آريوس في بداية القرن الرابع : محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية د.ت ص٣٢ ؛ هسي ، مرجع سابق ص٧٧.

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٣٥٢ ؛ أندرو ملر مختصر تاريخ الكنيسة ، ط٤ ، شركة الطباعة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٣م ، ص ص١٣٧ . ١٣٩ ؛ رأفت عبدالحميد الدولة والكنيسة ، ص ص٤٣ . ٥٣ .

المراسيم بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدسة ومنع الاجتماعات الدينية واستعمال القسوة مع المسيحيين حتى يرجعوا عن دينهم أو تُستأصل شأفتهم من الأرض(١).

ولكن ومع كل ذلك لم يستطع دقلديانوس أن يحل مشكلة قصور الوثنية عن ملء الحاجات النفسية لسكان الإمبراطورية ، ولم يقدم حلاً لمشكلة المسيحيين إلا الحل الأمني وذلك بقمعهم وتصفيتهم ، وهذا جاء بنتائج عكسية إذ ازدادت المسيحية قوة وتأثيرا ، بل إنه صار كمن يسكب الزيت على النار ، لأنه من المستحيل أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة خُمس سكان العالم الروماني ولم يمت دقلديانوس حتى رأى مراسيم التسامح التي أصدرها الساسة من بعده(٢).

---

(٢) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص٣٥٢ ، ٣٧٢ ؛ أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٣٦ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص٤٦ .٤٧ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p. 308.

(٣) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٤٢ . ٥٢ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ص٤٨ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢١ .

الفصل الثاني

الإمبراطور قسطنطين حروبه الداخلية وإصلاحاته

المبحث الأول : قسطنطين منذ مولده حتى انفراده بالحكم .

المبحث الثاني : إصلاحات قسطنطين وأعماله.

المبحث الثالث : الاتجاه نحو الشرق وبناء القسطنطينية .

المبحث الأول : قسطنطين منذ مولده حتى انفراده بالحكم .

أولاً: قسطنطين المولد والنشأة وتوليه الحكم.

١. مولده ونشأته

٢. توليه الحكم .

ثانياً: الحروب الداخلية في بداية حكم قسطنطين .

١. مؤتمر كارنونتوم ٣٠٧م .

٢. خروج مكسيميان وجاليريوس من دائرة الصراع .

٣. الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطين .

ثالثاً: بداية التحالف بين المسيحية والإمبراطورية .

مؤتمر ميلان والقضاء على مكسيموس دايا ٣١٣م .

رابعاً: الحكم الثنائي (ليكينيوس وقسطنطين ٣١٣ ـ ٣٢٤م)

أولاً: قسطنطين المولد والنشأة وتوليه الحكم .

" لم يزل في غاية من السعادة والظفر معاناً منصوراً على كل من حاربه "[١]

١. قسطنطين مولده ونشأته .

ولد قسطنطين بن قسطنطيوس خلوريوس (Flavius Valerius Aurelius Constantinus) في مدينة نيش في (صربيا حالياً) واختلف المؤرخون في سنة ميلاده إلا أن الأقرب كان في سنة ٢٧٢م تقريباً ، وقد عرف عند الرومان باسم قسطنطين الأول أو العظيم وأطلقت عليه الأوساط الدينية الأرثوذكسية اسم الراهب قسطنطين[٢] ، وكان الابن غير الشرعي لقسطنطيوس من عشيقته هيلانة التي التقى بها في بيثينيا بآسيا الصغرى وأقام معها عدة سنوات ، ثم هجرها ليتزوج من تيودورا ابنة زوجة الإمبراطور مكسيميان[٣] ، وقيل إن قسطنطيوس ذهب إلى الرها وهناك التقى بهيلانة وكانت مسيحية فحملت منه بقسطنطين ، واختلفت الروايات في أصل هيلانة هل هي سورية أم من البلقان أو الأناضول أو قد تكون من بيثينيا في آسيا الصغرى ، والأقرب أن تكون من مدينة دريبانوم (Drepanum) (مدينة على الساحل الغربي لصقلية تسمى الآن (trapani) ، وينتسب قسطنطين مثل سلفه دقلديانوس إلى إقليم إليريا[٤] .

وقد نشأ قسطنطين في نيقوميديا في قصر دقلديانوس والتحق بالجيش منذ الصغر فدخل الجندية وعمره خمسة عشرة سنة وأظهر شجاعة فائقة ، ولما وصل سن الثامنة عشر رقّي إلى رتبة قائد ، وكسب ولاء وحب الجند له حتى إنه عندما اعتزل دقلديانوس الحكم وولّي جاليريوس

---

(١) هكذا وصفه أورسيوس في كتابه تاريخ العالم ، الترجمة العربية القديمة ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٨٢م ، ص٤٥٧ .

(٢) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٥١ .

Constantine I From Wikipedia, the free encyclopedia.

(٣) أوروسيوس ، مصدر سابق ، ص٤٥٤ ؛ سيد احمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ص٥٧٥.

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٥١ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ص١٢٠ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ،ص٢٦ .

إمبراطوراً أبعد قسطنطين عن الجيش وأبقاه معه في القصر لما رأى من تعلق الجند به وحبهم له فخاف جاليريوس من استغلال قسطنطين هذا الأمر في الخروج عليه[١].

وقد اصطحب دقلديانوس قسطنطين معه في حملته على مصر بين سنتي ٢٩٦ . ٢٩٧م وشارك تحت إمرة دقلديانوس في الحرب ضد الفرس في سوريا سنة ٢٩٧م ومع جاليريوس في بلاد ما بين النهرين بين سنتي ٢٩٨ . ٢٩٩م ،[٢] وقد اطلع قسطنطين من خلال تجوّله في الولايات الآسيوية ومصر على أحوالها وأحوال المسيحية فيها وكان لهذه الفترة من حياته أثر كبير في عقليته وأفكاره السياسية على طول سنوات حكمه الطويلة التي بلغت ٣١ سنة[٣] ، وكذلك من خلال إقامته في القصر ألمّ قسطنطين بأحداث الإمبراطورية وتفهم أسرار السياسة وأمور الحكم ، وقد تعلم الأدب اللاتيني وقرأ شيئاً من الفلسفة الإغريقية ، وعلى الرغم من أنه قضى أغلب حياته مع دقلديانوس لكنه كان على اتصال بوالديه ، وبعد تنازل دقلديانوس ومكسيميان عن لقبهما الإمبراطوري واعتزالهما السياسة أصبح جاليريوس إمبراطوراً على القسم الشرقي من الإمبراطورية خلفاً لدقلديانوس ، وغدا قسطنطيوس إمبراطوراً للقسم الغربي خلفاً لمكسيميان ، واتخذ جاليريوس نائباً له بلقب قيصر وهو مكسيميوس ، وعين قيصر لقسطنطيوس وهو سيفيروس ، وعاد بذلك الحكم الرباعي الذي وضعه دقلديانوس من جديد ، ولو أنه كان لجاليريوس اليد الطولى في حكم الإمبراطورية نظراً لولاء القيصرين له[٤].

٢. توليه الحكم .

---

(١) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٥١ ؛

(2). Constantine; I, Op. Cit.

(٣) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص٨ ؛

Evsebivs, Vita constantini 2nd Edition, Grand Rapids publisher, Dallas, 1997, p.16.

(٤) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٥ ؛

Evsebivs, Vita Const, I, p.15.

بعد أن تم تعيين الإمبراطورين والقيصرين أراد جاليريوس أن يبعد قسطنطين عن الجيش وشؤون الحكم فأبقاه معه في القصر ولم يمكنه من ممارسة عمله العسكري ، إلا أنه في سنة ٣٠٦م حدثت مشاكل في بريطانيا التابعة لحكم قسطنطيوس والد قسطنطين ، وذلك عندما غزت القبائل الأسكتلندية جنوب بريطانيا ، فطلب قسطنطيوس من جاليريوس أن يبعث له بولده ليقف بجانبه ويساعده في هذه الحرب ، لكن جاليريوس تلكأ في إجابة طلبه خوفاً من تحالفهما واستقواؤهما عليه ، بل إن بعض الروايات تشير إلى أن جاليريوس حاول أن يتخلص من قسطنطين* ، إلا أنه وافق أخيراً على أن يلحق قسطنطين بأبيه ، وكان يضمر شيئا في نفسه وعندما أحس قسطنطين بذلك وشعر بأنه ربما يغير رأيه تسلل ليلا ولحق بأبيه(١).

وحاول جاليريوس عبثاً اللحاق بقسطنطين الذي التقى بأبيه في بولونيا ومنها أبحرا إلى بريطانيا معا سنة ٣٠٦م(٢) ، ونجح هو وأبيه في إرجاع الأمور إلى نصابها في بريطانيا وإيقاف زحف القبائل الاسكتلندية ، غير إن قسطنطيوس ما لبث أن وافته منيته في يورك في ٢٥ يوليو سنة ٣٠٦م ونادت الفيالق العسكرية التابعة له بابنه قسطنطين أغسطساً (حيث يوجد الآن في هذا المكان تمثال لقسطنطين) وذلك لحبهم لأبيه ولنظرتهم إلى قسطنطين على كونه شاب نشط وشجاع ووسيم فأحبوه كثيراً حيث لم يكتفوا بالمناداة به قيصراً بل إمبراطوراً (٣).

ولكن قسطنطين نظر إلى ما يتمتع به جاليريوس من مكانة قوية على منافسيه بالإضافة للجيش القوي الذي كان تحت إمرته وولاء القيصرين في الشرق والغرب له ، وكان قسطنطين في بداية ولايته فلم يشأ أن يفتتح ولايته بحرب أهلية لم يكن مستعدا لها ولا يعلم نتائجها ، لذلك رضي

---

* فقد حاول جاليريوس إهلاك قسطنطين بأن أمره بمصارعة أسد مرة وجبار من السرامتة مرة أخرى ولكن قسطنطين نجا من المحنتين : أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٥١ .

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٦٠ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٦ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ص٣٨٣ ؛ هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٢٥ .

(٣) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٣٩ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٦٠ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٢ ؛

Evsebivs, Vita Const, I, p.17 ; Constantine I, Op. Cit.

بلقب قيصر وراح يحاول تدعيم مركزه وأرسل إلى جاليريوس يطلب منه الاعتراف به والموافقة على تعيينه ، ورضخ جاليريوس للأمر الواقع كذلك خوفاً من نشوب حرب أهلية من جديد وأرسل إليه موافقا على تعيينه بلقب قيصر (١).

وكان النظام الرباعي الذي وضعه دقلديانوس يقضي بأن يخلف القيصر الإمبراطور عند وفاته أو عجزه عن القيام بشؤون الحكم ، ولذلك أنعم جاليريوس على سيفيروس بلقب إمبراطور ومنح قسطنطين لقب قيصر ، وبدأ أن النظام الرباعي قد عاد من جديد ، ولكن حدثت ثورة في إيطاليا يرجح أن سببها هو قيام سيفيروس بتعداد السكان في إيطاليا وروما يبدو أنه من اجل وضع ضريبة على أهل روما ، فأدى ذلك إلى تذمر السكان في روما الذين كانوا متحررين من عبء الضرائب ، وكان من نتائج تلك الثورة التي قام بها الحرس البريتوري عام ٣٠٦م أن أعلن مكسنتيوس ابن الإمبراطور المعتزل مكسيميان نفسه إمبراطوراً وقتل محافظ المدينة في ٢٨ اكتوبر من نفس السنة وغدت إيطاليا كلها في قبضته (٢).

وقد احتج هذا المغتصب على عمله هذا بأن قسطنطين قد تولى قيصراً بعد أبيه وهو الابن غير الشرعي فرأى في نفسه أنه أولى بهذا الأمر وهو الابن الشرعي لأبيه مكسيميان (الأغسطس) ، وأرسل إلى جاليريوس مطالباً إياه الاعتراف به إمبراطوراً ، إلا أن جاليريوس رفض ذلك بشدة لأن النظام الرباعي لايحتمل وجود ثلاثة أباطرة في الإمبراطورية ، بل وطلب جاليريوس من إمبراطور الغرب سيفيروس أن يستعيد سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة مكسنتيوس الذي ضم إليه ولاية أسبانيا وأفريقيا ، واستعد كل من مكسنتيوس وسيفيروس للحرب بكل ما أوتيا من قوة ، ولذلك طلب مكسنتيوس من أبيه مكسيميان العودة إلى الحكم ومساعدته في حربه وحياه بلقب الأغسطس ، وكان مكسيميان قد تنازل عن الحكم مع دقلديانوس على كره ، فما أن وصل إليه

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٦ ؛ هارفي بورتر ، مرجع سابق ص٥٢٦ .

(2). Constantine I, Op. Cit.

طلب ابنه حتى عاد إلى لبس عباءة الإمبراطور وانضم إلى ابنه في حربه ضد سيفيريوس وحليفه جاليريوس(١).

وهكذا أصبح في الإمبراطورية أربعة أباطرة هم جاليريوس وسيفيروس ومكسنتيوس ومكسيميان وقيصران هما مكسيميوس وقسطنطين وبذلك انهار النظام الرباعي الذي وضعه دقلديانوس وأصبحت الإمبراطورية على شفا حرب أهلية جديدة ، وغدا كل من الأباطرة والقياصرة يستعدون للحرب الواقعة لا محالة أمام هذا التصعيد للأحداث من كل الأطراف المتنافسة ، وأخذ كل منهم ينظم قواته والولايات التابعة له ويتربص الفرص للنيل من منافسه ويقيم أحلافا مع بعض الأطراف لأن كل واحد منهم كان يعلم أنه لن يبق في الحكم إلا الأقوى ولا مكان للضعيف بينهم(٢).

ثانياً: الحروب الداخلية في بداية حكم قسطنطين .

أمام هذا الجو المشحون الذي بدأت الإمبراطورية تعيشه منذ عام ٣٠٦م واستعداد كل الأطراف للحرب آثر قسطنطين أن يتريث ولا يتدخل في الحرب في هذا الوقت واتجه إلى تحصين ولاياته ريثما تنهك الأطراف بعضها البعض ، ويرى ماذا سوف تؤول إليه الأمور في نهاية الحرب ، وكان سيفيروس هو البادئ بشن الحرب على مكسنتيوس فتقدم بقواته نحو روما والتي وجد أن مكسنتيوس قد حصنها تحصيناً شديداً مستفيداً من خدمات والده ماكسيميان وخبرته الطويلة في الحروب منذ زمن دقلديانوس وقد فعل اسم مكسيميان السحر في قوات سيفيروس والتي كانت تحت إمرة مكسيميان قبل اعتزاله ، فتخلت معظم قوات سيفيروس عنه وانضمت إلى خصمه ، وهناك لم يجد سيفيروس أمامه إلا الإنسحاب إلى رافنا ، ولكن قوات مكسنتيوس لحقت به ففضل الانتحار على أن يمسك به عدوه ، وبذلك تخلص قسطنطين من أحد المنافسين وقد اغتنم

(١) هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١٤ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٧ .
(٢) محمود سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، دار المعرفة الجامعية بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص ص٦٥ . ٦٦ ؛ رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٦١ .

قسطنطين انشغال الأباطرة في تلك الحرب فقام بخطوته الأولى وذلك بأن زحف بقواته على غالة وضمها إلى ولاياته [1].

وكان مكسيميان بعد انتصاره على سيفيروس يخشى من مغبة إغضاب جاليريوس لأنه يعلم مدى قوته ومزاجه الجامح ، فحاول أن يبحث له عن حليف يقف معه في وجه جاليريوس الذي كان مصمماً على حرب مكسنتيوس وأبيه وطردهما من إيطاليا ، واتجهت أنظاره نحو قيصر الغرب قسطنطين فذهب إليه في ترير (Trier) في ٣٠٧م وقدم له ابنته الصغرى فاوستا (Fausta) كخطيبة له عربوناً على صداقته ، ووعده بأن يمنحه لقب أغسطس ، ولكن قسطنطين رأى أ ن يتريث في هذا الأمر ولا يتسرع بقبول العرض واتخاذ قرارات لا يضمن عواقبها ، فهو يعلم أن جاليريوس هو سيد الإمبراطورية الأول وهو الأغسطس الشرعي ، وجاليريوس كذلك هو الذي منح قسطنطين لقب قيصر بالرغم من أنه كان مرغماً على ذلك ألا أنه من الممكن أن يقوم بخلعه منه بسبب إقدامه على هذا الفعل ، ونظر قسطنطين من جهة أخرى إلى مكسيميان مع إن ادعاؤه للسلطة غير شرعي إلا أنه على أي حال يحمل لقب أغسطس مثل جاليريوس وسوف يمنحه لقب أغسطس ، وقد قبل عرض مكسيميان بالزواج من ابنته على ألا يترتب على ذلك أي عمل من شأنه أن يثير جاليريوس عليه ، أو بمعنى آخر أراد الوقوف على الحياد في هذه الحرب حتى يرى لمن تكون نتائجها ، لأنه يعلم أن تحالفه علانية مع مكسيميان سوف يؤدي إلى عداء جاليريوس [2].

وعندما علم جاليريوس بما حل بحليفه إمبراطور الشرق سيفيروس حاول أن يواجه الفوضى التي بدأت تضرب أطنابها في البلاد إثر هذه الحرب ، فعين إمبراطور جديد للغرب هو فلافيوس ليكينيوس (Licinius) سنة ٣٠٧م ، وكذلك قام جاليريوس بتجهيز جيش لتأديب مجلس الشيوخ (الذي بارك فعل مكسنتيوس) ووضع السيف على رقاب الثائرين الذين والوا

---

(١) هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١٤.

(٢) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٦٢ ص٦٣ ؛

Constantine I, Op. Cit.

مكسنتيوس وإعادة الأمور إلى نصابها في إيطاليا[١]، وتقدم جاليريوس بقواته نحو روما التي وجد مكسيميان قد استعد لقدومه بتحصين المدينة ، ونظراً لأن جاليريوس لم تكن معه قوات كافية لحصار المدينة وكان يخشى من خروج جنوده عليه ، فآثر أن ينسحب بشكل غير منظم ولم يكن نصيب حملته بأحسن من حملة سيفيروس وترك جاليريوس القيادة لمواطنه وصديقه ليكينيوس[٢].

١. مؤتمر كارنونتوم (Carnuntum) نوفمبر ٣٠٨م .

أمام هذا الوضع المتأزم الذي بدأت الإمبراطورية تعيشه من خلال الاستعدادات التي تقوم بها كل الأطراف للحرب والتحالفات التي ظهرت على الساحة ، وخاصة بعد انتصار مكسنتيوس على سيفيروس (الإمبراطور الشرعي) خشي جاليريوس من أن كل ما بناه دقلديانوس كان على وشك الانهيار ، فرأى أن ينادي إلى مؤتمر عام في كارنونتوم على نهر الدانوب (في النمسا حالياً) يدعو له جميع أطراف النزاع ، ووجه الدعوة كذلك إلى دقلديانوس ومكسيميان للبحث في أحوال الإمبراطورية ، وقد حضر المؤتمر الذي عقد في سنة ٣٠٧م معظم الأطراف ولم يتخلف عن الحضور إلا ماكسيميوس دايا(Maximinus Daia) قيصر الشرق وقسطنطين وتوصل المجتمعون إلى الاتفاق على عدة أمور أهمها[٣] :

أولاً : أن يعود مكسيميان إلى الاعتزال ولا يتدخل في شؤون الحكم .

ثانياً : اعتبار مكسنتيوس مغتصباً للسلطة يجب محاربته من كل الأطراف .

ثالثاً : المصادقة على تعيين ليكينيوس رسمياً إمبراطوراً مكان سيفيروس الذي خسر في المعركة ضد مكسنتيوس وإنزال قسطنطين إلى رتبة قيصر.

٢. خروج مكسيميان وجاليريوس من دائرة الصراع.

---

(١) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٣ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٦٦٢ ؛ هامرتون ، مرجع سابق ص١١٤ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ص٦٣ ؛ هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١٤ ؛
Constantine I, Op. Cit.

(3). Constantine I, Op. Cit ;
سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٨ .

لم يلبث ذلك التحالف بين مكسنتيوس وأبيه مكسيميان أن انهار فسرعان ما دب الشقاق بينهما في سنة ٣٠٨م بسبب التنافس على منصب الأغسطس ، فاتجه مكسيميان إلى تريفيز(أوجستا تريفيرووروم Augusta Trevirorum تريف الحالية) حيث كان يقيم صهره قسطنطين وطلب مساعدته ضد ولده مكسنتيوس ولكن قسطنطين رفض إجابة طلبه هذا فرجع مكسيميان إلى روما وحاول تأليب الجند على ابنه ولكن الجيش وقف إلى جانب مكسنتيوس ، فلم يجد مكسيميان بداً من اللجوء إلى قسطنطين من جديد وأقام معه في القصر حيث أمضى عامين في التآمر لاسترداد منصبه ، بل إنه بدأ يحيك المؤامرات للتخلص من قسطنطين فحاول أن يستميل ابنته فاوستا زوجة قسطنطين إلى جانبه لإزاحة قسطنطين وتنصيبه هو كأغسطس مكانه ولكنها رفضت ، وفي إحدى المرات بينما كان قسطنطين منشغلاً بحرب االفرنجة على ضفاف الراين في ٣١٠م نادى مكسيميان بنفسه قائداً للجيوش الغالية بدلاً منه ، ولكن قسطنطين رجع بسرعة واخترق غالة وقام بحصار المغتصب في آرليس (Arles) (Massilia مارسيليا الحالية) وتمكن من أسره ولاقى مكسيميان نفس مصير سيفيروس بأن أجبر على الانتحار* في يوليو سنة ٣١٠م وبذلك تخلص قسطنطين من أحد منافسيه(١).

وفي سنة ٣١١م أصيب جاليريوس بمرض خطير قال عنه الكتاب الكنسيون أنه كان انتقاماً من الله على ما اقترفه في حق المسحيين(٢) ، وفي أثناء هذا المرض رأى جاليريوس أن يغير من سياسته ضد المسيحيين ويبدو بأنه اقتنع بعدم جدوى الاستمرار في اضطهادهم لأنهم لن

---

* وهناك رواية أخرى عن المؤامرة التي حاول مكسيميان أن يدبرها ضد قسطنطين تتلخص في إنه طلب من ابنته فاوستا أن تترك باب غرفة زوجها قسطنطين مفتوحاً حتى يتمكن من الدخول إليه واغتياله أثناء نومه ، وقد تظاهرت فاوستا بالموافقة ثم أخبرت زوجها بما جرى ، واستعد قسطنطين للأمر بما يناسبه لوقوع مكسيميان في يده متلبساً بجريمته ، وقد استطاع مكسيميان أن يتخطى حرس الإمبراطور بحجة إنه يريد إخباره بأمر هام ، ولكن قسطنطين باغته بخاصة حرسه وقبض عليه وأجبره على قتل نفسه جزاءاً على ما اقترفه :

Constantine I, Op. Cit.

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٨ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ص٣٨٣ ؛ هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١٤ .

(٢) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٣٧٣.

يرتدوا عن دينهم ، وكان الاضطهاد في هذه الفترة سائدا في كل الولايات التابعة لجاليريوس خاصة ولايتي سوريا ومصر التابعتين لقيصره ماكسيميوس دايا ، لكن الاضطهاد أتى بنتائج عكسية إذ ازدادت الكنيسة قوة ، وانتشر بين المسيحيين حب الاستشهاد في سبيل عقيدتهم فقرر إيقاف الاضطهاد وأصدر قرار التسامح الديني عام ٣١١م ، وبمقتضى هذا القرار سمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم وفتح كنائسهم وطلب من جميع الولايات التابعة له رفع أيديهم عن المسيحيين ، والسماح لهم بممارسة عقيدتهم ، وعدم التعرض لهم لأن ذلك أنفع لرعاياه حتى يمارسوا ديانتهم بإخلاص بدلاً من الفراغ الروحي الذي كان يعيشه الرومان على حد تعبير جاليريوس في مرسومه ، ولم تمض فترة طويلة على إصداره قرار التسامح الديني حتى مات جاليريوس سنة ٣١١م وبذلك انحصر الصراع على أربعة منافسين داخل الإمبراطورية(١).

٣. الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطين .

استغل ماكسيميوس دايا موت جاليريوس فقام بضم الولايات التابعة له إلى حكمه حتى وصل إلى حدود ولايات ليكينيوس في البلقان ، وأسرع في الوقت نفسه وتحالف مع مكسنتيوس في إيطاليا ، وأسرع كل من ليكينيوس وقسطنطين بدورهما بالتحالف بينهما ضد ماكسيميوس ومكسنتيوس وذلك بأن قدم قسطنطين أخته كونستانتيا زوجة لحليفه الجديد ، وقام قسطنطين بخطوة أخرى في سبيل تدعيم مركزه أمام خصمه وذلك باحتلال أسبانيا وحرم مكسنتيوس من المورد الوحيد الذي كانت تعتمد عليه إيطاليا في الطعام مما أدى إلى حدوث مجاعة في إيطاليا وأعمال عنف لم يستطع مكسنتيوس الخروج منها إلا باحتلاله أفريقيا ، وحصل بالتالي على ما يحتاجه من القمح وبذلك دعم موقفه الاقتصادي ، ودعم موقفه العسكري كذلك بأن جعل أفريقيا خط دفاع أمامي له وأخذ يستعد لملاقاة قسطنطين ، كما قام قسطنطين بإلغاء عبادة هرقل العظيم الذي اتخذه مكسنتيوس رمزاً لعرشه واستبدل مكانها عبادة إله الشمس الذي لا يُقهر ، فقد كانت عبادته منتشرة في بلاد الغال ، وأعلن معارضته لما يفعله مكسنتيوس واعتبره طاغية يجب القضاء

---

(١). Michael Grant , Op Cit , p 308 ; Constantine I, Op. Cit;

سيد احمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ص ص٥٧٩ . ٥٩٠ .

عليه ، ورد مكسنتيوس بأن قسطنطين هو الذي قتل أباه مكسيميان ويجب أن يدفع ثمن ما اقترفت يداه[1] .

بدأ قسطنطين حملته للاستيلاء على إيطاليا وانطلق من غالة عام ٣١٢م بجيش قوامه ١٤٠ ألف مقاتل ، وفي الجهة الأخرى استعد مكسنتيوس لذلك بأن حصن روما تحصيناً جيداً واستغل الحوائط العظيمة التي بنيت حول المدينة للدفاع عنها ، وما كان لأي عدو أن يخترق تلك التحصينات المنيعة وعزم على عدم الخروج من المدينة واستعد للحصار ، ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما الذي جعل مكسنتيوس يغير من رأيه ويعزم على مقارعة قسطنطين خارج روما وترك كل تلك الاستعدادات التي وضعها ؟ فربما لم يكن مكسنتيوس يثق بسكان روما في ولائهم له ، ومن الممكن أن يكون قسطنطين قد اتصل ببعضهم وخشي مكسنتيوس من أن يطعن في ظهره منهم ، فانطلق من روما وعبر جسر ملفيان على نهر التيبر حتى وصل إلى منطقة الصخور الحمراء (Saxa Rubra) وهناك التقى بقسطنطين . وكان قسطنطين عند وصوله إلى شمال إيطاليا التقى بجيش لمكسنتيوس تمكن من هزيمته وذلك قرب تورين (Turin ، Taurinorum) واستولى على مدن الشمال الإيطالي مثل ميلان وإكويلايا وmodينا وتورين وزحف نحو روما بسرعة ونظام عسكري كبير حتى التقى بمكسنتيوس في السابع والعشرين من شهر اكتوبر ٣١٢م عند سكسا روبرا (الصخور الحمراء) والتي تبعد حوالي ٩ أميال عن روما من الشمال[2].

والذي ينظر إلى أغلب ما قاله المؤرخون خاصة الكنسيون منهم عند تناولهم لهذه المعركة تجدها كلها تعد وبشكل يدعو للريبة لنصر قسطنطين على غريمه ، فما الذي يجعل قائداً عسكرياً مثل مكسنتيوس يخرج من تحصيناته القوية وسط مدينة روما ويلتقي بخصمه خارج المدينة ، وليس هذا فحسب بل قطع خط العودة عليه وذلك بأن هدم جسر ملفيان على نهر التيبر ، ويروي

---

(١) سيد احمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٧٩ ، رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٧٤ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص٥٨١ ؛ السير هامرتون . مرجع سابق ص١١٤ ؛

Michael Grant , Op Cit , p 308 ; Constantine I, Op. Cit.

يوسابيوس أن قسطنطين رأى في ليلة المعركة رؤيا تتمثل في أن هاتفاً أمره بوضع الحرفين الأول والثاني من اسم المسيح على دروع جنوده والحرفين هما الخاء والراء لأن اسم المسيح باللغة الإغريقية هو خريستوس ، وهناك رواية تقول إن الهاتف طلب من قسطنطين أن يضع على دروع جنوده علامة الصليب* ومنذ تلك الموقعة عرف لواء قسطنطين باسم اللباروم(١).

وكان من نتيجة المعركة أن هلك مكسنتيوس والآلاف من جنوده غرقاً في نهر التيبر(٢) ودخل قسطنطين روما دخول المنتصر حيث سار أمامه احد ضباطه يحمل رأس مكسنتيوس معلقة على حربة وطاف به شوارع روما ، وقد شبه يوسابيوس قسطنطين بالنبي موسى (عليه السلام) لأنه نشأ في بلاط الملوك وشبه مكسنتيوس بفرعون الذي أغرقه الله في البحر وأنجى موسى وأتباعه منه(٣)، واستقبلت الجماهير قسطنطين وهتفت بحياته كمحرر وأسرع مجلس الشيوخ بدوره بمباركة قسطنطين ، وصب لعناته على مكسنتيوس المنهزم وسحب الشرعية على كل أعماله ، وأعلن مجلس الشيوخ مبايعة قسطنطين كإمبراطور أعلى في كافة أنحاء الإمبراطورية (٤).

---

* ويتسائل أحد الباحثين حول الرواية التي أوردها يوسابيوس والتي يقول فيها إن قسطنطين قد أسر له بأنه رأى علامة الصليب في قرص الشمس كُتب عليها (بهذا ستنتصر) وأنه قد أقسم له إن القصة صحيحة وإن أفراد جيشه قد شاركوه الرؤيا ولم يتردد يوسابيوس في تصديق هذه القصة ، لماذا يخبر قسطنطين صديقه عن القصة سراً ويقسم علي صدقه ؟ ثم إذا كانت الرؤيا حقيقية لماذا لم يتحدث عنها آلاف الجنود الذين كانوا معه عوضاً عن شهادة قسطنطين ؟ وكذلك فالعالم المسيحي لم يعرف هذه القصة إلا بعد مرور ٢٥ سنة من حدوثها وذلك في الحديث بين قسطنطين ويوسابيوس ، فلماذا لم يستند يوسابيوس على شهادة جنود قسطنطين ؟ وكذلك لماذا يطلب السيد المسيح (عليه السلام) من قسطنطين بأن يعمل صليب مادي يجعل عليه اتكاله لينصره في المعركة ؟ فمن الممكن أن يكون يوسابيوس قد استنتجها من حديث قسطنطين له ، وربما يكون قسطنطين قد تخيل هذه الرؤية ويتضح ذلك من الطريقة التي قدم بها يوسابيوس القصة من أن قسطنطين لم ينشر هذه الحادثة ولم يخبر بها أحد وإنه أفضى له بها في لحظة من لحظات الألفة والمودة ، و من الممكن أن يكون ما رآه قسطنطين لا يعدو أن يكون ظاهرة طبيعية ونادرة للشمس مشابهة لقوس الله (قوس قزح) وهناك من يشكك في هذه الرؤيا ويعتبر أنه لا وجود لها : رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ٩٦ . ٩٨ .

(١).Evsebivs, Vita Const, I, pp 21-22; Constantine I, Op. Cit.

(٢).Evsebivs, Vita Const, I, p26; Constantine I, Op. Cit.

(٣).Evsebivs, Vita Const, I, pp 9-10

(٤) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٤١٦ ؛

Evsebivs, Vita Const, I, p26

ونقرر إقامة تمثال لقسطنطين في روما وعلى جانبيه علامة الصليب رمزاً لهذا الانتصار ، وذلك على العقد الذي لايزال قائما في روما حتى اليوم وهو يرمز إلى تحرير المدينة من الطاغية مكسنتيوس وقد نقش عليه العبارة التالية[١] :

By Virtue Of This Salutary Sign, Which Is The True Test Of Valor, I Have Preserved And Liberated Your City From The Yoke Of Tyranny. I Have Also Set At Liberty The Roman Senate And People, And Restored Them .To Their Ancient Distinction And Splendor[٢].

وهي تشير إلى أنه كان للقوة الإلهية دور كبير في تحقيق النصر ." بهذه العلامة المقتدرة ، دليل الشجاعة الحقيقي ، أنقذت مدينتكم وحررتها من نير الطاغية ، وفضلاً عن هذا فإنني إذ حررت مجلس الأعيان وشعب روما قد أعدتهم إلى مقامهم السامي السابق ومجدهم "[٣].

وقد كان للجنود المسيحيين في جيش قسطنطين دوراً كبيراً في تحقيق النصر فقد كانوا منظمين تنظيماً محكماً ، وكانوا على درجة كبيرة من الكفاءة والطاعة مقارنة بالجنود الوثنيين ولذلك أراد قسطنطين أن يستفيد منهم بشكل كبير وذلك بأن وضع الصليب على دروع الجنود حتى يرى هؤلاء الجنود المسيحيون والذين كانوا يشكلون اثني عشرة فيلقاً من جيش قسطنطين أنهم يقاتلون تحت راية مسيحية ومن أجل المسيح والمسيحية فيزيد من حماسهم وإقدامهم ، ومع إن قسطنطين كان يحمل لواء مثراس أورليان وهو لواء الشمس التي لا تقهر ، لكنه عرف كيف يستفيد من جنوده المسيحيين في تحقيق النصر على عدوه ، وبالإضافة إلى الفيالق المسيحية كان أغلب الجيش مكون من الوثنيين وهؤلاء الجنود لا يهمهم كثيراً أن يروا علامة الصليب على الدروع لأنهم طالما قاتلوا تحت رايات متعددة ، وكان فتح روما ودخول قسطنطين إليها يعد حدثاً كبيراً بالنسبة لقسطنطين زادت به ثقته بنفسه وفتحت الباب أمامه لنصف الإمبراطورية الثاني ، وكان أهل روما يظنون بأن قسطنطين سوف يُعيد لروما مكانتها السابقة في العالم الروماني

---

(١) السيد الباز العرينى ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٤٦ .

(٢). Evsebivs, Vita Const, I I, p 28.

(٣) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص١١٧ .

كمدينة وعاصمة أولى للإمبراطورية ، ولكن ما فعله قسطنطين قد خيب آمالهم فقد غض الطرف عن روما فلم يجعل منها مقراً لحكمه ولم يمكث فيها إلا قليلاً وكذلك قام بإلغاء الحرس الإمبراطوري وهدم ثكناته ذلك الحرس الذي أدى أدواراً كبيرة طيلة تاريخ روما في تعيين الأباطرة وعزلهم وبذلك انتهى تاريخ هذا الحرس ، وبعد انتصار قسطنطين وضم إيطاليا إلى ملكه أصبح في الإمبراطورية ثلاثة أباطرة هم قسطنطين وليكينيوس ماكسيميوس دايا(١).

على أن المنتصر الحقيقي في هذه الحرب هي المسيحية والتي صورت انتصار قسطنطين أنه كان ببركة الصليب وذلك عن طريق قوة ربانية بوقوف المسيح إلى جانبه في المعركة ، وقام قسطنطين بإصدار أوامره إلى ماكسيميوس دايا بالتوقف عن اضطهاد المسيحيين في الشطر الشرقي من الإمبراطورية ، وقد أذعن هذا الأخير لأمر قسطنطين ، كما أصدر أوامره أيضا إلى حاكم ولاية أفريقيا بإرجاع حقوق المسيحيين وتقديم الأموال لهم لإصلاح كنائسهم ومنح بعض الامتيازات للكهنة ، ثم غادر قسطنطين روما إلى ميلان للاجتماع بصديقه ليكينيوس(٢).

ولم ينسى فضل الإله المسيحي عليه بعد انتصاره على مكسنتيوس ودخوله روما لأنه هو الذي أعانه على تحقيق انتصاراته المتتالية ، وإنه سوف يحافظ على الإمبراطورية إذا ما تصالح مع هذا الدين ورفع القيود على أتباعه ، فقد أدخل في عبادته جماعات كثيرة من المواطنين ، بعد أن أصدر المراسيم التي تمنع اضطهاد أتباع هذا الدين وتعطي لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية واعتبار ديانتهم ديانة معترف بها في الإمبراطورية ، وقد اطلع قسطنطين بواجباته هذه على خير وجه ، ومع كل هذا فلم يدخل في أحضان الكنيسة رسمياً إلا وهو على فراش الموت (٣).

ثالثاً: بداية التحالف بين الكنيسة والإمبراطورية .

مؤتمر ميلان والقضاء على مكسيموس دايا ٣١٣م .

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٧٦ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص ص ٥٨٢ . ٥٨٣ .

(٣) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص ص ٥٨ . ٥٩ .

بعد هزيمة مكسنتيوس ومقتله في موقعة ملفيان ٣١٢م وإعدام أبناءه والتنكيل بأقاربه ظن أعوان مكسنتيوس إنهم سيلاقوا نفس المصير ، إلا أن قسطنطين أصدر عفواً عاماً أراد من وراءه تهدئة الأمور ، وقام بزيارة مجلس الشيوخ وأظهر اهتمامه ودعمه لهذا المجلس ، وأبدى رغبته في إعادته إلى مكانته الأولى وإرجاع امتيازاته القديمة ، ورد المجلس بإصدار مرسوم يقضي بتعيين قسطنطين إمبراطوراً أول من بين الأباطرة الذين يحملون لقب أغسطس ، إلا إن هذا المرسوم لم يكن له أهمية كبيرة في الواقع ، لأن هذا المجلس قد فقد جميع صلاحياته وكانت السلطة الفعلية في يد قسطنطين معتمدا في ذلك على رجال جيشه وعلى النصر الذي حققه ضد مكسنتيوس على نهر التيبر(١).

ثم اتجه قسطنطين إلى ميلان للقاء ليكينيوس ٣١٣م وذلك ليحتفلا بزواج الأخير من أخت قسطنطين قونستانتيا (Coustantia) ويتباحثا في أمور الإمبراطورية ، وكان من نتائج هذا اللقاء الذي استمر شهرين هو إصدار مرسوم ميلان والذي كان يقضي بحرية اختيار الديانة لجميع البشر وساوى المسيحية بالوثنية واليهودية كما ساوى بين أتباع جميع الديانات في الحقوق والواجبات ، وقضى هذا المرسوم بإرجاع حقوق الكهنة والكنائس ، واتفقا بأن يسري هذا المرسوم على شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي وقام ليكينيوس بإرسال نسخة من هذا المرسوم إلى إمبراطور الشرق مكسيميوس دايا ، واستغل ليكينيوس هذا المرسوم سلاحا لإحراج ماكسيميوس دايا الذي كان مغالياً كثيراً في تطبيق مراسيم جاليريوس السابقة والتي تنادي باضطهاد المسيحيين ، وكان ليكينيوس غريماً لماكسيميوس وذلك بسبب قيام الأخير بالاستيلاء على ولايات جاليريوس المتاخمة للكينيوس ، غير إن ماكسيميوس فوت الفرصة على ليكينيوس وذلك بإجازته مرسوم التسامح مع المسيحيين وتعميمه على الولايات التابعة له ولعله أراد من وراء ذلك تحييد قسطنطين عن التدخل في الحرب التي عزم على الدخول فيها مع ليكينيوس(٢).

---

(١) محمود سعيد عمران ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص ص ٣٩ . ٤٠ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٣ ؛ السيد الباز العريني . تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٤٨ .

وكان ماكسيميوس دايا يشعر باهتزاز مكانته أمام منافسيه ، فحتى على عهد دقلديانوس لم تقدم له الدعوة لحضور مؤتمر كارنونتوم ، ولم يقبل جاليريوس ترقيته إلى منصب أغسطس وازداد موقفه ضعفا بعد هزيمة حليفة مكسنتيوس ، فأصبح وحيدا أمام حليفين قويين هما قسطنطين وليكينيوس ، ولكنه أراد أن ينتهز الفرصة ويكون هو البادئ لمهاجمة غريمه ليكينيوس لأنه كان يعلم أنه إذا لم يقم هو بالهجوم فسيكون عرضة له من قبل الحليفين ، فانتهز فرصة انشغال قسطنطين بمحاربة الفرنجة على نهر الراين وانقض بجيش تعداده سبعون ألفا في شتاء عام ٣١٣م على البسفور وحاصر بيزنطة ، وبعد أحد عشرة شهراً من الحصار استسلمت المدينة لماكسيميوس ، وأسرع ليكينيوس من قاعدته في ميلان بجيش صغير والتقى بماكسيميوس في موقعة أدرنة وأنزل الهزيمة به في صيف ٣١٣م وتراجع ماكسيميوس إلى جبال طوروس ثم هرب متخفيا وانتزع الملابس الملكية التي لم تكن لائقة به كما يقول يوسابيوس[١] واختبأ في القرى والحقول حتى أُلقي القبض عليه وأُجبر على قتل نفسه في أغسطس ٣١٣م ودخل ليكينيوس نوقوميديا وأصدر أوامره بتأكيد مرسوم ميلان الذي ينادي بحرية العبادة للمسيحيين[٢].

رابعاً: الحكم الثنائي (ليكينيوس وقسطنطين ٣١٣ ـ ٣٢٤م).

أصبحت الإمبراطورية يقتسمها إمبراطوران اثنان ليكينيوس في الشرق وقسطنطين في الغرب[٣] ، ومع إن ليكينيوس لم يكن في نيته حرب قسطنطين إذ كان راضياً على ما يبدو بما آلت إليه الأمور فقد ساقت إليه الأقدار جيشا منهكا كان غنيمة سهلة بالنسبة له فلم يتوقع النصر عليه بهذه السرعة فأصبح بعد هذا النصر إمبراطوراً على الأقاليم الغنية بالثروات والسكان مثل إليريا والتي ظهر منها أقوى الرجال وقواد الجيوش مثل دقلديانوس ومكسيميان وقسطنطين

---

(١) يوسابيوس القيصري ، تاريخ الكنيسة ، ص٤١٩ ؛

Evsebivs, Vita Const, I, p38

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٤٩ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ٥٨٤ ؛ ول ديورانت ،مرجع سابق ، ص٣٨٥.

(٣). Michael Grant, Op. Cit, p 308.

بالإضافة إلى ولايات آسيا الصغرى والشام ومصر الغنية بالثروات ، وكان كذلك يعرف حليفه قسطنطين جيدا فقد عرفه قيصراً فأغسطساً فحليفاً بعد ذلك ويعرف كيف تعامل مع خصومه مثل ماكسيميان وابنه مكسنتيوس ، فكان يتوجس خيفة منه مما دفعه إلى ارتكاب حماقات لم يتوانى قسطنطين في استغلالها ، وهذا الوضع يشبه وضع الإمبراطورية بعد مقتل يوليوس قيصر عندما تحالف اكتافيوس وأنطونيوس ضد قتلة يوليوس وعندما نجحا في تصفية خصومهما دخلا في صراع بينهم[١].

وفي الجهة الأخرى كان هناك ما يثير شجون قسطنطين ويدفعه إلى البحث عن مبررات لقتال حليف الأمس ، فقد كان قسطنطين يسيطر على أفقر مناطق الإمبراطورية وأقلها سكاناً وكانت يدرك أهمية الأقاليم التي يسيطر عليها حليفه وخاصة إقليم إليريا ، ولذلك جعلها هدفه الذي عمل على تحقيقه في المرحلة القادمة ، فبعد فراغه من قتال الفرنجة على الراين فكر في إقامة منطقة عازلة بينه وبين ليكينيوس وأراد تعيين باسيانوس (Bassianus) زوج اخته أناستاسيا (Anastasia) واليا من قبله عليها ، ومما شجع قسطنطين على اختياره هذا الرجل هو وجود شقيق له يعمل في قصر غريمه ليكينيوس هو سنيكو وطلب من ليكينيوس الموافقة على تعيين باسيانوس قيصرا على المنطقة العازلة ، ولكن ليكينوس لم يرض على ذلك مما أدى إلى حدوث نزاع بينهما حول هذا الأمر ، ووافق ليكينيوس أخيراً على تعيين باسيانوس قيصراً أملاً منه في أن يستميل هذا القيصر الجديد لصالحه ويعمل معه حلف ضد قسطنطين معتمداً في ذلك على مساعدة سنيكو أخ باسيانوس ، وقد بنى جيبون رأيه هذا على ما وقع من أحداث بعد ذلك والتي كان لسنيكو دوراً كبيراً فيها[٢].

ويروي يوسابيوس أن قسطنطين قد اكتشف مؤامرة ضده كانت من تدبير سنيكو الذي يعمل في بلاط ليكينيوس بالتعاون مع أخيه باسيانوس[٣] ، فقبض قسطنطين على صهره وقدمه للإعدام وطلب من ليكينيوس أن يسلمه سنيكو ولما رفض طلبه وجد قسطنطين ذلك مبرراً كافياً لشن

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٤ .

(٢)رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٨٨ .

(٣). Evsebivs, Vita Const, I, pp33-34 .

الحرب على حليف الأمس عدو اليوم ، فبعد أن أوقع قسطنطين الهزيمة بالفرنجة بقى في تريف حتى نهاية صيف ٣١٤م ثم تحرك بقوة تبلغ عشرون ألف مقاتل للإستيلاء على اقاليم ليكينيوس وتقابل معه بين الساف والدراف في معركة عنيفة ، ورغم تفوق جيش ليكينيوس الذي كان تحت إمرته خمسة وثلاثون ألف مقاتل إلا أن الهزيمة لحقت به في الثامن من اكتوبر ٣١٤م وانسحب على إثر هزيمته إلى سرميوم (Sirmium) ، ولحق به قسطنطين محتلا سرميوم واتجه إلى تراقيا في منطقة تعرف بوادي مارديا (Mardia) حيث دارت رحى معركة أخرى بينهما في نفس السنة لم تكن أقل ضراوة وعنفا من سابقتها ، ويبدو أن نتائج هذه المعركة لم تكن حاسمة ولم يستطع أي طرف أن يحقق نصراً ظاهراً على خصمه مما شجعهما على إيقاف القتال وعقد هدنة في ديسمبر ٣١٤م تنازل بمقتضاها ليكينيوس على كل أقاليمه في أوربا عدا تراقيا مقابل اعتراف قسطنطين بليكينيوس إمبراطوراً شريكاً مساوياً تماماً له وأن يسحب إدعاؤه بأنه الأغسطس الأول في الإمبراطورية[١].

ولكن بالرغم من هذا النصر الذي حققه قسطنطين على ليكينيوس إلا أن طموحه لم يكن ليقف عند هذا الحد ، فبالرغم من سيطرته على أقاليم غنية وولايات شاسعة ولكنه وضع نصب عينيه في وثبته القادمة على الولايات الشرقية والتي كان ينظر إليها كأهم منطقة يمكن أن يكون فيها مركز الإمبراطورية ، فقد بقى في البلقان قريباً من ولايات ليكينيوس ولم يغادره طيلة ثمان سنوات إلا مرة واحدة زار فيها ميلانو ، وأخذ ينظم شؤون ولاياته الجديدة ويعد العدة للمعركة القادمة والتي كانت واقعة لا محالة ولكنه لم يكن ليتعجل الأمور ، إذ اكتفى بالنصر الذي حققه مؤجلا ضربته الأخيرة لليوم الذي تصبح فيه قاضية ، وقد أثارت أعمال قسطنطين هذه الشك والريبة في نفس خصمه فإن بقاء قسطنطين قريباً من حدود ولايات ليكينيوس وأخذه في تسليح جيشه وتجهيزه ووضعه وتمركزه قريبا من الحدود ، كل ذلك كان من شأنه أن يثير مخاوف ليكينيوس وظنونه حول نوايا غريمه ، وكان هناك أمر آخر زاد في توتير العلاقة بينهما ، وهو المتعلق بالعلاقة مع المسيحية والمسيحيين ، فبينما مسك قسطنطين العصا من المنتصف في

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص٥٨٥ .

معاملته مع رعاياه المسيحيين والوثنيين واستطاع أن يكسب ولائهم جميعا ، وأخذ كذلك يتوسع في تطبيق مرسوم ميلان ويمنح المسيحيين مزيدا من الامتيازات والحريات الواسعة ، وكان رعايا قسطنطين ينظرون إليه على أنه الملك البار الذي خلصهم من الطغاة والظالمين الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ، حتى إن يوسابيوس ومن خلفه المؤرخون الكنسيون كان ينظرون إلى انتصارات قسطنطين على أعدائه كانت بمساعدة إله المسيحيين الذي كان يزوره قبل كل معركة يلتقي فيها مع أعداءه ، ويأمره باتباع أسلوب معين وذكر أذكار محدودة فإنه يكون بعدها النصر لامحالة[١].

وفي الجهة االمقابلة أخذ المسيحيون الذين يعيشون في الجانب الشرقي ينظرون إلى تلك الامتيازات التي مُنحت للمسيحيين في الجزء الغربي بعين الغبطة ، لأن ليكينيوس لم يتوسع في تطبيق مرسوم ميلان ورغم أنه حتى عام ٣١٩م لم يظهر عداوة للمسيحيين إلا أنه كذلك لم يحاول كسب صداقتهم وتأييدهم كما فعل قسطنطين ، مما جعل مسيحيو الجزء الشرقي ينظرون إليه على أنه المسؤول الأول عن عدم نيلهم وتمتعهم بتلك الامتيازات التي تحققت لمسيحيي الغرب ، وفي نفس الوقت نظروا إلى قسطنطين نظرة إعجاب واعتبروه محبوب الرب وأبدوا تعاطفهم الكبير معه وبالتالي أصبحت تحدث هوة بين ليكينيوس ورعيته وظهرت أزمة ثقة بينه وبينهم حتى إنهم اعتبروه طاغية ومضطهدا وعدّهم هو عملاء لقسطنطين[٢].

لذلك قام ليكينيوس بعدة إجراءات ضد المسيحيين ، فحرم اجتماعاتهم وصادر الكثير من أملاكهم ومنع الأساقفة من الاتصال بالأسقفيات الأخرى المجاورة وقام بطرد الجنود والموظفين الذين يرفضون تقديم الذبائح للأرباب الوثنية ، وأصدر العديد من المراسيم ضد الوثنيين وسجن العديد منهم وحرم مساعدة سجنائهم ، وقتل الكثير من القساوسة ، وهدم بعض الكنائس وأغلق البعض الآخر، لكن وعلى الرغم من ذلك لم يكن اضطهاده لهم عنيفاً ولم يأخذ صور تلك الاضطهادات التي حدثت لهم على زمن سابقيه من الأباطرة ، وعلى هذا النحو فإن قسطنطين

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٤٥٤ .

(٢) رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص٩٠.

وجد في ذلك فرصة للتدخل لينقذ المسيحيين من سطوة هذا الطاغية كما يقول يوسابيوس ، ولم يكن مصيره بأفضل من سابقيه مكسنتيوس ومكسيميان(١).

ولما انتهى قسطنطين من إعداد نفسه ورأى انه أصبح جاهزا لدخول حرب مع خصمه وإزاحته نهائيا من ساحة الإمبراطورية بدأ يتخذ خطوات لم يرَ فيها ليكينيوس إلا أنها إعلان حرب عليه ، فقد قام قسطنطين بتعيين ولديه كريسبوس وقسطنطين قنصلين سنة ٣٢١م دون موافقة ليكينيوس ، وفي عام ٣٢٢م قام بهجوم ضخم على القوط واخترق إقليم تراقيا التابع لليكينيوس دون موافقته ولما احتج هذا الأخير عليه وطلب منه تقديم اعتذار على ذلك رفض بل إنه وجدها فرصة للبدء في حرب أهلية أخيرة تحقق له فيها السيطرة التامة على كافة أنحاء الإمبراطورية(٢) ، وعلل الكتاب الكنسيون كل ما يقوم به قسطنطين على أنه دفاعاً عن المسيحية ورفعا لشأنها ، ولكن الذي يظهر من خلال هذه الحرب أن ما كان يدفعه هو طموحه الكبير ورغبته في أن يكون إمبراطوراً لا شريك معه في الحكم ، وكانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين بما في ذلك زيارة الرب له ، فهو قد أعد نفسه إعداداً جيداً لمقارعة خصمه وضمن تأييد رعاياه من الوثنيين والمسيحيين وكذلك استطاع أن يحصل على تعاطف مسيحيي الشرق أو على الأقل ضمن عدم نصرتهم لليكينيوس ، والتقى حامي الوثنية ومعه ١٥٠ ألف من المشاة و٢٥ ألف من الفرسان ، بحامي المسيحية وتحت قيادته ١٢٠ ألف جندي من مختلف الأسلحة ، ودارت المعركة الأولى بينهما عند أوريانوبل (أدرنة في تركيا الحالية) في الثالث من يوليو ٣٢٣م لقي فيها ليكينيوس هزيمته الأولى وانسحب إلى بيزنطة وتقدم قسطنطين لحصار بيزنطة ودارت معركة أخرى بين الطرفين في ١٨ ديسمبر ٣٢٣م عند خريسبوليس (Chrysopolis) (اسقودره) انتصر فيها قسطنطين انتصاراً حاسماً ، ولم يكن بوسع ليكينيوس إلاّ الاستسلام لقسطنطين بعد أن وعده بالعفو عنه فنفاه إلى تسالونيكا وفي العام التالي أمر بإعدامه بعد أن اتهمه بالمؤامرة عليه ،

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص٤٥٠ . ٤٥٤ ؛

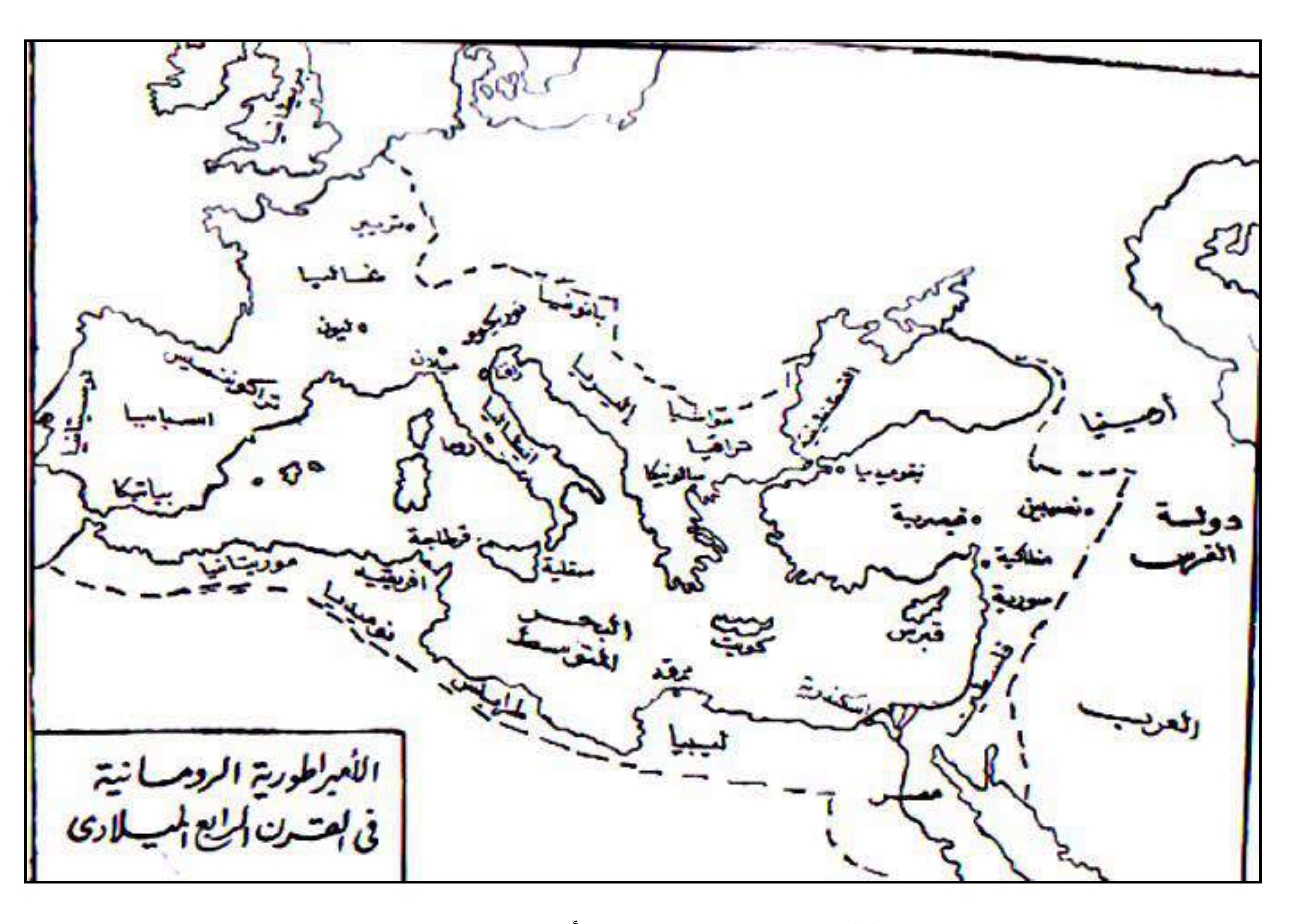
Evsebivs, Vita Const, I I, p34.

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩١ .

وأصبح قسطنطين بعد هذا النصر الذي حققه على ليكينيوس إمبراطورا أوحد على كل أنحاء الإمبراطورية وأخمد غوار حروب أهلية وقدر للإمبراطورية أن تصبح من جديد وحدة سياسية واحدة تحت إمرة إمبراطور واحد ، وأخذ المادحون يتغنون بانتصاراته وفتوحاته[١].

---

(١) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٦ ؛ رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص ٩٢ .٩٤ ؛
Michael Grant, Op. Cit, p 308 Evsebivs, Vita Const, I I, pp51-52; Constantine I, Op. Cit.



خريطة رقم (٥) سعيد عبدالفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى

المبحث الثاني : إصلاحات قسطنطين وأعماله.

أولا : الإصلاحات السياسية والإدارية.

ثانيا : الإصلاحات العسكرية .

ثالثا : الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية .

أ- إصلاح نظام النقد .

ب- نظام الضرائب .

ج- ظهور نظام الإقطاع وأقنان الأرض والطبقات الاجتماعية .

إصلاحات قسطنطين

لقد قضى قسطنطين ثمانية عشرة عاماً في حروبه مع شركاءه حتى تخلص منهم واحداً تلو الآخر وأصبح في عام ٣٢٤م حاكماً مطلقاً على كافة أرجاء الإمبراطورية وبقى كذلك إلى سنة ٣٣٧م بعد فترة حكم دامت إحدى وثلاثين عاماً قام فيها بالعديد من الأعمال والإصلاحات والتي كان لها أثراً كبيراً في العالم ربما إلى يومنا هذا وأهم أعماله وإصلاحاته هي(١) :

أولا : الإصلاحات السياسية والإدارية.

لقد أحاط قسطنطين نفسه مثل دقلديانوس بهالة من العظمة وأصبغ على شخصه القدسية والكبرياء فاهتم بفخامة بلاطه وجعل التاج لنفسه ، واتخذ مجموعة كبيرة من الخدم والحشم والعديد من الموظفين والإداريين لكي يجعل لنفسه الهيبة في نفوس رعاياه ، واهتم قسطنطين بجهازه الإداري كسلفه أيضاً ففصل السلطات المدنية عن السلطات العسكرية ووضع لكل ولاية حاكم يسير أمورها الإدارية والمدنية في حين منح الشؤون العسكرية إلى قائد عسكري يعين من قبله ، وكان قسطنطين يرمي من فصل السلطات هو حرمان ولاة الولايات وخاصة الكبيرة (غالة ، إيطاليا ، إليريا ، الشرق) من سلطاتهم العسكرية لكي لا يستغلونها في الخروج على الدولة ، مع إنه وسع سلطات الوالي المدنية حتى صارت أحكامه القضائية نهائية وكانت من مهامه أيضا تجنيد العساكر وإمداد الجيش بكل ما يحتاجه من المؤن والأموال اللازمة ، وأصبح من حق الوالي كذلك الإشراف على الهيئات والنقابات ونمط التعليم ومراقبة الأسعار وإقامة المنشآت العامة ، وعلى الرغم من ذلك فقد حرص كل والي على كسب ثقة الإمبراطور صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في تعيينه(٢).

وكان لقسطنطين مجلس شورى (المجلس الإمبراطوري) يساعده في ممارسة سلطاته وكانت مهامه النظر في الأعمال الإدارية والتشريعية وكان أعضاؤه دائمين ، كما انشأ قسطنطين

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 308.

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٢٣ ؛ السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٥٤ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، مرجع سابق ، ص٢٧ .

هيئة جديدة أطلق عليها هيئة الموثقين كان مهمتها تتعلق بالأعمال الكتابية للمجلس الإمبراطوري وكان يوفد من هذه الهيئة موفدين إلى الولايات يقومون بمهمة الرقابة على تنفيذ القرارات المتعلقة بتعيين الموظفين الكبار في الدولة وتطبيق مراسيم وقرارات الحكومة(١).

كما استحدث قسطنطين وظيفة مهمة يعتبر صاحبها رئيساً للإدارات الحكومية (وهي تشبه وظيفة رئيس الوزراء في وقتنا الحاضر) وكانت مهمته الإشراف على الشؤون العامة للدولة من خلال هيئة من الموظفين فهو مسؤول عن الأمن والسلامة بتوفير الأسلحة وهو رئيس المواكب والاحتفالات ومسؤولاً عن الشؤون والعلاقات الخارجية للدولة وكان مشرفا على والمخابرات وحمل الرسائل والشؤون المالية والمرافق العامة(٢).

وكان دقلديانوس قد أقصى الشيوخ عن إدارة الولايات وجعلها جميعا تابعة له مباشرة وزاد من عدد الولايات ليقلل من مواردها لكي لا يستغلها الوالي ، حتى جعلها ١٢٠ ولاية ، و قسم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام كبرى هي غالة وإيطاليا وإليريا والشرق ولكنه جرد الوالي من السلطات العسكرية ، وولّى على كل ولاية واليا يلقب في اللاتينية بريفكتس ، هذه الأقسام الأربعة الكبرى قسمت بدورها إلى ولايات صغيرة بلغت على زمن قسطنطين ١١٩ ولاية يرأسها والي يتبع البريفكتس (الوالي الكبير) وجعل للقسطنطينية وروما وضعاً خاصاً فوضع على كل منها بريفكتس كالأقسام الكبيرة (٣).

وكان دستور قسطنطين يعتبر امتداد لدستور دقلديانوس فهو عبارة عن دستور دولة ملكية مطلقة ، ومع إنه كان في وسع مجلس الشيوخ أن يجتمع لمناقشة بعض الأمور إلا أنه لم تكن له القدرة على إصدار تشريعات وقوانين في البلاد إلا التي توافق رغبة الإمبراطور ، وقد استحوذ على حقوق مجلس الشيوخ في زمن قسطنطين مجلس ثان أُطلق عليه المجلس التشريعي الأعلى المقدس ، ورأى قسطنطين أن الديمقراطية لم تجلب على الإمبراطورية إلا الخراب والدمار والحروب الأهلية ، فإذا كانت الديمقراطية تستطيع حكم مدينة ولكنها عجزت عن حكم إمبراطورية

---

(١) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٥٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٥٥ .

(٣) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٦٧ ؛ هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص ص٥٢٨ . ٥٢٩ .

مكونة من مئة ولاية مختلفة الأوضاع ، وكذلك فإن الديمقراطية في نظره قد أسرفت في الحرية حتى جعلتها إباحية وأسرفت في الإباحية حتى أصبحت فوضى وبالتالي رأى أن النظام لا يمكن أن يعود إلا عن طريق حكومة مركزية يجمع فيها الإمبراطور جميع السلطات في يده ، ولقد وجد هذا النظام الذي وضعه قسطنطين أداة إدارية قديرة استطاعت الاستمرار بالإمبراطورية البيزنطية عشرة قرون ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسي وبالجمود في الكثير من نواحي الحياة العامة[١].

أما فيما يخص ولاية العرش فقد رأى قسطنطين أن النظام الذي وضعه دقلديانوس المتمثل في النظام الرباعي عن طريق الأغسطسين والقيصرين لم يؤد إلى إيقاف الحروب الأهلية بل إنه ساهم في تأجيجها فقد افتقرت البلاد إلى الاستقرار السياسي في ظل هذا النظام ولم تختفي نزعات الثورة وأطماع القادة للفوز بالعرش ، وقد ظهر ذلك جلياً منذ عام ٣٠٦م ولذلك رأى أن يدخل مبدأ الحكم الوراثي بأن جعل انتقال العرش وراثيا لأسرته من بعده مستنداً في ذلك إلى دعم الجيش وتأييد أنصاره المسيحيين[٢] .

وكان قسطنطين موفقاً إلى حد ما أكثر من سلفه دقلديانوس في إصلاحاته السياسية والإدارية ، وعلى الرغم من كل ذلك فإن الحكومة الرومانية على زمن قسطنطين كانت حكومة مطلقة على رأسها إمبراطور استمد قوته من الجيش وشبكة كبيرة من المساعدين والموظفين التابعين له في كافة الولايات ، بالإضافة إلى اعتماده على دعم المسيحيين الذين كانوا يشكلون ربع السكان في هذه الفترة تقريباً ، وأحاط قسطنطين نفسه بعظمة ملوك الشرق فعلى رأسه التاج وتوارى عن أنظار الناس ولم يجرؤ أحد على القيام بين يديه إلا وهو متهيب مطرق الرأس ، وجمع في يديه كل السلطات المدنية والعسكرية والدينية وأصبحت أوامره بمثابة تشريعات واجبة النفاذ وأصبح خاصة بعد اعترافه بالمسيحية رئيساً لرجال الدين المسيحيين وحبراً من أحبارهم هو الذي يستطيع دعوتهم للاجتماع ويشرف على كل ما يصدرونه من قرارات ويرأس كل المجامع الدينية التي دعا إليها ، ولم يكن لأي مؤسسة أخرى أي دور فعّال في صناعة القرار ، فمع أن

(١) أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٢٦٢ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص ص١٧ . ١٨ .

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٢٣ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، مرجع سابق ص٢٧.

قسطنطين أحضر بعض الشيوخ الكبار وأعضاء السناتو للإقامة في القسطنطينية عاصمته الجديدة إلا إنه لم يكن لمجلسهم إلا مهمة تجميلية وذلك ليصبغ قراراته بصبغة دستورية[١].

ثانيا : الإصلاحات العسكرية .

نظراً لما كان للجيش من أهمية كبرى عند قسطنطين والذي بفضله استطاع الانتصار على أعدائه والانفراد بحكم الإمبراطورية ، وحتى بعد إزاحة أعدائه فقد استمر في الاعتماد على الجيش والاستناد إليه في الحكم ، ولذلك كان حريصاً على إعداد جيش قوي وفر له من الإمكانات ما يستطيع به دحر أي تهديد خارجي خاصة وإن الإمبراطورية في هذا الوقت كانت مهددة من قبل الجرمان والفرس ، بالإضافة إلى حفظ الأمن والاستقرار الداخلي للإمبراطورية والحيلولة دون حدوث ثورات ترجع بالإمبراطورية إلى هاوية الحروب الأهلية ، وبالتالي يلاحظ أن قسطنطين قد اتخذ العديد من الإجراءات العسكرية والتي من شأنها أن تزيد من جاهزية الجيش ، فقد استمر على نهج سلفه دقلديانوس في زيادة الفرق العسكرية حتى بلغت على زمنه ١٢٢ فرقة وكذلك زاد من أعداد الجرمان في جيوشه[٢] ، وكذلك عمل على التقليل من أعداد الجيوش المرابطة على حدود الإمبراطورية ونقل أعداد كبيرة منها إلى الجيوش المتحركة والتي كانت مهمتها الانتقال لأي منطقة توتر على حدود البلاد والوقوف في وجه أي غزو جرماني وصده ، وأصبحت مهمة الجيوش الحدودية التي قام بإنقاص أعدادها هي محاولة تعطيل زحف الغزاة وإشغالهم إلى حين وصول الفرق المتنقلة الكبيرة .

وقام قسطنطين بوضع قائدين منفصلين للجيش يسميان رئيسين (Magistrii) أحدهما قائداً للمشاة (Magister Peditum) والآخر للفرسان (Magister Equitum) وهو تقسيم ابتدعه قسطنطين يبدو أن الهدف منه خشيته من أطماع قادة الجيش في السلطة ، وزاد قسطنطين من أعداد العناصر الجرمانية في الجيش حتى أضحت العناصر الجرمانية تؤلف صفوة الجيش

---

(١) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٦٦ .

(٢) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٢٨ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p 310.

الروماني وقوته الضاربة ، فتقاس قوة الجيش ومكانته العسكرية على ما فيه من العناصر المتبربرة[١].

وكان الجيش الروماني في زمن قسطنطين مقسماً إلى ثلاثة أقسام ، قوة مرابطة على الحدود وقوتين متحركتين ، وكانت القوات المتحركة تحت إمرة الإمبراطور مباشرة ، وتدعى إحداها باسم جماعة الرفقاء والأخرى تدعى جماعة البلاط[٢] ، وكان قسطنطين قد ألغى الحرس البريتوري وذلك عند انتصاره على مكسنتيوس ودخوله روما سنة ٣١٢م واستبدله بفرقة أخرى مهمتها حماية الإمبراطور أطلق عليها اسم مريدي الإمبراطور ، كما إن قسطنطين كان قد فصل السلطة المدنية عن العسكرية وأصبحت مهمة قائد الجيش تتعلق بالنواحي العسكرية فقط بينما أضحت السلطات المدنية في يد الوالي والذي كان من ضمن اهتماماته أيضا الإشراف على التجنيد والخدمة العسكرية وبناء الاستحكامات العسكرية على الحدود وتموين الجنود على الخطوط الأمامية[٣].

كذلك أولى اهتماماً كبيراً بجبهة الدانوب فأقام نظاماً دفاعياً محكماً فيها وشيد العديد من الحصون والقلاع والأسوار على الحدود لتقف سدا أمام توغل المغيرين الجرمان في أراضي الإمبراطورية[٤] ، واستخدم قسطنطين القوات المدربة على الأسلحة الخاصة وبشكل كبير مثل رماة السهام والمقاليع والرماحون والفرسان ذوو الدروع الثقيلة ووالحفارون والمتسللون والمنجنيقات الكبيرة ، كما اهتم قسطنطين بالأساطيل البحرية التي كانت ترابط على سواحل بريطانيا والبحر الأسود وموريتانيا بالإضافة إلى القطع البحرية النهرية كما أنشأ محطات لصيانة هذا الأسطول[٥].

ثالثا : الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية .

1- إصلاح نظام النقد .

---

(١) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٥٢ .

(٢) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٦٨ .

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩٧ .

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٦٦ .

(٥) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص٥٨ ؛ تشارلز وورث ، مرجع سابق ، ص٢٢٢ .

لقد حاول قسطنطين إصلاح نظام النقد وتثبيت قيمة العملة وذلك بقيامه بعدة أعمال في هذا المجال ، فلم تلبث قيمة العملة الرومانية أن انخفضت بعد اعتزال دقلديانوس وعند انقسام الإمبراطورية بين ليكينيوس وقسطنطين حدث اختلاف نقدي بين شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي فبينما استمر التداول في الشطر الشرقي على العملة التي أصدرها دقلديانوس عمل قسطنطين على إصدار عملة جديدة أسماها المليارنس (Miliarense) ، وهي تعادل جزء من الألف من رطل الذهب الروماني[1]، وقد ساعدت هذه العملة على نهضة التجارة والتعامل داخل الإمبراطورية ، كما عمل كذلك على تثبيت قيمة الصولد (العملة التي أصدرها دقلديانوس) وجعل وزنه واحد على ثلاثة وسبعون من رطل الذهب ، كما حل مكان النقد الفضي نقد آخر يساوي واحد على أربعة وعشرين من الصولد ، وأحل نقد برنزي مكان ثلاث عملات برنزية كانت متداولة على زمن دقلديانوس[2].

واحتاط قسطنطين لانخفاض قيمة عملته بأن وفر لها كميات كبيرة من المعادن النفيسة التي أتى بها من أرمينيا وكذلك من الحلي والذهب الذي استولى عليه من المعابد الوثنية التي تم إغلاقها ، ولذلك فقد نالت عملة قسطنطين شهرة وسمعة ممتازة وحازت على رضا الأوساط التجارية والمالية في الإمبراطورية [3].

ورأى قسطنطين أن سيطرة الدولة على نظام النقد هي أهم عوامل استقراره ولذلك سيطر على كل دور سك العملة وأصبحت كلها ملكاً للدولة في جميع أنحاء الإمبراطورية واختفت بذلك الصعوبات التي كانت تواجه نظام النقد في الفترات السابقة ، ووفرت للإمبراطورية الكميات اللازمة من النقود دون حاجة لنفقات نقلها[4].

٢- نظام الضرائب .

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩٩ .

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٦٢ .

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٢٤ ؛ السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٦٢ .

(٤) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٦٢ .

كان دقلديانوس قد وضع نظاما ضريبيا على الأرض بأن قسم الأراضي الزراعية حسب نوعية المحاصيل إلى وحدات متساوية من أجل تقدير الضريبة عليها ، فكانت الضريبة تقدر بمساحة الأرض والعمل الذي يقام عليها ، وعندما جاء قسطنطين استمر على نهج سلفه ولكنه لجأ لزيادة الضرائب نتيجة لزيادة نفقات الإمبراطورية وأعباء الحكومة ونفقات الجيش فضاعف من قيمة الضرائب النوعية ، وتأثر هذا التقدير بحسب حاجات الإمبراطورية واختلف من منطقة إلى أخرى وارتبط بتحركات الجيش ، إذ ترتفع الضرائب في المنطقة التي يتواجد فيها وإذا كانت الضرائب لا تغطي نفقات الإمبراطورية كان يعمد إلى زيادتها بقرار إمبراطوري ، مما يترتب عليه إرهاق كاهل الفلاحين الصغار الذين لم يكن لديهم من الأرض ما يكفي لتسديد تلك الضريبة[١].

وفرض قسطنطين ضرائب نوعية على أصحاب الحرف بالنقد الذهبي تدفع كل خمس سنوات ، وتعسف ولاته في جباية تلك الضرائب مما اضطر أصحاب الحرف إلى الهروب إلى حرف أخرى ، ولكن قسطنطين أصدر مرسوماً يجعل الحرف وراثية ، وفرض عقوبات شديدة على من يخالف ذلك[٢] ، وترتب على نظام الضرائب الذي وضعه دقلديانوس وتطور على زمن قسطنطين تقسيم المجتمع إلى طبقات كل طبقة مسؤولة عن خدمة معينة تقدمها للدولة فالسناتور والقن (الفلاح) كلاهما يؤدي واجباً عامة للدولة لها الأولوية حتى على واجباته واحتياجاته ومصالحه الخاصة[٣].

وقد انتشرت عادة سيئة بين ولايات الإمبراطورية وخاصة إيطاليا كانت من جراء زيادة الضرائب وهي تعرض الأطفال الصغار للموت أو القتل ، وذلك بسبب عدم قدرة آباءهم على دفع الضرائب المفروضة عليهم حتى لا يستطيعون معها إطعامهم فاعتبر الآباء أنه من الحنان أن يخلصوا أطفالهم مما ينتظرهم من البؤس والفاقة التي لم يستطع الآباء احتمالها ، وحرك هذا العمل نفس قسطنطين ودفعه إلى إصدار أمر عاجل إلى حكام ولاياته الغنية لتقديم معونة عاجلة ، وسد

---

(١) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٦٥ .

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٦٦ وتاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٢٥ .

(٣) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٦٦ .

حاجة أولئك الآباء الذين لا يجدون ما يطعمون به أولادهم حتى لايضطروا إلى قتلهم ، ولكن هذا القانون لم يفلح في تخفيف معاناة الناس من قسوة تلك الضرائب[١].

٣- ظهور نظام الإقطاع[٢] وأقنان[٣] الأرض والطبقات الاجتماعية .

هناك ثلاثة أمور أوردها الباحثون ترتبت على إصلاحات قسطنطين وهي التي أظهرت ملامح المجتمع الأوربي في العصور الوسطى وهي : الإقطاع ونظام عبودية الفلاحين (الأقنان) ، وظهور النقابات الحرفية والمهنية[٤]. ومن المعلوم أن الإمبراطور كراكلا (٢١١ . ٢١٧م) كان قد منح سنة ٢١٢م الحقوق المدنية كاملة لكافة سكان الإمبراطورية إلا إن هذا لم يقض على الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين السكان ، وبقى المجتمع الروماني يتشكل من مستويات اجتماعية مختلفة شرفاء ووضعاء* وجنود وفرسان وشيوخ ، وهؤلاء لا تنالهم شدة القانون في العقوبات ، والبقية الباقية وهم الأكثرية الساحقة في المجتمع الروماني تخضع لكل ما جاء في القانون من قسوة[٥].

---

(١) ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٢٢٧ .

(٢) إن لفظ الإقطاع لم يستخدم في اللغتين الإنجليزية والفرنسية وفي غيرها من اللغات الأوربية الحديثة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عندما وجّهت الثورة الفرنسية ١٨٧٩م اهتمام العلماء والباحثين إلى دراسة الأنظمة القديمة ، ومن ذلك الوقت أصبحت كلمات الإقطاع والنظام الإقطاعي والقن والمانور والدومين وما شابهها لها مكانها في القواميس ، وأصبحت تدخل في ضمن المصطلحات التي استخدمها الكتاب والباحثون المحدثون ، وهذه التعبيرات تكون مناسبة عندما نتحدث عن العلاقة بين الأفراد في القرون الوسطى : ج . ج . كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ت. جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١م ، ص٣٩ .

(٣) يتصل هذا اللفظ كذلك بالنظام الإقطاعي الذي ساد أوربا في القرون الوسطى ، وهو يرتبط بالأرض والعلاقة بين السيد والمسود ، والقن هو عبارة عن فلاح يعيش على قطعة صغيرة من الأرض يمنحها له سيده اللورد صاحب الدومين ، وهو مرتبط بهذه الأرض ارتباطاً وثيقا بموجب واجبات التبعية لسيده ، ويتعهد التابع لسيده المتبوع بالقيام بواجباته الإقطاعية بعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء حيث يتعهد بطاعة سيده والدفاع عنه وتلبية أوامره والقتال في صفوفه ضد أعدائه فضلاً عن الالتزامات والواجبات المقررة على الفلاح الصغير : . ل. م . هارتمان و ج . باركلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ت. جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١م ، ص٩٤ .

(٤) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩٩ .

* وهو لفظ يوناني معناه الدرع (Cataphracti) .

(٥) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٦٩ .

وكان من نتائج الحروب الأهلية والغزو البربري لحدود الإمبراطورية ، ونقص السكان بسبب انتشار الأوبئة ، والأمراض الفتاكة ، والمجاعات التي نفق بسببها كثير من الناس أن استغلت كل طبقة من طبقات المجتمع هذه الأمور وترتب عليها ازدياد نفوذ بعض أعضاء الطبقة السناتورية وكبار الموظفين فيها ، وأخذوا يستولون على مساحات كبيرة من الأراضي التي تخلى عنها أصحابها للأسباب السابقة ، وزاد من إقبال هذه الطبقة على شراء الأرض وضمها إلى أراضيهم حتى كونوا إقطاعيات كبيرة ، وظهر نظام الإقطاع الذي عرف في العصور الوسطى ، واختفى بذلك الفلاحون أصحاب الأرض الأصليين ليتحولوا إلى عبيد وأقنان في تلك الأراضي ، وفي كثير من الأحيان كان أصحاب الأراضي يسلمون أراضيهم عن رضىً منهم إلى الإقطاعي ليزرعها مقابل حمايتهم من الأخطار وغزوات البرابرة وجور جباة الضرائب ، حتى تحول الإقطاعيون إلى ملاك كبار تعدل مساحة إقطاعياتهم مساحة مدينة كاملة أحيانا ، وقد حاول قسطنطين ومن جاء بعده إيقاف انتشار هذه الظاهرة باتخاذ خطوات تشريعية ، ولكنه لم يوفق في ذلك أو ربما إنه لم يكن جاداً في ذلك بسبب حاجة الأباطرة للأموال التي كانوا يحصلون عليها من أصحاب هذه الإقطاعيات[١].

أما سكان المدن فلم يكن حالهم بأفضل من الفلاحين فقد فرضت عليهم ضرائب مهنية باهظة كل خمس سنوات ، هذا عدا الضرائب التي كانت تفرض فجأةً على حرفهم وأعمالهم مما اضطرهم إلى التخلي عن حرفهم والبحث عن مصادر عيش أخرى ، ولكن قسطنطين أصدر عام ٣١٤م مرسوم يقضي بأن يرث الابن مهنة أبيه وفرض عضوية النقابة على أبناء الطائفة الحرفية الواحدة ، وأصبحت الحكومة تتحكم عن طريق الجمعيات والهيئات أو النقابات في المواطنين ، وطبق ذلك على العاملين في السفن وأصحاب المهن الأخرى مثل الخبازين والنجارين والبنائين وسائر الطوائف حتى مهنة الجندية ، وكانت هذه النظم التي ظهرت ملامحها في عهد قسطنطين هي السمة البارزة للإمبراطورية البيزنطية فيما بعد[٢].

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠١ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠٢ .

وسرى هذا الوضع على التجارة التي أصبحت مقيدة بقيود كثيرة وتحولت النقابات التجارية إلى منظمات مغلقة على أصحابها يتوارثونها فيما بينهم بسبب نظام توريث المهن الذي فرضه قسطنطين ، كما فرض على التجارة خدمات والتزامات مالية ساهمت في تردئ أحوالها ، وهكذا فقد الكثير من السكان حريتهم ونزلوا إلى رتبة العبودية ، ووقع قسطنطين في نفس الخطأ الذي وقع فيه دقلديانوس عندما غض الطرف عن أصحاب رؤوس الأموال والثروات الكبرى ، بينما أثقل كاهل أصحاب الثروات الصغرى بالضرائب مما زاد الأغنياء غنىً وزاد الفقراء فقراً ، ولهذا لم ينجح قسطنطين في إصلاح الأحوال الاقتصادية إصلاح تام[١] .

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٢٩ .

المبحث الثالث : الاتجاه نحو الشرق وبناء القسطنطينية .

أولاً : تراجع مركز روما .

ثانياً: أسباب بناء القسطنطينية .

ثالثا: اختيار موقع القسطنطينية .

رابعاً: بداية بناء القسطنطينية .

خامساً: نتائج بناء القسطنطينية .

أولا: تراجع مركز روما .

لم يكن قسطنطين أول الأباطرة الرومان الذين يديرون ظهورهم لروما ويتجهون نحو الشرق ، فلم تعد روما المدينة الأولى منذ زمن دقلديانوس الذي كان قد اتخذ عاصمة له في الشرق وترك روما لشريكه مكسيميان ، وكان باستطاعة دقلديانوس أن يتخذ روما مركزاً لحكمه لكن يبدو أن هناك أحداث استجدت على ساحة الإمبراطورية جعلت الساسة الرومان يتركون مدينتهم ورمز حضارتهم إلى مكان آخر[١] ، فبعد أكثر من عشرة قرون كانت فيها روما مركزا للحضارة الرومانية ورمز تفوقها حتى اخذوا اسمهم من هذه المدينة (روما) والتي استطاعت بفضل قوة جيوشها وتأثيرها الحضاري أن تقود العالم الروماني وتصل به إلى مكانة سياسية واتساع في رقعته الجغرافية لا تضاهيه أي قوة أخرى في العالم القديم ، لكن ومع بداية القرن الأول الميلادي ودخول أمم ومراكز ذات حضارات أقدم وأعرق من الرومان ونعني بها بلاد الإغريق والحضارات الشرقية (الشام ومصر) لم يستطع التأثير الروماني أن يستوعب تلك الحضارات ويصبغها بالصبغة الرومانية ويسيرها في فلكه[٢] ، ولكن الذي حصل كان عكس ذلك تماماً إذ بدأ تأثير روما الحضاري يقل تدريجياً ليحل مكانه التأثير الشرقي والإغريقي ورغم تبعية هذه المناطق سياسياً لروما لكن ذلك لم يقلل من إشعاع حضارتها ولغتها ، وزاد من تأثير الشرق على روما خروج المسيح وانتشار دعوته في الشرق وبدأ هذا الحدث يوجه أنظار العالم الروماني نحو الشرق كمركز لإشباع وسد الفراغ الروحي الذي كانوا يعانون منه بعد إفلاس ديانات الرومان الوثنية وقصورها عن سد حاجات الناس الروحية ، أما عن اللغة فقد بدأت اللغة الإغريقية تظهر كلغة للحضارة ، فهي لغة الفلاسفة والكتاب والشعراء والخطباء مع إن اللاتينية كانت هي لغة الدولة الرسمية ، أما النواحي الاقتصادية فقد شهد القرن الثالث الميلادي تدهوراً اقتصادياً كبيراً للإمبراطورية الرومانية في جزءها الغربي مقارنة بالنصف الشرقي ، وخاصة خلال النصف الثاني

---

(١) ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص٣٤٦ ؛ تشارلز وورث ، مرجع سابق ، ص٢٠١ ؛ أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، مرجع سابق ، ص٥٨٣ .

(٢) اسماعيل نوري الربيعي ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى دراسة في توزيع القوى السياسية ، دار شموع الثقافة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١م ، ص٢٠ ؛ تشارلز وورث ، مرجع سابق ، ص٢٠١ .

من هذا القرن بسبب انتشار الحروب الأهلية والتنافس على السلطة ، وازداد الأمر سوءاً بازدياد هجمات البرابرة على حدود الإمبراطورية الشمالية والشمالية الغربية ، هذا فضلاً على النقص الذي كان حاصلاً في الموارد الاقتصادية ، وكذلك الاستنزاف الذي حدث لعدد السكان بسبب الأمراض والأوبئة والحروب الداخلية ، هذا في الوقت الذي كانت تشهد فيه الولايات الشرقية وفرة في الموارد الاقتصادية ووفرة أيضا في أعداد السكان ، وبسبب ذلك ونتيجة لكل ذلك اتجهت الأنظار نحو الشرق كمركز للثقل الحضاري والاقتصادي والديني والاجتماعي في الإمبراطورية ، ولذلك اتخذ دقلديانوس عاصمة له في الشرق هي نيوقوميديا وظل بها طوال فترة حكمه[١] ، واستمرت مراكز الشرق في قيادة الإمبراطورية الرومانية في فترات الحكم الرباعي حتى عهد قسطنطين الذي وإن كان قد قضى أكثر من نصف مدة حكمه في الغرب حيث كان مركزه في غالة لكنه بمجرد أن قضى على خصومه وأصبح الإمبراطور الوحيد انتقل مباشرة نحو الشرق ولم يعد إلى الغرب مرة أخرى ، وعمل على إقامة حاضرة لقيادة الإمبراطورية في الشرق يكون فيها قريباً من أنصاره المسيحيين باعتبار أن غالبية المسيحيين كانوا في الشرق موطن ديانتهم ، وتكون عاصمته الجديدة كذلك في مأمن من غارات البرابرة لبعدها عنهم ، وبالفعل كانت هذه العاصمة الجديدة فاصلاً بين الإمبراطورية الرومانية الوثنية والإمبراطورية البيزنطية المسيحية نسبة إلى العاصمة الجديدة ، وهي كذلك تعد على رأي كثير من الباحثين فاصلاً بين مرحلتين من مراحل العصور التاريخية القديمة والوسطى[٢].

إن الحدث الثاني الذي فعله قسطنطين بعد اعترافه بالمسيحية ونال به شهرة كبيرة هو بناءه عاصمة جديدة في النصف الشرقي من الإمبراطورية ، فقد أخذ مركز روما يفقد أهميته كعاصمة للإمبراطورية ، وأصبحت هناك حاجة لوجود مدينة جديدة ، فبدأ ثقل الإمبراطورية ينتقل نحو الشرق ، ولم تعد العاصمة القديمة والتي ظلت لعدة قرون عاصمة للإمبراطورية الرومانية وجاءت

---

(١) هسي ، مرجع سابق ، ص ص ٧٢ . ٧٤ ؛ سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢١ .

(٢). Michael Grant, Op. Cit , p 310;
سانت موس ، مرجع سابق ، ص٢٨ ؛ فشر ، مرجع سابق ، ص١٠ ؛ محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص٤٦ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٢.١١ .

منها اللغة اللاتينية والقوانين التي انتشرت في العالم الروماني(١)، وكما هو مُشار إليه سابقا فإن قسطنطين لم يكن هو أول إمبراطور يولي دُبره نحو روما بل سبقه بذلك أباطرة القرن الثالث وآخرهم دقلديانوس الذي يرجع إليه الفضل في نقل العاصمة نحو الشرق فمع توسع الفتوح تقلصت سيادة روما وارتفعت الولايات الأخرى إلى نفس المستوى ، وكانت هناك عدة مدن نافست روما على السيادة داخل إيطاليا وخارجها(٢) ومنها (Mediolanum مدينة ميلانو الحالية) فقد استقر بلاط الإمبراطور الروماني في الغرب فيها في فترة الحكومة الرباعية ، والتي كان لموقعها تحت سفوح جبال الألب أهمية كبيرة فقام الإمبراطور مكسيميان بإنشاء الدور في المدينة وأنشأ فيها دار لسك النقود وبنى فيها الكثير من المرافق العامة ، واتخذ الإمبراطور دقلديانوس من نيقوميديا في الشرق عاصمة له ، حيث استغل دقلديانوس ثروة الشرق في تجميل هذه المدينة حتى بلغت درجة كبيرة من الفخامة ، وعندما اعتلى قسطنطين العرش فكر في اتخاذ عاصمة جديدة للإمبراطورية ، فاتخذ من مدينة ترير   (أوجستا تريفيروروم Augusta Trevirorum تريف الحالية) عاصمة له وبنى فيها حمامات كبيرة قادرة على خدمة عدة آلاف ، وتنافس تلك التي في روما(٣)، وأدرك قسطنطين أن التقسيم الرباعي الذي وضعه دقلديانوس قد استنفذ أغراضه ، وأنه ينبغي أن يكون هناك إمبراطور واحد وعاصمة واحدة بدل من أربعة أباطرة لكل منهم عاصمته ، ورأى أن روما القديمة بموقعها البعيد على ضفاف التيبر أصبحت عاجزة على أن تدفع بقواتها بسرعة لإنقاذ أقاليم الحدود ، وأن هذه العاصمة الجديدة يجب أن تكون في موقع استراتيجي يفي بمقتضيات العصر واحتياجاته(٤).

ثانياً: أسباب بناء القسطنطينية .

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 310.

(٢) هسي ، مرجع سابق ، ص٧٣ .

(٣). Constantine I, Op. Cir.

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، الدولة البيزنطية ، ص٤٧ .

لقد كثر النقاش حول الأسباب التي دعت قسطنطين إلى بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق ، فإن جهود قسطنطين طوال العشرين سنة الأولى من حكمه لم يستطع فيها تحويل الأرستقراطية الرومانية إلى المسيحية ، فقد ظلت هذه الطبقة على ولاءها للآلهة القديمة ، وشعر بأنه ليس قويا بالقدر الذي يكفي لإجبار الأرستقراطية القديمة على الدخول في حضيرة الكنيسة ، واستمرت هذه الطبقة بالتمتع بالثروة والسلطان في الغرب وخشي قسطنطين من تزايد نفوذها خاصة وأنها تكون غالبية الطبقة الحاكمة في روما مركز ثقل الإمبراطورية ، فرأى أن يسحب البساط من تحت أرجلها وذلك ببناء حاضرة جديدة للإمبراطورية في الشرق حيث يكثر مناصروه ، ويبتعد كذلك عن روما بتقاليدها الجمهورية حتى وأن كانت مجرد شبح للماضي [١].

وكان إنشاء العاصمة الجديدة تبعا لتغير الثقل الاجتماعي المتمثل في عدد السكان والاقتصادي المتمثل في الثروات الطبيعية والزراعية ، والثقافي المتمثل في اللغة والدين ، إلى الشرق الذي احتفظت ولاياته بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي مبالغ كبيرة من المال لخزينة الدولة تفوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية ، وكذلك فإن ولايات البلقان كانت تقدم أفضل الرجال للجيش الروماني ، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الديانة المسيحية والتي زادت من أهمية الشرق وتفوقه على الغرب خاصة بعدما اتخذها قسطنطين هادياً ونصيراً فكان من الأنسب أن تكون العاصمة في الشرق ، وربما أراد قسطنطين أن تكون عاصمته الجديدة بين ظهراني مناصريه المسيحيين الذين كانت لهم اليد الطولى في نصف الإمبراطورية الشرقي[٢].

وارتبطت أسباب إنشاء القسطنطينية بعوامل سقوط روما ، فقد تعرض العالم الروماني لأزمات هدت كيانه وقوضت بنيانه ، فدخل الفساد كل نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية والدينية ، وعاث الجرمان فساداً على حدود الدانوب والراين بينما أخذ الفرس الساسانيون يتقدمون في الشرق ، وبدأ المجتمع الروماني مهدداً بالتفكك والانهيار من الداخل والخارج ، مما كان له اكبر الأثر في التفكير في نقل العاصمة من روما ، وإنشاء عاصمة جديدة تكون بمثابة روما ثانية ، وأدرك قسطنطين أن الخطر الرئيسي الذي يهدد الإمبراطورية يأتي

---

(١) كانتور ، مرجع سابق ، ص٧٥ ؛ هسي ، مرجع سابق ، ص٧٣ .

(٢) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٣ .

من جهة الشرق ، ومن القبائل المتبربرة الضاربة في ما وراء الدانوب ولذلك ينبغي أن يكون هناك موضع صالح للدفاع عن البلقان ، ويصبح قادراً على إنقاذ الإمبراطورية من أشد الأخطار المحدقة بها ، ورأى أنه من الضروري أن تكون العاصمة الجديدة قريبة من حدود المنطقة الرومانية الفاصلة بين آسيا وأوربا ، بين البحر الأسود بهذه الأراضي الفسيحة التي تمتد وراء شطآنه ، والبحرين الإيجي والمتوسط مفتاحي الطرق إلى الشرقين الأوسط والاقصى[١]، حتى أن أحد المؤرخين يقول عن هذا المكان أنه يصلح لأن يكون عاصمة عالمية ، فلو أمكن إقامة مملكة عامة شاملة للعالم كله لكان هذا الموقع أنسب المراكز لهذه الغاية[٢].

كما لا يخلو الأمر من دوافع شخصية من الاعتزاز بالنفس ، فأراد قسطنطين أن يبني مدينة جديدة على غرار ما فعل رومولوس (Romolus) الذي أنشأ روما ، والإسكندر المقدوني منشئ الاسكندرية[٣].

ثالثاً: اختيار موقع القسطنطينية .

عندما بدأ قسطنطين يفكر في الموقع الذي سيكون مقراً لحكمه الجديد أخذ يقلب النظر في كثير من المدن ، قبل أن يهديه تفكيره إلى موقع بيزنطة* ، فنظر أولا إلى مسقط رأسه مدينة نيش (Nis) في صربيا الواقعة على نهر مورافيا (Moravia) شمال البلقان لكنه تخلى عنها لأن خطوط المواصلات إليها عسيرة ، ثم فكر في مدينة سرديكا (Sardica) (صوفيا الحالية) ، وسالونيك (Thessalonica) ، وتراءت له طروادة الشهيرة بحجة انحدار الشعب الروماني منها ، وكذلك نيقوميديا التي اتخذها دقلديانوس عاصمة ، لكنه كان يرغب في موقع بين أوربا وآسيا

---

(١) فشر ، مرجع سابق ، ص١٠ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، الدولة البيزنطية ، ص٤٦ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص١١ .

(٢) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٢٨ .

(٣) فشر ، مرجع سابق ، ص١٠ .

* النطق الأصلي لاسم المدينة هو بوزنطيا وقد أكدته بعض المصادر العربية وكتب الرحالة ، مثل أبي الحسن علي ابن الحسين علي المسعودي ، المتوفي سنة ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول)، تحقيق مصطفى السيد بن أبي ليلى ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ٢٠٠٣م ، ص٢٨١ . أما اسم بيزنطة فهو الاسم المنقول عن الترجمات من اللغات الأوربية الحديثة وهو الاسم الذي شاع استخدامه عند الباحثين : سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص١١ .

يستطيع أن يضرب منه القبائل البربرية على الدانوب ويراقب تحركات الفرس[١]، ورغب قسطنطين أن يكون موقع مدينته في مركز خطوط المواصلات على الطريق الذي يربط بين الحدود الشرقية والشمالية الغربية ولفت نظره ذلك الموقع الذي تحتله بيزنطة (Byzantium) المدينة التجارية الإغريقية القديمة التي تقع على بحر مرمرة ، وتشرف على المنطقة التي تفصل بين أوربا وآسيا[٢].

وكان سبب اختيار هذه المدينة هو موقعها الاستراتيجي فهي تقع على شريط غائر في البحر على شكل مثلث على خليج البسفور ، وتحدها المياه من ضلعيها حيث تتكفل بحمايتها من جهتي الشمال والجنوب ، ويحميها من جهة البر سور قوي لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة[٣]، ولها ميناء طويل طبيعي مقوس في الشمال الغربي يمكن إغلاقه بسهولة ساعة الخطر فلا يستطيع دخوله أحد ، عرف باسم القرن الذهبي لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال ولفظ ذهبي يعود إلى الثروة التي تتدفق على المدينة من أقصى الأرض إلى ثغر المدينة الواسع والآمن ، ولأن ميناء المدينة كان واسعاً ومناسباً جداً للشحن والتفريغ حيث يقل حدوث المد والجزر، وأعطت الطبيعة هذه المدينة موقعاً تجارياً ممتازاً فكانت ملتقى التجارة العالمية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فمنها تتفرع طرق التجارة الرئيسية إلى الشرق الأوسط وآسيا الصغرى وإلى البلقان وأوربا الغربية ، كما كانت أسواق المدينة عامرة بكل ما يخطر على بال من فراء الشمال البارد ، وتوابل الهند الاستوائية ، وعطور الشرق الساحرة ، وخمور البحر المتوسط المشهورة ، وما زاد من أهميتها هو مُناخها المعتدل فليس هو شديد الحرارة صيفاً ولا شديد البرودة شتاءاً ، كما كانت تشبه مدينة روما إذ تحيط بها تلال سبعة[٤].

---

(١) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٤٦ ؛ إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٤ ؛ هسي ، مرجع سابق ، ص٧٤ .

(٢) تشارلز وورث ، مرجع سابق ، ص٢١٠ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p 310

(٣) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٤٧ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ص٣١.

(٤) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠٣ .

واشتهرت بيزنطة بزراعة القمح والكروم وصيد الأسماك ، وكانت تجارة أوربا تصل إليها لتقوم المدينة بتسويق هذه التجارة في المستوطنات الإغريقية الأخرى فتجني منها أرباحا طائلة ، بالإضافة إلى المكوس التي تفرضها على السفن التجارية التي تمر عبر البحر الأسود والتي كانت تتحكم في مدخله(١).

وكانت بيزنطة مستعمرة إغريقية قديمة أسسها جماعة من المهاجرين الإغريق قدموا من مدينة صغيرة تدعى ميجارا(٢) (Megara) حوالي سنة ٦٦٧ق.م ، وقام المستوطنون بتحصين المدينة براً وبحراً ، وقد تنافست القوى السياسية المتعاقبة على الاستيلاء على هذه المدينة ، فقد طمع فيها الفرس والإغريق الأيونيون حيث تناوبوا على احتلالها ، ثم سيطر عليها الإغريق الإسبرطيون بعد طرد الفرس منها سنة ٤٨٧ق.م ثم تصارع عليها الإغريق الأثينيون واحتلوها من الإسبرطيين سنة ٤٠٧ق.م ، وبقيت تحت حكم أثينا حتى احتلال الاسكندر المقدوني لبلاد اليونان ، عند ذلك بقيت بيزنطة بعيدة عن دائرة الصراع حتى عام ٢٧٨ق.م عندما هاجمتها قبائل الغال ، وفي القرن الثاني قبل الميلاد بدأت العلاقة بين بيزنطة وروما حيث وقعت معاهدة صداقة بينهما ، أصبحت بيزنطة بمقتضاها قاعدة للجيوش الرومانية ، ونعمت بالأمن والرخاء تحت العلم الروماني(٣).

---

(١) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص١٣ .

(٢) تحكي أسطورة تأسيس هذه المدينة أن هؤلاء المستوطنون قبل أن يغادروا المدينة وكعادة المهاجرون الإغريق كان عليهم أن يستشيروا كاهنة معبد أبوللو في دلفي ، وكان الإغريق لا يستطيعون إقامة أي مستوطنة إلا إذا بارك هذا الرب عملهم ، فذهب قائدهم ويدعى بوزاس (Byzas) وهو الذي أخذت منه المدينة اسمها إلى دلفي وعرض عليها الأمر فأشارت إليه بأن يذهبوا ويستوطنوا الجانب الآخر من مدينة العميان ، وكانت تقصد مدينة خلقدونية على الجانب الآخر ناحية آسيا ، ولم يفهم بوزاس ماذا تقصد الكاهنة بمدينة العميان ، ولما وصل المستوطنون إلى موقع بيزنطة الذي كان على شكل مثلث بارز في البحر على ملتقى بحر مرمرة بالبسفور هناك أدركوا أهمية هذا الموقع ومزاياه الجغرافية ، ولما نظروا إلى الجانب الآخر عبر الشريط الضيق الذي كان يفصلهم عن آسيا حيث مدينة خلقدونية في منطقة وعرة فقيرة الإمكانات أدركوا لماذا أطلقت عليها الكاهنة مدينة العميان ، لان الذين أنشأوا هذه المدينة عميت أعينهم يوم أن جاءوا إليها وأقاموها ، بينما كان مكان بيزنطة المواجه لهم شاغراً بلا استيطان ، والملفت أن أسطورة إنشاء بيزنطة تشبه كثيراً أسطورة أنشاء قوريني في ليبيا ٦٣١ق.م فيبدو أن هذه الأسطورة كانت تصاحب إنشاء كل مستوطنة إغريقية جديدة : سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ص١٠ .

(٣) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص١١ .

وفي سنة ١٩٦م دخلها الإمبراطور الروماني سبتيميوس سيفيروس (١٩٢ . ٢١١م) وقام بتدميرها وسلبها امتيازاتها عند حدوث صراع بينه وبين أحد منافسيه الذي استخدمها مركزاً له ، ولم تكسب هذه المدينة أهمية عسكرية إلا في سنة ٣٢٣م عندما جعلها ليكينيوس مركزاً لحربه الفاشلة ضد قسطنطين الكبير ، عندها دخل جزء الإمبراطورية الشرقي تحت سيطرة قسطنطين بما فيه بيزنطة[١].

وربما يكون الدافع الذي جعل قسطنطين يختار هذه المدينة أبعد من الميزات الاستراتيجية والعسكرية والبحرية والتجارية ، فقد انتشرت المسيحية فيها بسرعة حتى أصبحت كنيستها رائدة لكنائس المجمع المسكوني ، فربما هذا جعلها في نظر قسطنطين المكان الذي يقيم عليه روما المسيحية المنافسة لروما الوثنية[٢].

وسواء أكان الدافع إليها هو أن الإمبراطور رأى أن سياسته الجديدة تجاه المسيحية لا يمكن أن تستقيم في روما الوثنية ، ففكر في إقامة عاصمة في الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان غير ذلك من الأسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، المهم أنه كانت هناك حاجة في ذلك الوقت لوجود مركز جديد يكون أكثر ملائمةً من النواحي الحربية والإدارية والدينية ، ويسهل الوصول إليه براً وبحراً ، ويكون مطلاً على أرض الدانوب ليكون قاعدة حصينة لرد هجمات البرابرة من الشمال ، ولا يبعد عن الشرق ، وليس أنسب من بيزنطة لهذه المهمة[٣].

رابعاً: بداية بناء القسطنطينية .

بدأ قسطنطين العمل في بناء مدينته التي تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ بعد انتصاره على ليكينيوس في نوفمبر سنة ٣٢٤م ، وهناك أسطورة تتحدث عن كيفية تخطيطه

---

(١) المرجع السابق ، ص ص١١ . ١٢ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص ص٣١.٣٢ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٥٠ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠٤ .

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٢٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٥١ .

لمدينة ، و قال أن ربه هو الذي أمره ببناء هذه المدينة عن طريق حلم رآه في نومه ، فرأى في منامه أن ربة المدينة قد جاءته في أبهى زينتها بعد أن أصبحت شابة ، وألبسها قسطنطين شعارات العظمة الإمبراطورية ، وعندما أفاق قسطنطين من نومه فسر ذلك بأنه أمر من الرب ببناء هذه المدينة ، وتقول أسطورة بناء المدينة أن قسطنطين سار على قدميه وحاشيته تلهث وراءه وبدأ يخط بحربته حدود مدينته ولم يقف قسطنطين حتى أدخل التلال السبعة في حدود مدينته ، وعندما ابتعد ميلين عن ساحل القرن الذهبي قال له رجاله لقد تجاوزنا الحدود التي تتطلبها المدينة ، فأجابهم بأنه لن يقف حتى يقف الدليل غير المرئي الذي يسير أمامه[١]، ويبدو أنه من الخير عدم التساؤل عن الدليل غير المنظور الذي يسير أمام قسطنطين! [٢]، فربما يكون هذا الأمر من تأليف المؤرخين المعجبين بشخصية قسطنطين ، أو إن قسطنطين أراد من هذه الرؤيا أن يكون لمدينته من تلك الأساطير المصاحبة لنشأة روما[٣] وتلك هي عادة الرومان منذ القديم إن أرادوا إنشاء مدينة جديدة أو مستعمرة فينسبونها إلى أمثال تلك المعجزات والأساطير ، ثم يحتفلون في افتتاحها بما تأمر به خوارق الطبيعة التي سببت بناءها[٤].

وهكذا اختار قسطنطين هذه المدينة التي قدر لها أن تكون عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية أو ما عرف بالبيزنطية وحصناً للحضارة الإغريقية المسيحية طيلة عشرة قرون ، فقد أصدر قسطنطين أوامره بالإسراع في بناء المدينة ووضع قائمة بالمنشآت والمرافق اللازمة ، وحرص أن تكون مرافق هذه المدينة صورة طبق الأصل لما موجود في روما وكل ما ارتبطت به روما من تقاليد قديمة حرص قسطنطين على نقلها للعاصمة الجديدة فصار لسكان القسطنطينية الحصول مجاناً على الخبز والنبيذ والزيت ومشاهدة الملاهي تقليداً لروما القديمة ، وجعل لها مجلس للشيوخ على غرار روما وأقام مبناه في وسط المدينة ، وأقام قصراً إمبراطورياً فخماً ، وساحة كبيرة لتكون مركز تجاري واجتماعي وثقافي ، كما أقام بها الملعب الكبير لسباق

---

(١) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٤ .

(٢) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا بيروت ١٩٨٤م ص٢٠ .

(٣) حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٣٢ ؛ إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٤.

(٤) عبد القادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص٢٠ .

الخيل الذي يعرف بالهبدوروم (Hippodrome) ، وأقام كافة المرافق الإدارية للحكومة المركزية ، وأنشأ منازل لاستقبال رجال البلاط وقادة الجيش وكبار الموظفين[١]، كما أقام فيها العديد من الكنائس والتي لا تزال شاهداً على روعة المعمار في هذه المدينة ، وأنشأ بها المحاكم والحمامات والمدارس والمكتبات ومعهد للعلوم والفنون يمكن تسميته جامعة ، واستخدم في بنائها نحو أربعين ألف من العمال ، وحشد لزخرفتها طاقات كافة الخبراء ، وأرسل إلى الولايات المختلفة لمده بالصناع ، وقدر ما أنفقه قسطنطين على الأسوار والأروقة وقناطر المياه بحوالي مليوني وخمسمائة ألف جنيه[٢] (خريطة رقم ٦).

وقام قسطنطين بسلب مدن الشرق من نفائسها واستخدمها في تزيين مدينته ، كما لم يتردد من اجل تجميل المدينة في سلب المعابد الوثنية القديمة من آيات الفن الجميل والإتيان بها إلى عاصمته ، حتى مدينة دلفي القديمة فقد نقل منها تمثال أبولو والمقعد الذهبي الذي تجلس عليه كاهنة أبولو ، ورأى قسطنطين أن روما الجديدة يجب أن يكون لها شعب روماني فجلب إليها جموعاً من سكان روما وأسكنهم فيها وأسماهم الشعب الروماني ، وشجع عدد كبير من سادة روما والأغنياء وأرباب الأموال وأعضاء مجلس الشيوخ على الهجرة والإقامة في المدينة الجديدة ، وأقبل الناس من كل أنحاء الإمبراطورية للإقامة في روما الجديدة والذين أغرتهم المشروعات الخيالية التي أقامها الإمبراطور أو وعد بتنفيذها ، وبمرور الزمن اتسعت المدينة حتى بلغ عدد القصور التي شيدت فيها الأربعمائة[٣] .

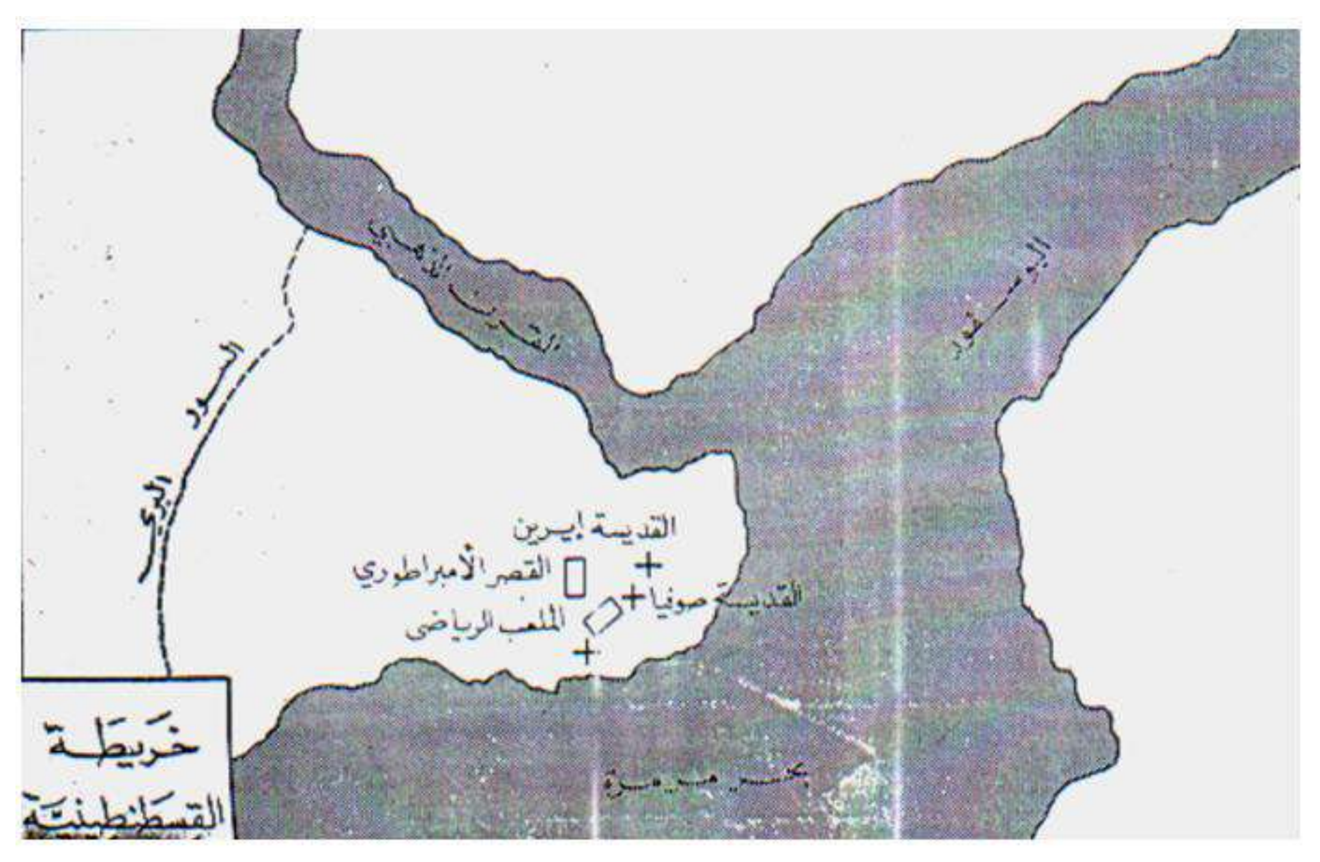
---

(١) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص١٤ ؛

Michael Grant, Op. Cit, p 310.

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص٦٣ ؛ عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص٢١ إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٤ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠٥ .

(٣) كانتور ، مرجع سابق ، ص٧٥ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٣١ ؛ عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص٢١ ؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ص٦٣ . ٦٤ ؛ Constantine I, Op. Cit.



خريطة رقم (٦) : عبدالقادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية

وأقام الإمبراطور ورجال بلاطه وكبار موظفيه في العاصمة الجديدة بعد تدشينها الذي تم في ١١ مايو ٣٣٠م وقد احتفل بتدشينها طوال أربعين يوماً امتزجت في هذه الاحتفالات الطقوس الوثنية والطقوس المسيحية ، وبارك الأساقفة المسيحيون القصر الإمبراطوري وأقاموا الصلاة في كنيسة سانت صوفيا ، وفي يوم الاحتفال أصدر قسطنطين مرسوماً إمبراطورياً يخلع على المدينة اسم روما الجديدة ، ولكن الناس أطلقوا عليها اسم القسطنطينية تيمنا باسم بانيها ، وكان سكانها يعرفون باسم الروم تمييزا لهم عن الرومان ، واختفت بذلك ملامح بيزنطة القديمة[١].

خامساً: نتائج بناء القسطنطينية .

لقد أراد قسطنطين لهذه المدينة الجديدة أن تكون مدينة مسيحية لاتينية فنهضت مسيحية وظلت كذلك ولكن لاتينيتها لم تلبث أن فقدتها بسرعة ، وامتزجت في هذه المدينة التراث والحضارة

(١) جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٥٣ ، سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص١٤ وتاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٦٠٥ .

الإغريقية والديانة المسيحية ، فقد أقيمت هذه المدينة في منطقة تتحدث الإغريقية ، وبذلك تكونت فيها حضارة جديدة ظهرت من تفاعل ثلاثة عناصر هي اللاتينية بقوانينها ونظرياتها الإدارية وتقاليدها العسكرية ، والإغريقية بفلسفاتها وتراثها ولغتها ، والمسيحية بآرائها الصوفية ، وأصبح الشرق الذي يغزو العالم الروماني من هذه المدينة ، حتى صبغت التقاليد الإغريقية الرومانية بصبغة شرقية فيها فتكونت حضارة جديدة أطلق عليها اسم الحضارة البيزنطية تمييزاً لها عن اللاتينية والإغريقية [١].

ويُعد تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعالم جديد أخذ فيه العالم الروماني (الغربي) والعالم الإغريقي (الشرقي) يبتعد كل منهما عن الآخر ، وأصبحت وحدة الإمبراطورية لا تعدو أن تكون نظرية عسيرة التحقيق[٢]، فبناء القسطنطينية أدى إلى تصعيد عملية تقسيم الإمبراطورية الرومانية ، لأن وجود عاصمة جديدة في الشرق ترتب عليه وجود حاكم في الشرق وآخر في الغرب ، وذلك شجع على هذا التقسيم الذي وقع سنة ٣٩٥م عندما انفصل الجزآن اللاتيني والإغريقي عن بعضهما ولم تضمهما من بعد وحدة سياسية أبداً ، وبمرور الزمن صارت القسطنطينية إغريقية تماماً في لغتها وثقافتها ، وعبثاً حاول بعض الأباطرة إرجاع المدينة إلى اللاتينية ، وكانت قوانين جستنيان (Justinanus ، ٥٢٧ . ٥٦٥م) التي نشرت في القرن السادس آخر الأعمال التي كتبت باللغة اللاتينية في الجزء الشرقي من الإمبراطورية[٣].

واعتبر بناء القسطنطينية كذلك بداية لعصر جديد تحول فيه العالم الروماني من العصور القديمة إلى العصور الوسطى[٤] ، وكان من أهم نتائج بناء القسطنطينية هو أنه أعطى الدولة الرومانية حصناً منيعاً استطاعت أن تنقذ أوربا الغربية المسيحية من هجمات الفرس والأجناس

---

(١) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٧٦ .

(٢) فشر ، مرجع سابق ، ص١١ .

(٣) كانتور ، مرجع سابق ، ص ص٧٥ . ٧٦ .

(٤) في الحقيقة أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عما سبقها أو ما بعدها من عصور التاريخ ، فهي ليست بالحادث الذي يحدده زمن معين كوقوع معركة أو تولية ملك أو بناء وسقوط مدينة أو غزو دولة لدولة أخرى ، إنما هي طور من أطوار التاريخ الذي أشارت إليه تغييرات معينة في حركة بطيئة ، كما دلت على زواله ظواهر أخرى في حركة بطيئة وهذه التغييرات سواء كانت في البداية أو في النهاية ما لبثت أن أخذت شكلاً حضارياً جديداً تميزت عما سبقها وما لحق بها ، ولكن المؤرخين

والديانات المختلفة وظلت صامدة حوالي عشرة قرون ، وأوضح الأدلة على ذلك هو إيقاف الزحف الإسلامي على أسوار القسطنطينية في القرن الثامن الميلادي ، حيث يستطع المسلمون اجتياز أسوار القسطنطينية والوصول إلى أوربا الشرقية إلاّ في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ، وبينما بقي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية بمنأى عن هجمات البرابرة نظراً لوقوف هذه المدينة سداً منيعاً أمام هجماتهم ، لكن الجزء الغربي كان عرضة لهجمات البرابرة حتى سقطت روما تحت ضرباتهم في سنة ٤٧٦م وأصبح الجرمان هم سادة روما ، وكان من نتائج انتقال الأباطرة إلى روما الجديدة أيضاً هو أن البابوية استطاعت أن تتفوق حتى أصبحت إحدى سمات العصور الوسطى الأوربية ، فقد حصلت البابوية على عاصمة جديدة ومركزاً جديداً لم تدنسه تيارات الوثنية القديمة انتقلت منها إلى الجهات الأخرى.(١)

انفقوا على جعل العصور الوسطى بين التاريخ القديم والحديث ، وما يعرف بالعصور الوسطى الأوربية اصطلح على تسميتها عند المؤرخين العرب بالعصور الإسلامية : محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ص ١٤.١٣ .

(١) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص٢١ ؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٦٤ ، إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون مرجع سابق ، ص٦٤ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٤ .

الفصل الثالث

الإمبراطورية والمسيحية في زمن قسطنطين

المبحث الأول: موقف قسطنطين من المسيحية .

المبحث الثاني: الصراعات الكنسية ودور قسطنطين فيها .

المبحث الأول
موقف قسطنطين من المسيحية .

أولاً: علاقة قسطنطين بالمسيحية في بداية توليه الحكم .

ثانياً: مرسوم ميلان ٣١٣م .

ثالثاً: حقيقة إيمان قسطنطين .

رابعاً: أسباب اعتراف قسطنطين بالمسيحية .

أولاً: علاقة قسطنطين بالمسيحية في بداية توليه الحكم .

ليس هناك ما يشير إلى اهتمام قسطنطين بالديانة المسيحية قبل توليه منصب القيصر مكان أبيه ، مع إنه كان على علم بأمور الإمبراطورية وخاصةً علاقتها بالمسيحية على الأقل منذ زمن دقلديانوس ، ولكن عندما أصبح أحد أعضاء الحكومة الرباعية سنة ٣٠٥م يبدو أنه بدأت تتكون عنده آراء جديدة حول هذه الطائفة وكيفية التعامل معها ، فقد رأى قسطنطين تلك المكانة التي وصلت إليها المسيحية ، وأعجب كثيراً بتنظيم أفرادها وطاعتهم لرؤسائهم ، وكذلك نظر لتزايد انتشار المسيحية في الولايات الرومانية خاصة الشرقية منها من خلال زياراته لبعض هذه الولايات في زمن دقلديانوس وإطلاعه على أحوالها ، لذلك فكر في أمره كثيراً قبل أن يأخذ موقف منها ، ومن ناحية أخرى فقد رأى أن سياسة الاضطهاد التي اتبعها دقلديانوس (Diocletianus) (٢٨٤ . ٣٠٦م) ، ومكسيميان (Maximianus) (٢٨٦ . ٣٠٦م)وجاليريوس (Galerius) (٢٩٣ . ٣١١م) لم تُؤت أُكلها ، بل إنها جاءت بنتائج عكس ما كان يرجوه أباطرة الاضطهاد ، فقد زادت صلابة المسيحيين وإصرارهم على الثبات على دينهم[١]، بل إن هذه السياسة قد عادت بنتائج سيئة على الإمبراطورية ، فحرمت الدولة من الاستفادة من إمكانات وقدرات نسبة كبيرة من رعاياها والتي كان يمكن أن تساهم في تطور الإمبراطورية وتقوي جبهتها الداخلية والخارجية ، وأمام هذه المعطيات رأى قسطنطين إنه لابد من إتباع سياسة جديدة في التعامل مع المسيحيين للاستفادة منهم وذلك بضمهم وإدماجهم في مؤسسات الدولة ، وبدأ بعد أن أصبح قيصراً يتبع سياسة جديدة مع المسيحيين وذلك بالتخفيف من حدة الاضطهاد الواقع عليهم عن طريق الحد من القوانين التي تلاحقهم ، وتمنعهم من إقامة شعائرهم[٢].

وبدأ بإصدار عدة مراسيم تخفف من الضغط عليهم كان أولها ما يعرف بمرسوم ميلان الشهير الذي أصدره مع حليفه إمبراطور الشرق ليكينيوس سنة ٣١٣م بعد انتصار قسطنطين على مكسنتيوس في واقعة جسر ملفيان في ٣١٢م، ومع إن الكثير من الباحثين يعتقدون أن ما يسمى بمرسوم ميلان ما هو إلا رسالة وجهها ليكينيوس (Licinius) (٣٠٧ . ٣٢٤م) إلى أحد حكام

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 311.

(٢) عبد القادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٧ .

الولايات في آسيا الصغرى وبالتحديد إلى حاكم نيقوميديا ، وهي تحتوي على توجيه بحسن معاملة المسيحيين وتوضح سياسة التسامح الجديدة التي بدأت تتبعها الدولة تجاههم ولكنها على كل حال صدرت باتفاق بين عاهلي الإمبراطورية وكانت وثيقة صدرت عن اجتماع ميلان ومن الممكن أن يكون النص الأصلي لهذه الوثيقة لم يُعثر عليه[١].

ثانياً :مرسوم ميلان ٣١٣م .

بعد أن انتصر قسطنطين على مكسنتيوس في معركة ملفيان ودخل روما ٣١٢م قام بإصدار مرسوم ميلان وذلك عندما اجتمع مع حليفه ليكينيوس في ميلان لمناقشة أمور الإمبراطورية ، فقد رأى قسطنطين أنه قد استفاد كثيراً من خدمات جنوده المسيحيين في الجيش فرغب أن يكافئ المسيحيين على ما قدمه جنودهم له في هذه المعركة ، وقد زاد من حماسته للتقرب لهم بعد رؤيته الشهيرة قبيل المعركة ، وانتصاره بالراية التي أمره المسيح أن يحملها وفقا لتلك الرؤيا كما يزعم يوسابيوس ، فقام بالاشتراك مع ليكينيوس بإصدار هذا المرسوم الشهير والذي أعاد السلام والهدوء للكنيسة المسيحية ، ولكن هذا المرسوم لم يكن أول مرسوم نادى بالتسامح مع المسيحيين بل لقد سبقه المرسوم الذي أصدره جاليريوس في آخر أيام حكمه ، ولكن لم يُعمل به لقصر المدة التي عاشها جاليريوس بعد إصداره لمرسومه ويعد مرسوم ميلان أول اعتراف رسمي من قبل السلطات الرومانية بالديانة المسيحية[٢] .

وجاء في المرسوم : " عندما تقابلنا نحن قسطنطين أغسطس وليكينيوس أغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا . ومن هذه الوسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسالة حرية العقيدة ، لذلك قررنا إصدار

---

(١) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٦٠ ؛ حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢٤ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٧ .

(٢) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٥ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٣ ؛ محمود سعيد عمران ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٤٤ ؛

Constantine I, Op. Cit; Michael Grant, Op. Cit, p 31

مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها ، وبذلك نضمن رضا جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضا جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطاننا ، وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يُحرم فرد كائناً من كان من اختيار المسيحية ديانة له ، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه ، وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة التي تعودناهما منه ... وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علماً وينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به "[١].

وقد قضى هذا المرسوم بإعادة جميع حقوق المسيحيين وإرجاع جميع أماكن العبادة والأملاك التي صودرت منهم ، وجاء في هذا المرسوم ضرورة تعويض الذين اشتروا الأراضي المصادرة من خزانة الدولة وإرجاعها إلى أصحابها ، كما أعلن العاهلان أنهما منحا حرية العبادة لكل الناس ، فكل إنسان حر في اتباع المذهب أو الديانة التي يريدها ، والتي يرى أنها أصلح له في أن يهبها عقله ونفسه وثنية كانت أو مسيحية ، وكذلك فقد حرم بموجب هذا القانون اضطهاد المسيحيين وأعطاهم قدراً كبيراً من الأمان الذي حرموا منه من قبل ، وقد جعل هذا المرسوم من المسيحية ديانة مرخصة وشرعية وساوى بينها وبين الديانات الأخرى داخل الإمبراطورية ، وتعهد بحماية حقوق وممتلكات أتباعها إسوة بباقي رعايا الإمبراطورية [٢] .

يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية من خلال هذا المرسوم تعبر عن تطور فكري أكثر منها تحول روحي ، ذلك إنه تسامح مع المسيحيين دون أن يضطهد الوثنيين ، وحاول أن يمسك العصى من منتصفها فأرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهباً ، وأوجد توازناً بين المسيحية والوثنية[٣].

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص٤٤٤ . ٤٤٥ ؛ محمود سعيد عمران ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص٤٣ .

(٢) إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، مرجع سابق ، ص٥٨ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ص ص٥٤ . ٥٥ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٤١ .

ثالثاً: حقيقة إيمان قسطنطين.

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو هل كان قسطنطين مسيحياً أم لا ؟ وإن كان قد اعتنق المسيحية حقاً ، فهل اعتناقه لها كان عن إيمان أم عن مصلحة رأى أنه سوف يحصل عليها من وراء اعتناقه للمسيحية واعترافه بها ؟ أو بتعبير آخر هل كان اعترافه بالمسيحية نابعاً من عقيدة صادقة وإيمان روحي ، أم هو عبارة عن حركة سياسية أراد تحقيق مآرب خاصة من خلالها ؟

الواقع إن الآراء اختلفت كثيراً حول عقيدة قسطنطين فهناك من الباحثين من يرجح إيمانه واعتناقه للمسيحية ، وهناك من ينفي عنه هذا الإيمان ويرجح أنه استمر على وثنيته ولمناقشة هذا التساؤل يمكن القول إن قسطنطين كان وثنياً بمولده ونشأته وذلك بحكم بيئته التي شب فيها ، فوالداه يحملان نفس العقيدة وهي الوثنية ، وإن كان أبوه قد اتجه إلى نوع من التوحيد في العقيدة الوثنية فقد اتجه إلى عبادة إله الشمس التي لا تقهر(١)، أما أمّه هلينا فهي بدورها نشأت وثنية ولم تعرف المسيحية إلا بعد ابنها قسطنطين على أرجح الأقوال ، فقد تزوجت قسطنطيوس والد قسطنطين الذي بقي مع أمه في دريبانوم (Drepanum) (وهي مدينة على الساحل الغربي لصقلية تسمى الآن ترابني Trapni) موطن أمه الأصلي حتى أصبح والده قيصراً سنة ٢٩٣م وانفصل عن هلينا وأخذ ابنه إلى نيقوميديا ونشأ قسطنطين هناك في القصر بجانب دقلديانوس ، ولعله كان رهينة عنده حتى يضمن حسن سيرة قيصر الغرب (أبوه) ، ومن الطبيعي فإن البلاط النيقوميدي يسوده المعتقد الوثني ، وبالتالي لم يتح لقسطنطين أن يتعرف على الديانة المسيحية ، ومما يؤكد ذلك أنه لم يكن لديه قدر كبير من الثقافة والمعرفة بالديانة المسيحية ، فحتى عندما شاهد ذلك الحلم الذي أخبر عنه يوسابيوس قبل موقعة القنطرة الملفية ضد مكسنتيوس لم يستطع التعرف على ماهية هذه الرؤيا ، ودعا إليه حاملي أسرار الديانة المقدسة لتفسير رؤيته فاخبروه حقيقتها ، وهذا يدل على أن قسطنطين إلى هذا الوقت ٣١٢م لم يكن يعلم من أمر الديانة المسيحية شيئاً(٢) ، بل إنه حتى عام ٣٢٤م لم يكن يدرك شيئا عن مسائل اللاهوت المسيحي

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 310 .

(٢) رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص ١٢٠ . ١٢١ .

بدليل أنه عندما حدث الخلاف الأريوسي الإثناسيوسي لم يناصر أحد على الآخر ، وكانت رسالته التي بعث بها إلى كل من أريوس وإثناسيوس عبارة عن تقريع للرجلين وتوبيخ لهما لأنهما يتحدثون في أمور تافهة ولا طائل من ورائها وطلب منهما عدم النقاش حول المسائل الصغيرة فيقول فيها ، أنتما تتحدثان في هذا الموضوع الذي لا طائل من وراءه ، وتخوضان في مسائل جدلية لا توائم العقل ، وتتجادلان حول أمر تافه للغاية وليس له أدنى أهمية جوهرية ، وهذه الأمور لابد أن ينظر إليها المرء عندما يجادل حول مسيحية قسطنطين(١).

وقد كثُر الجدل حول هذه القضية وحاول البعض إقامة الدليل على اعتناق قسطنطين للمسيحية ، فهذا أحد الباحثين يصور قسطنطين على إنه أمير ميكافلي (انتهازي) لأن الإمبراطورية كانت تعاني من الفوضى سنة ٣١٢م ، وكانت المسيحية هي محط الأنظار لإعادة بناء السلطة ، فطالما انه لم يكن باستطاعته أن يقضي على المسيحية فلا أقل من أن ينظم إليها ويستغلها لتدعيم قوته في الداخل والخارج ، ويضيف أن قسطنطين لم يكن يأبه للدين ، وإنه في سبيل تحقيق أهدافه كان يستغل أي شيء فيه قوة لمركزه حتى الدين ، وما وقوفه في جانب المسيحية وتفضيله إياها إلا لأنه أدرك أنها سوف تصبح قوة كبيرة يعتمد عليها ، فصاحب هذا الرأي يصور قسطنطين على أنه استغل المسيحية كوسيلة لتحقيق غاياته وذلك بتصفية منافسيه والانفراد بحكم الإمبراطورية في ملكية مطلقة (٢).

ويصور مؤرخ آخر قسطنطين على أنه فلاح مشوش الذهن خلط بين الديانات ، ولم يكن يؤمن بديانة واحدة ، واعتبره كرجل يتلمس طريقه دون أن يرى ما هو فاعل(٣).

ويشير مؤرخ ثالث إلى هذا الأمر بقوله "إن المسيحية في نفوذ متزايد في القرون الثلاثة الأولى مع إن معتنقيها لا يشكلون نسبة كبيرة من مجموع رعايا الإمبراطورية ، ولكن بالرغم من ذلك فقد كان لهم نفوذ واسع في المدن والأرياف وخاصة في الجهات الشرقية وقد اطلع قسطنطين

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٢١ .

(٢) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٦٦ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٢ .

(٣) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٦٦ .

على هذا النفوذ المتزايد لها في آسيا الصغرى قبل توليه الحكم ، فأراد قسطنطين أن يستفيد من أتباعها في تحقيق طموحاته[١].

أما فشر فيشير إلى أنه كان الدين في ذلك العصر يقاس ما فيه من خير على مدى نجاحه ونجاح أتباعه وعلى ما يأتي به من نتائج ، فإذا جاء بالنصر قيل إنه صحيح وحق ، وإذا جاء بالهزيمة نعت بالظلال ، لذلك فقد أدرك قسطنطين إن هذا الدين سوف يأتيه بالنصر والتوفيق في حروبه مع منافسيه خاصة بعد رؤيته التي أوردها يوسابيوس ، وكذلك لم يغب على قسطنطين " أن اتخاذ الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام ، ويهديها الإيمان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى ولو بدت تلك الفئة على جانب من السماحة والكرم "[٢].

وبنفس المعنى الذي أورده فشر يرى ول ديورانت " أن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة في الدولة ، ولكنهم إذا قيسوا بغيرهم قلة متحدة ، مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة على عدة شيع دينية ، وكان فيها عدد كبير من النفوس التي لا عقيدة لها ولا نفوذ في الدولة ... ولقد أعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحية إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية ، وبمتانة أخلاقهم ، وحسن سلوكهم ، وبجمال شعائر المسيحية وخلوها من القرابين الدموية ، وبطاعتهم لرؤسائهم الدينيين ... "[٣].

فقد أدرك قسطنطين أن الوثنية قد دخلت في طور الكهولة ولم تعُد بمقدورها أن تكون قوة يعتمد عليها في حكم الإمبراطورية ، ورأى أن القدر يجري في صالح هذه الديانة الجديدة وهي في حاجة إلى من يسندها قليلا ويعرف كيف يستفيد منها ثم يعتمد عليها في تحقيق أهدافه ، وهذا ما فعله قسطنطين فقد مد يد العون للمسيحية لتسمو وتعلو ويبزغ فجرها ، وأعطته هي كل الدعم حتى جعلته ملكاً مطلقاً يستمد شرعيته منها[٤].

---

(١) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٢ .

(٢) فشر ، مرجع سابق ، ص ص ٦ . ٧ .

(٣) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٨ .

(٤) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٢٧ .

كذلك أن قسطنطين عندما تحول إلى صف المسيحية لم يكن على قناعة ، ولم يعتنق المسيحية منطِلقاً من عقيدة دينية خالصة ، ولكن الأقرب أن ما فعله هو حركة سياسية أملتها ظروف الإمبراطورية في ذلك الوقت ، ولذلك لم يكن يخضع لمتطلبات الدين الجديد من شعائر وطقوس ، بل إنه لم يُعمَّد إلا على فراش الموت ، وأحاط قسطنطين نفسه بالعلماء والفلاسفة الدينيين بالإضافة إلى الأساقفة المسيحيين ، وكان يستدعيهم إليه كلما دعت الظروف ويرأس مجالسهم ، ولم يكن يتردد في القضاء على أي خلاف مذهبي يحدث بينهم محافظة على وحدة الإمبراطورية ، وعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيين ، فلو أنه كان مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً ثم حاكماً سياسياً ثانياً ، ولكن الآية انعكست عند قسطنطين فكانت عنده المسيحية وسيلة لتحقيق أهدافه وليست غاية في حد ذاتها[١].

ويجزم فشر بأنه ليس في استطاعة أحد أن يجرؤ على القول أن هذا الإمبراطور كان على الدين المسيحي ، لأنه إن لم يستطع اتهامه بأنه ألقى الأسرى الجرمان إلى الوحوش في الساحات العامة لتسلية الحضور ، ولكن من المؤكد أنه قتل زوجته وابنه ، لكن جرائم القتل هذه لا تلبث أن تصبح نسياً منسياً ، وسرعان ما اختفت نقائص قسطنطين تحت ستار الأعمال التي جعلت منه الحوارِ الثالث عشر[٢].

أما كانتور فيشير عند تعرضه لهذا الموضوع بأن قسطنطين اعتبر نفسه رجل أرسلته العناية الربانية لإنقاذ الإمبراطورية والكنيسة المسيحية ، وإنه صاحب رسالة وجمع في أفكاره المهمتين في خط واحد ، ورأى أن الكنيسة يمكن أن تكون العمود الفقري للإمبراطورية ، ومن ثم بذل محاولات جادة في سبيل الحفاظ على وحدة الكنيسة منطلقاً من قناعته من أن الإله قد منحه تفويضاً شخصياً من أجل هذا المبتغى ، وقد تصرف كممثل للكنيسة أمام السكان غير المسيحيين حتى إنه أطلق على نفسه أسقف الذين خارج الكنيسة[٣] .

---

(١) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٧ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٣٠ .

(٢) فشر ، مرجع سابق ، ص٦ .

(٣) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص ٦٧ . ٦٨ .

وتناول باحث آخر هذا الموضوع مشيراً إلى أن تحول قسطنطين إلى المسيحية ولو إن دوافعه الأولى كانت إتمام السيادة العالمية للرومان ولكنه كان مبني على خبرة دينية ، رغم إنه لم يكن يهتم أو يعرف شيئاً عن فلسفة المسيحية وآدابها عندما أصبح مهتماً بإله المسيحيين ولكن ببساطة كان يرغب أن يجعل من هذه القوة الإلهية حليفاً إلى جانبه(١).

أما الباز العريني فيعتبر أن المصير الذي لاقاه جاليريوس والذي غالى في اضطهاد المسيحيين ، كان له تأثيراً على تفكير قسطنطين(٢)، فإن تعصب جاليريوس بصفة خاصة ضد المسيحيين قد ترك في نفس قسطنطين أثراً كبيراً خاصة وأن جاليريوس أظهر شعور غير ودي تجاهه ثم ما لبث أن نازع قسطنطين على السلطة ، وزاد من تأثر قسطنطين بعد موت جاليريوس إثر مرض طويل* ، فقد اعتبر المسيحيون مرض قسطنطين هذا عقاباً من الله على ما فعله بهم ، فبدأ قسطنطين يفكر جدياً في تغيير سياسته تجاه أتباع العقيدة الجديدة(٣) .

وأيضا لعل قسطنطين قد فطن لقوة إله المسيحيين لاسيما أن الاعتقاد في التدخل الإلهي في كل شؤون الحياة كان مألوفاً في تلك الفترة ، وزاد من اندفاع قسطنطين نحو إله المسيحيين هو تلك الرؤيا التي رآها قبل معركة جسر ملفيان ، كل ذلك جعل قسطنطين يعتقد أن المسيحيين سوف يهبونه النصر. وسواء كان قسطنطين خادماً للمسيح أو كاهناً أعظم فإنه اعتقد أن له من الحق وعليه من المسؤولية ما يوجب عليه مسالمة الكنيسة المسيحية ، وإنه إذا كان الله قد عهد إليه بإدارة الأمور الدنيوية فإنه سوف يتعرض لعقابه إذا لم ينفذ القوانين الإلهية ويسعى في سبيل وحدة الكنيسة وقد ظهر ذلك واضحاً في تعامله مع المشكلة الآريوسية (٤).

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٢٩ .

(٢) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٧٠ .

* أشار يوسابيوس إلى ما حل بجاليريوس قائلاً إن موته لم يكن موت أبطال الحرب ، بل إنه نال القصاص الذي يستحقه كعدو لله فقد حلت به آلاماً مبرحة حتى تغير كل منظره ، ونحل جسمه حتى لم يبق منه إلا العظام ، ولم يعد جسمه إلا مقبرة لنفسه التي دفنت في جسم فنى عن آخره ، وتفجرت عيناه وسقطتا من مكانهما حتى إنه تمنى الموت، واعترف بالرب في آخر أنفاسه ، وأخيرا فارق الحياة بعد اعترافه بأن كل ما عاناه كان بسبب اضطهاده للمسيحيين : يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٤٢١ .

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص ٥٢ . ٥٣ .

(٤) السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص ص٧٠ ، ٧٢ .

وفي الاتجاه الآخر هناك العديد من الآراء التي يذهب بها أصحابها إلى الاعتقاد بمسيحية قسطنطين وصدق إيمانه بالدين الجديد ، فعندما اختار قسطنطين أن يميل إلى صف المسيحيين كان عددهم لا يتجاوز عشر سكان الإمبراطورية الأمر الذي يؤيد الرأي الذي يقول إن قسطنطين قد اتخذ قراره عن شعور ديني وليس بدافع المصلحة السياسية ، ولكن ومع ذلك فإن المسيحية لم تكن في موقف يؤهلها أن تقدم شيئاً لقسطنطين ، والمتأمل في الموقف كثيراً يجد أن المسيحية كانت أوسع انتشاراً وأشد تأثيراً في الشطر الشرقي (في آسيا الصغرى ونيقوميديا وانطاقية والإسكندرية) من الإمبراطورية عنها في الجزء الغربي ، وإن قسطنطين بعد انتصاره على مكسنتيوس في موقعة ملفيان ٣١٢م قد دان له الجزء الغربي من الإمبراطورية وأصبح ينظر إلى للجزء الشرقي لكي تتحقق له السيادة على كافة أرجاء الإمبراطورية ، وقد عرف قسطنطين كل هذه الأمور لذلك أصدر مرسوم التسامح مع المسيحيين غداة انتصاره على مكسنتيوس وذلك ليفتح أمامه أبواب الشرق ، وقد وصف البعض قسطنطين بأنه رجلاً سياسياً ولم يكن رجلاً دينياً ، فقد حاول تدبير أمور إمبراطوريته واستغل حيوية ونشاط وتعاليم الكنيسة لصالح الدولة المتداعية ، خاصة بعدما شهد القرن الرابع تحولاً اجتماعياً نحو المسيحية حتى وصلت نسبتهم إلى حوالي ١٠% في شطر الإمبراطورية الغربي ، أما في الشرق فإن العدد أكبر من هذا بكثير[١].

وكان قسطنطين في حاجة إلى أنصار يؤازرونه حتى يستطيع التخلص من شريكه ليكينيوس ، ووجد أن قوة المسيحيين كبيرة ومؤثرة في ساحة الصراع ، وقد أعجب قسطنطين بهم لغيرتهم وحبهم لدينهم بدرجة تفوق الأديان الأخرى ، ورأى إن هذه الغيرة يمكن أن يربط بها الإمبراطورية برباط قوي ، فكان الهدف الذي يسعى لتحقيقه هو توحيد الإمبراطورية بأي طريقة كانت حتى ولو برباط الديانة المسيحية ، ولذلك أصدر مرسوم ميلان ٣١٣م ليكافئ الفرق المسيحية التي شاركت معه في تحقيق النصر ، وكان قرار قسطنطين بالميل نحو المسيحية من باب الحنكة والانتهازية لأنه لم يكن يؤمن بالعقيدة المسيحية ولم يعلن عداءه للوثنية ، فأظهر نفسه

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٤٠ ؛ س . ورن هلستر ، أوربا في العصور الوسطى ، ت. محمد فتحي الشاعر ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٨٨م ، ص٤٢ .

كحامياً للمسيحية لكي يستفيد منها ومن مساندتها لقواته في الجيش رغم أنه لم يتخل عن الوثنية ، ومن أشهر وسائله التي استعملها لكسب المسيحيين رؤيته الشهيرة(١).

وربما تكون سياسة قسطنطين الدينية قد فرضتها عليه ضرورات سياسية فأدرك أن اضطهاد المسيحية لم يؤدِّ إلى إيقاف توسعها ، بل إن الاضطهاد زاد من صلابتها وانتشارها ورأى أنها سوف تصبح قوة عالمية يمكن أن تؤثر عليه وعلى مكانته في الإمبراطورية إن لم يعرف كيف يتعامل معها وذلك بموالاتها والتحالف معها ، فيصبح هو رأس السلطة التنفيذية وهي السلطة التشريعية(٢).

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإمبراطورية كانت تعتمد في مواردها الاقتصادية على الولايات الشرقية في آسيا الصغرى والشام مصر ، ومعلوم إن هذه الولايات قد انتشرت فيها المسيحية بشكل كبير وكانت بها أكبر معاقلها في العالم ، فربما رأى ضرورة كسب ولاء سكان الولايات الشرقية للاستفادة من مواردها أولاً ثم المحافظة على وحدة الإمبراطورية ثانيا(٣).

وحين حَمَلَته انتصاراته إلى قلب الإمبراطورية ودخل روما أعلن المسيحيون إن هذا الانتصار الذي حققه قسطنطين قد تم بفضل مساعدة إلههم الذي سبق أن وعد قسطنطين بالنصر قبل المعركة ، فيبدو أن هذا النصر قد ساهم في زلزلة بعض قواعد الوثنية في نفس قسطنطين وجعلته أكثر تفهما لقوة العقيدة الجديدة ، ولذلك أصدر أوامره إلى عماله وكبار رجاله بالكف عن اضطهاد المسيحيين ورفع الغبن عنهم(٤).

ويورد مايكل كرانت أنه من الخطأ أن نعتبر مسيحية قسطنطين مسألة حسابية ، بل بالعكس فإن قسطنطين كان متديناً ومتأثراً بشكل كبير بالمسيحية ، وقد اختارها كديانة لأنه رأى أن إله الشمس الذي كان يعبده أباه من قبل غير قادر على ملء الفراغ الروحي الذي يبحث عنه

---

(١) سيد أحمد الناصري ، الروم والشرق العربي ، ص ص ٢٩ . ٣٠ .

(٢) حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ٢٧ .

(٣) نفسه .

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص ٥٣ . ٥٤ .

، ولكن المسيح في نظره هو الذي يستطيع انقاذ الناس لأنه أكثر إقناعاً من كل الديانات الأخرى ، ولذلك فقد استطاعت ديانته كسب قلب قسطنطين(١).

أما يوسابيوس القيصري فيرى أنه في سنة ٣١٦م تقبل قسطنطين المسيحية ووضع شارة الصليب على دروع فرقه العسكرية ، وإنه قد صلى للرب المسيحي قبيل المعركة ويقول عنه " إنه الابن البار لأب تقي ... وإذا لجأ قسطنطين بالصلاة إلى إله السماء وكلمته يسوع المسيح نفسه مخلص الجميع كعون له " ويصور يوسابيوس قسطنطين في تاريخه الكنسي بأنه مسيحي تقي ورع يصلي إلى المسيح ويلجأ إليه في المحن حتى إنه يشبهه قسطنطين بموسى عليه السلام ويشبه مكسنتيوس بفرعون حتى في غرقه في البحر مع جنوده(٢).

هذا ويُعتقد أن الدوافع الحقيقية للإمبراطور نحو المسيحية كانت دينية أملتها عليه الإرادة الإلهية ، وإن عدم إعلان مسيحيته بشكل رسمي يعود لمشيئة الله ، وقد أمره الله قبل وفاته بأن يترك سياسة الحذر ويعلن تنصره(٣).

ويردُّ أحد الباحثين على المشككين بصدق دوافع قسطنطين الدينية بأنه عندما نبحث في حياة العظماء فإنه من النادر أن نكتفي بالتفاسير الطبيعية فطالما أن قسطنطين له شهرة كبيرة فهم يعتقدون (أي المشككين في مسيحيته) أن تصرفه يختلف عن تصرفات الناس ، وإن أعمال هؤلاء لا تقاس بالمقاييس الطبيعية مثل بقية البشر ، فالإعتقاد السائد لدى كثير من المؤرخين أن قسطنطين حاول خداعنا ولذلك يحاولون تحري الأسباب الخفية وراء إقباله على المسيحية ، فكلما تهافت على الدين وأعلن إنه مؤمن حقيقي كلما زادت الشكوك ومحاولات برهنة عكس ذلك وإثبات أنه لم يكن إلا متشكك ولم يكن للدين عنده أدنى أهمية ، وإنه يفضل أي دين يجني من ورائه فائدة خاصة(٤).

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 312.

(٢) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص ٤١٥ . ٤١٦ ؛ نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٦٤ .

(٣) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٤)عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٣ .

ويقول باحث كنسي أن قسطنطين قبل معركة جسر ملفيان أصبح يفكر إلى أي إله يتجه بصلاته ليتحقق له النصر وينال الظفر والنجاح ، فتأمل في طريق أبيه فوجد أنه كان يصلي لإله المسيحيين* ، ورأى قسطنطين أن النجاح كان حليف والده في كل الأوقات بسبب تقربه من الإله المسيحي ، بينما إن الأباطرة الآخرين الذين ناهضوا المسيحية واضطهدوا أتباعها لم يكتب لهم النصر ، فعزم على ترك عبادة الأوثان وسأل معونة الإله الحق الوحيد السماوي ، فصلى إليه طالبا منه أن يعلن له ذاته ويعرفه اسمه المبارك ويمنحه النصر والغلبة على خصمه مكسنتيوس ، وبينما كان قسطنطين تتجول بخاطره هذه الأفكار حتى ظهرت له تلك الرؤيا الشهيرة(١).

وهناك رأي يريد أن يوفق بين الدافعين الديني والسياسي ويزعم أصحابه بأن اعتقاد قسطنطين أشبه بالاعتقاد بالإله الواحد مع إن سياسته نحو المسيحية مدفوعة بدوافع سياسية ويجد شبه بين سياسة قسطنطين ونابليون تجاه الدين فقد حاول الأخير تحقيق الصلح بين الكنيسة والثورة ، وحاول الأول من جانبه أن يعيش العالمان القديم والحديث جنباً إلى جنب مع تفضيله للمعتقد الجديد ، ولكن مع ذلك فإن المتحري لدقائق تفكيره يجد فيه سياسة حكومة أكثر منه إيمان ديني(٢).

وكان هناك رد فعل ديني تجاه نظريات تنصر قسطنطين تزعم بأنه قد دخل في المسيحية بحق ولم يكن لهدف سياسي ، فهذا أحد المؤرخين يصوره في صورة البطل المسيحي المخلص الورع ، ويقدر مؤرخ آخر أن اعتناقه للمسيحية قد مر بثلاث مراحل ، أولا إيمانه بوحدانية إله الشمس التي لا تقهر التي أخذها عن أبيه ، ثم الاعتقاد في ألوهية روحية ، ثم التقبل الفعلي للمسيحية قبيل معركة القنطرة الملفية(٣).

---

* يقرر هذا الباحث هنا أن قسطنطيوس والد قسطنطين كان يصلي لإله المسيحيين ، إذ لم يكتف بمسيحية قسطنطين بل يتجه إلى القول أن والده كان مسيحياً وهو ما لم يقل به غيره من المؤرخين والباحثين ، ومن المعلوم أن قسطنطيوس كان يؤمن بوحدانية إله الشمس التي لا تقهر : تشارلز وورث ، مرجع سابق ، ص ص٢١٤ . ٢١٥ .

(١) أندرو ملر ، مختصر تاريخ الكنيسة ، ط٤ ، شرطة الطباعة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٣م ، ص١٤٦ .

(٢) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٤ .

(٣) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص ٦٦ . ٦٧ .

وثمة دليل تحمله المسكوكات على اعتناق قسطنطين للمسيحية مع إنه غير شامل فيظهر في أحد العملات التي تعود إلى زمنه صورة لإله الشمس الذي يؤمن به وعلى نفس القطعة صورة للمسيح ، ورُسمت على قطعة أخرى شارة المسيح تدمّر أحد الحيّات يبدو أنها ترمز إلى تدمير المسيحية للوثنية ، ولكن قطع العملة هذه في أغلبها لا تخلو من مظاهر للوثنية وإن كان فيها ما يرمز للمسيحية ، فهي تعبر عن سياسة مسك العصا من الوسط التي اتبعها قسطنطين ، فقد كان بوسعه أن يُبعد ما يشير إلى الوثنية من عُملاته إن كان مسيحياً حقاً ولكنه رغم تعاطفه مع المسيحية لم يكن مسيحياً بمعنى الكلمة إذ أنه لم يرَ بأساً من وجود آلهة وثنية على عملاته(١).

وحتى عندما انقسمت المسيحية على مذهبين (الآريوسية والإثناسيوسية) فقد اعترف بالمذهبين دون أن يناصر مذهب على آخر ، بالإضافة إلى أنه لم يتنكر لديانة الدولة أو يتخلى عن عبادة الإمبراطور والتي تعد مصدراً أساسياً لقوة الأباطرة ونفوذهم ، وبعبارة أخرى فإن قسطنطين أقام قوته السياسية على دعامتين هما العبادة الإمبراطورية والديانة والمسيحية ، وهذا يظهر جلياً من خلال سياسات الإمبراطور وتصرفاته ، فقد احتفظ بالعبادة الوثنية القديمة برجالها ومعابدها وطقوسها ، واحتفظ باللقب التقليدي للأباطرة الرومان وهو الكاهن الأعظم وأصبح بلاطه يعج بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، إلى جانب الكهنة والفلاسفة الوثنيين ، وقُسمت وظائف الدولة الكبيرة بين المسيحيين والوثنيين تلك الوظائف التي كانت حكراً على الوثنيين . وهكذا فمن الممكن أن نقول إن قسطنطين ظل وثنياً مع الوثنيين ومسيحياً مع المسيحيين(٢).

على إن الذي تجدر الإشارة إليه ما يذكره مؤرخوا الكنيسة وغيرهم من المؤرخين المحدثين من أن قسطنطين قد تناول سر المعمودية وهو على فراش الموت ويعتبرون ذلك دليلاً على مسيحيته ويعدونه أول إمبراطور مسيحي ، فقد كانت الكنيسة المسيحية لا تصر على التعميد منذ السنة الأولى للميلاد وذلك ترغيباً للوثنيين في دخول هذا الدين الجديد ، أو حتى تُبقي أمامهم

---

(١) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٦٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٤٢ . ٤٣ .

الباب مفتوحاً للدخول فيها ، ومما يدل على ذلك هو أن كثير من مشاهير رجال الكنيسة لم يعمدوا إلا في سن متأخرة ومنهم القديس أمبروزو (Ambrosius) أسقف ميلانو الذي عندما اختير للمنصب الكهنوتي تبين إنه لم يكن قد تلقى سر المعمودية ، وكذلك كان نكتاريوس (Nectarius) بطريرك الإسكندرية ، ولكن حتى إذا كان قسطنطين قد تناول المعمودية على فراش الموت فإن هذا لا يصلح دليلاً على القول بانه كان مسيحياً ولكن من الممكن القول تجاوزاً أن قسطنطين مات مسيحياً وفرق كبير بين هذا وذاك ، وحتى لو سُلِّم بصحة الرواية فستنشأ مشكلة أخرى هي أن قسطنطين قد تناول سر المعمودية على يد أسقف آريوسي وتلك مسألة أخرى(١).

رابعاً: أسباب اعتراف قسطنطين بالمسيحية.

إن اعتراف قسطنطين بالمسيحية كان يعني منحها حق وجود شرعي مماثل للوجود الوثني ، لتكون المسيحية ديانة شرعية يجوز التعبد بها مثلها مثل الوثنية ، ولكنها إلى هذا الوقت لم تصبح الديانة الرسمية ، فقد مُنح رجال الدين المسيحي نفس الامتيازات التي تمتع بها الكهنة ، وأُعفوا من الضرائب وتأدية الواجبات المدنية ، وازدادت بذلك ثروة الكنائس جراء ما حصلت عليه من منح وهدايا وهبات وأراضي وأملاك ، وأمر قسطنطين كذلك بإنشاء عدد كبير من الكنائس

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٣٢ .

مثل كنيسة القديس بطرس في روما ، وكنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة الصعود على جبل الزيتون ، كما تم تشييد كنائس في مناطق أخرى في أنطاقية ونيقوميديا ، فكان يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر ، إذ إن الوثنيين كانوا يمثلون غالبية سكان الإمبراطورية وتتشكل منهم الطبقة الأرستقراطية الإدارية والعسكرية المتنفذة في الدولة ، فبالرغم من ميوله نحو المسيحية لم يحاول أن يكون ذلك على حساب الوثنية ، فقد كان كريماً مع المسيحية وكريماً مع الوثنية ، فقد جدد بناء الهياكل الوثنية وأمر بممارسة أساليب العرافة ، كما استخدم في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض ، وعندما اختار يوم الأحد عيد أسبوعي أسماه يوم الشمس ومازال حتى اليوم يحمل الاسم نفسه (Sunday) ، ولما اختار الصليب شعاراً له صوره في شكل لا يُغضب الوثنيين الذين يشكلون غالبية جيشه والذي كان يضم الحرفين الأولين من اسم المسيح في اللغة الإغريقية وهو شكل مألوف للوثنيين ، وبذلك جمع قلوب المسيحيين في الغرب على قلتهم في الوقت الذي لم يُسيء إلى رعيته الوثنية [١]، واضطر لمسايرة الأمور إلى اتخاذ مواقف مائعة حول هذا الموضوع ، والوثنية بدورها لم تر في إله القلّة المسيحية منافس لها أو يمكن أن يكون منافس لآلهتها الكثيرة ، لذلك أفسحوا المجال بين آلهتهم المتعددة لإله المسيحيين ولم تعد هناك كراهية شديدة لهذا الإله الجديد ، مادامت الدولة تتجه بولائها لجوبتر وإله الشمس وغيرها من الآلهة الوثنية[٢].

ولكن بينما أفسح الوثنيون صدورهم لإله المسيحيين ووجدوا له مكاناً بين آلهتهم ، نظر المسيحيون إلى الآلهة الوثنية نظرة الاستياء والازدراء والكراهية واعتبروها شياطين ملؤها الخبث والضر ، وأنها آلهة كاذبة ، والولاء لها يعتبر إثماً كبيراً في نظرهم ، غير إنه لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قسطنطين من أن اتخاذ الأولياء من فئة منظمة يهديها الإيمان الراسخ

---

(١) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٨٩ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص ١٣١ . ١٣٢ .

(٢) حسنين محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص٢٧ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص ٥٦ . ٥٧ .

وتسندها كتب مقدسة ولو كانت هذه الفئة قليل عددها خير من فئة كبيرة ذات عقائد شتى وإن أبدت كثيراً من التسامح والكرم[1].

إن المتأمل في جميع الروايات والآراء يستنتج أن اتجاه قسطنطين الإيجابي نحو المسيحية ربما لا يكون وليد الساعة ، وإنما كان نتيجة لإطلاعه على أحوال المسيحيين ومدى قوتهم وتأثيرهم على ساحة الإمبراطورية بالرغم من قلة عددهم ، إذ أن تأثيرهم كان كبيراً خاصة في الأماكن التي أصبحت تشكل أعشاشا للمسيحيين في آسيا الصغرى وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ، وكان قسطنطين يعلم أن الاضطهاد التاريخي لم يأت بنتائج بل إنه زاد من تماسك المسيحية وانتشارها لذلك خشي قسطنطين من خطر هذه الدعوة المسيحية على الإمبراطورية بأسرها ، فالمسيحية تعتبر من الدعوات العالمية الكبرى في التاريخ المناهضة في بدايتها للسلطة الرومانية ، وكانت تنادي بالمساواة والعدل وتدعو إلى نبذ الاستغلال والتمييز الطبقي وظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وهي دعوة وُجِّهت إلى الفقراء ومحبي الخير للإنسانية واستصرخت ضمائرهم ، في عصر كانت تنتشر فيه المظالم وتعصف بالناس ، وأصبحت المبادئ التي تنادي بها المسيحية خطراً على السلطات الرومانية والطبقات العليا فيها ، وكانت هذه المبادئ مبرراً لشن الاضطهادات المتكررة ضدها ، ونظرت السلطات الرومانية إلى الكنيسة على إنها حكومة أخرى داخل الإمبراطورية يجب القضاء عليها قبل أن تصبح قوة عسكرية[2].

وحاولت الحكومة الوثنية أن تستأصل شأفة المسيحية بشتى الطرق ولكنها فشلت في ذلك وكان النجاح حليف قسطنطين عندما حاول أن يوفق بين الحكومة الوثنية(الإمبراطورية) والكنيسة المسيحية وربط بينهما برباط الصداقة ، وكان يستخدم الفاظاً توحيدية يقبلها كل وثني حتى إنه وخلال السنوات الأولى من حكمه قام بجميع المراسم التي يتطلبها منه منصب الكاهن الأعظم[3].

---

(١) فشر ، مرجع سابق ، ص٧ .

(٢) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٥ .

(٣) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص ١٣١ . ١٣٢ .

إن السياسة الإيجابية التي اتبعتها الإمبراطورية الرومانية زمن قسطنطين في مطلع القرن الرابع الميلادي ضرورة قدرتها الظروف ، فكان الضعف يدب في الإمبراطورية الرومانية وخاصة في جزئها الغربي في النواحي الاقتصادية حتى أصبحت تعتمد على الجهات الشرقية في الكثير من مواردها تلك الجهات التي تركزت فيها المسيحية ، هذا عدا عن العداء التقليدي بين الفرس والرومان والمخاطر التي تهدد الإمبراطورية من قبل القبائل البربرية في الدانوب ، كل ذلك جعل قسطنطين يعمل على كسب ولاء السكان في الجهات الشرقية من الإمبراطورية ، وبذا أصبحت الكنيسة قوة مؤيدة وحليفة بدل من معادية وذلك حفاظاً على وحدة الإمبراطورية ، بالإضافة إلى الاستفادة من مجهودات رجال الدين المسيحيين التبشيرية بين القبائل الجرمانية الوثنية في جهات الدانوب لدفع شرورهم وترويضهم وتغيير طباعهم[١].

وخلاصة القول إن الكنيسة المسيحية كانت في مطلع القرن الرابع أشبه بغريق يتقاذفه الموج في بحر لجي ، وكان قسطنطين بمثابة قارب نجاة لها فقد مد يده لانتشال الكنيسة التي كانت تعاني من الاضطهاد والانقسام الداخلي ، وساعدته على ذلك مجريات الأحداث ، فحفظت له الكنيسة جميل أنعمه وفرض هو عليها إرادته[٢]. فقد عرض قسطنطين السلام على الكنيسة في مقابل أن تعترف ، بالدولة وتشد أزر السلطة الإمبراطورية ، وقد قبلت الكنيسة عرض قسطنطين الذي أضر بها على رأي كثير من الباحثين[٣] ، وبذلك أصبح مُلك قسطنطين وطيد الدعائم ، ولكنه فقد ما تبقى من الصفة الدستورية للإمبراطور ، وشابه كثيرا ملكية أسلافه من الملكيات الشرقية القديمة ، التي قامت على القوة والقسر والدين ، وأصبحت الاقلية المسيحية تدريجيا وبدعم الدولة أكثرية قوية ، وفرضت نفسها على أولئك الذين لم يستطيعوا الدفاع عن عقيدتهم والتضحية من أجلها.[٤]

---

(١) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٦ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٣١ .

(٣) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٤٨ ؛ هسي ، مرجع سابق ، ص١٩٧ .

(٤) رستوفتزف ، مرجع سابق ، ص٦٠٩ .

ومن الخطأ القول أن الديانة المسيحية أصبحت بعد مرسوم ميلان وبفعل السياسة التي اتبعها قسطنطين وما أغدقه عليها طيلة حكمه ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية ، فهذا الأمر أيضاً لم يدر بخلد قسطنطين ولم يسعَ إليه طوال فترة حكمه ، فهو أعطى للمسيحيين الحقوق الممنوحة لغيرهم من الرومان في ممارسة عقيدتهم ، لكنه في الوقت نفسه لم يأمر باضطهاد الوثنيين أو يحرمهم من حقوقهم أو يأمر بهدم معابدهم ولم يحدث مثل هذا الأمر إلا على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول(Theodosius) في نهاية القرن الرابع (٣٧٩ .٣٩٥م) عندما أصبحت المسيحية على عهد هذا الإمبراطور ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية[١]، لكن الذي من المستطاع ملاحظته في فترة حكم قسطنطين هو أن سياسته التي اتبعها من اعترافه بالمسيحية لتصبح ديانة شرعية كانت علامة بارزة للتحول من عالم روماني إلى عالم بيزنطي ومن عصر قديم إلى عصر جديد وهو العصر الوسيط ، ولما ترتب بعد ذلك من انقلاب حضاري وتطور في كافة نواحي الحياة في الإمبراطورية الرومانية ، بالإضافة إلى عدة عوامل أخرى أبرزها انسياب القبائل الجرمانية على نصف الإمبراطورية الغربي ففترة حكم قسطنطين تعتبر فترة انتقال من عصور قديمة رومانية إلى عصور وسطى بيزنطية[٢].

المبحث الثاني

الصراعات الكنسية ودور قسطنطين فيها .

أولاً: بداية ظهور الانشقاقات الدينية .

---

(١) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٨٢ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، العقيدة والسياسة ، ص ص ٤١ . ٤٢ .

ثانياً : الدوناتية (Donatius) .

دور قسطنطين في عقد المجامع الكنسية .

مجمع روما أكتوبر ٣١٣م .

مجمع آرل أغسطس ٣١٤م .

ثالثاً : الخلاف الأريوسي الإثناسيوسي .

قسطنطين والآريوسية .

مجمع نيقية (Nicaea) مايو ٣٢٥م ودور قسطنطين فيه.

قرارات مجمع نيقية .

رابعاً: نتائج الاعتراف بالمسيحية.

أولاً: بداية ظهور الانشقاقات الدينية .

بعد أن ظفر قسطنطين بالانتصار في موقعة القنطرة الملفية وضم إيطاليا وكل الأقاليم التابعة لمكسنتيوس لملكه ، وأصبح إمبراطوراً على نصف الإمبراطورية الغربي ، التقى بحليفه ليكينيوس في ميلان سنة ٣١٣م وحددا النقاط الأساسية في سياستهما ، وقد علمنا ما تمخض عن اجتماع الإمبراطورين والتي تدعو إلى إطلاق حرية العقيدة لرعايا الإمبراطورية في جزئيها الغربي والشرقي ووضعا الأغلال التي كانت على المسيحيين[١] ، وظن قسطنطين إنه استطاع بذلك

---

(١). Michael Grant, Op. Cit, p 31 .

القضاء على كل بوادر الفرقة والاختلاف بذلك المزج بين الوثنية الديانة القديمة للإمبراطورية والمسيحية ، وأصبحت يد الدولة التي أمسكت مطرقة الاضطهاد على عهود الأباطرة الوثنيين هي التي تمسح الآن بكل رفق جراحات المسيحيين بيد قسطنطين ، حتى أضحى قسطنطين في نظر مستشاره يوسابيوس شيخ مؤرخي الكنيسة في عليين وأضافه إلى قائمة الحواريين فأصبح قسطنطين الحواري الثالث عشر(١).

وبدأ لقسطنطين أنه وضع في جيبه ورقة رابحة جديدة فضمن أن يقف إلى جواره في مشروعاته المستقبلية عنصرا السكان في جزء الإمبراطورية الغربي (المسيحيون والوثنيون) وأصبح يتطلع إلى الشرق ، وكان لابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده لا محل لخلاف أو نزاع ولا مجال لفرقة وانقسام بينهم(٢)، وكانت كل جهود قسطنطين وكل أعماله ترمي إلى وحدة الإمبراطورية بأي ثمن ومهما كانت الظروف ، لأنه رأى فترات الضعف التي مرت بها الإمبراطورية بسبب الخلافات التي تحدث بين رعاياها سواء كانت سياسية أو دينية والتي كانت تؤدي إلى حروب أهلية وبالتالي إلى ضعف الإمبراطورية ، وفي نظريته التي عمل على تحقيقها انه يجب أن تتوحد كل الجهود وتلتقي كل الأطراف المتنازعة وتتوحد فيما بينها وتقضي على كل أشكال الخلاف السياسي أو الديني أو المذهبي أو الطائفي لمواجهة التحديات التي تواجه البلاد ، ولكن سرعان ما جاءته الأحداث بغير ما كان يشتهي ، فقد علم أن هناك خلاف أو انقسام في كنيسة أفريقيا ، ووصلته هذه الأنباء عن طريق رسالة بعث بها إليه أنولليوس واليه على شمال أفريقيا تتضمن شكوى من الدوناتيين ضد الكنيسة الكاثوليكية في قرطاج التي كان يرأسها كايكيليانوس في ذلك الوقت(٣).

أحياناً يكون من غير المفيد الخوض في مسائل دينية في دراسة تاريخية كهذه ولكن ربما يكون الباحث مضطراً لدراستها ؛ لأن الخلاف الديني والمذهبي يتحكم أحياناً في توجيه التيارات السياسية بل وفي تغيير مجرى الأحداث ، ولذلك يكون من الضرورة دراستها للتعرف على وجهات

---

(١) رأفت عبد الحميد ، الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة ، ص٤٨ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٣٣ .

(٣) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٣٤ .

النظر المختلفة وما ترتب عليها من أحداث ، ثم إن هذه الخلافات المذهبية في القرن الرابع الميلادي لم تعد حكراً على رجال الدين فقط بل إن هذا كان أمراً مفتوحاً ومباحاً للجميع ، حتى إن أحد الأساقفة يصف العمال والعبيد مدللاً على كثرة كلام الناس في المسائل الدينية بأنهم كانوا من المشتغلين بالنواحي الدينية (اللاهوت) ، فإذا قصدت الصراف لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليشرح لك الخلاف القائم بين الإله الأب والمسيح الابن ، وإذا ذهبت إلى الخباز لتشتري الخبز أخبرك بأن الابن لابد أن يكون دون الأب ، وإذا طلبت من صاحب الحمام أن يعد لك الحمام أخبرك بأن الابن وجد من لا شيء[١].

ومنذ بداية ظهور المسيحية كانت تفسيرات العقيدة المسيحية وشعائرها تلقى تأويلات مختلفة بين الشرق والغرب وخاصة كنيسة الإسكندرية وكنائس إيطاليا ، غير أن هذه الخلافات دفنت في فترة صراع البقاء التي كانت تخوضه المسيحية ضد الإمبراطورية الرومانية والوثنية الإغريقية ، ولكن ما إن انتهى الصراع وخفت وطأة الاضطهاد ضد المسيحية وصدرت المراسيم التي تبيح اعتناقها حتى ظهرت هذه الخلافات حول الإيمان المسيحي بصورة أرقت رجال الدين والساسة الرومان طيلة القرنين الرابع والخامس ، ومن أهم هذه الخلافات ما عرف بالدوناتية في شمال أفريقيا والخلاف الأريوسي[٢].

ثانياً: الدوناتية (Donatius) .

يعتبر الصراع الذي بين حدث الكاثوليكية ومن وراءها الإمبراطورية الرومانية وبين ما يسمى بالطائفة الدوناتية من أهم أحداث الصراع الكنسي الذي وقع في شمال أفريقيا إثر عمليات الاضطهاد الديني التي قام بها الإمبراطور دقلديانوس ، فقد انتشرت المسيحية بشكل كبير وكانت أفريقيا من أكثر الولايات تقبلاً للمسيحية وتوسعاً لهذا الدين الجديد ، حتى إنه بلغ مجموع الأسقفيات في أفريقيا أكثر من مائة في القرى والمدن خاصة في ولاية أفريقيا البروقنصلية (خريطة رقم٧) ، وظهر فيها مشاهير رجال الدين المسيحيين يأتي على رأسهم ترتليانوس ولاكتانتيوس ،

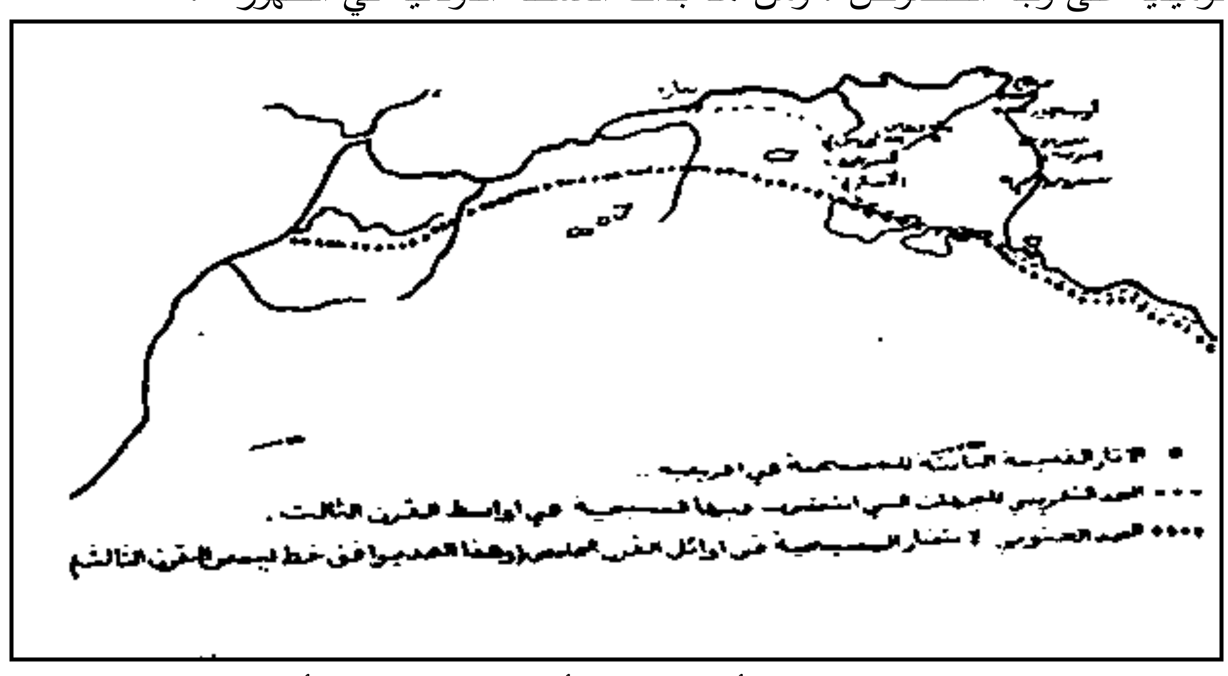
---

(١) هسي ، مرجع سابق ، ص٢٥ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ص٤٢ .

(٢) سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص ص ٣١ . ٣٢ .

وازدادت المسيحية انتشاراً في أفريقيا خلال الفترة الممتدة من ٢٦٠م إلى عملية الاضطهاد الديني في عهد دقلديانوس حتى تضاعف عدد الأسقفيات فبلغ في نوميديا وحدها سبعون على الأقل ، وكان أغلب الذين دخلوا للمسيحية في هذه الفترة سكان المناطق الداخلية في القرى والأرياف التي تعتبر أقل تحضراً ومدنية بمعيار ذلك الوقت ، ومع أن المسيحية لم تحقق نجاحاً كبيراً بين الطبقات الغنية والمتعلمة لكنها لم تعدم أنصاراً منهم حتى إن أغلبية الذين وقع عليهم الاضطهاد واستشهدوا من الطبقات الدنيا(١).

وكان لفترة السلام والازدهار المادي الذي شهدته الكنيسة اثراً سلبياً عليها ، فالروايات تحكي عن مدى صدق إيمان البعض وصبرهم على العذاب ، ولكن الوضع في كنيسة أفريقيا بصفة خاصة في فترة اضطهاد دقلديانوس (٣٠٣ . ٣٠٥) يعكس ضعف نفوس المسيحيين وفي نوميديا على وجه الخصوص ، ومن هنا بدأت المشكلة الدوناتية في الظهور(٢).



خريطة رقم (٧) انتشار المسيحية في أفريقيا ، شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية.

---

(١) ب.هـ.ورمنقتن ، تاريخ ولايات شمال أفريقيا الرومانية من دقلديانوس إلى الاحتلال الوندالي ، ت. عبدالحفيظ الميار ، ط١ ١٩٩٤م ، ص١١٩؛ ادوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص ص ٢٨٢ . ٢٨٣ .

(٢) خليفة بن ناصر ، (الدوناتية **Donatism** من مظاهر المقاومة للسيطرة الرومانية في شمال أفريقيا) ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة الخامسة العدد الأول ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس١٩٩٣م ، ص٨ .

ولدراسة الخلاف الدوناتي لابد من العودة بالأحداث إلي الوقت الذي اشتدت فيه وطأة الاضطهاد على المسيحيين ، ففي الرابع والعشرين من فبراير ٣٠٣م أصدر الإمبراطور دقلديانوس من نيقوميديا أول مراسيم الاضطهاد والتي تقضي بتسليم كل نسخ الكتاب المقدس لتقوم السلطات بإحراقها ، وحرم بموجب هذا المرسوم المسيحيين من رتبهم ووظائفهم ومنعت اجتماعاتهم وممارسة شعائرهم وإجبروا على تقديم الأضحية للآلهة الإمبراطورية وإلاّ أنزل بهم أشد العذاب ، كما منعوا من تقديم شكاواهم أمام المحاكم وحرم تحرير العبيد المسيحيين [١].

وقد اختلفت مواقف المسيحيين من مراسيم الاضطهاد هذه وتباين سلوكهم نحوها ، فقد صبر بعضهم وتحمل التعذيب ورفض هذا الأمر ولم يستجب لما طلب منه بتسليم ما بحوزته من نسخ الكتاب المقدس واختار الشهادة على ذلك ، وقام البعض الآخر بتسليم ما بيده من نسخ الكتاب المقدس وأبقى على ما في قلبه من إيمان ، وتنازل البعض كثيراً تحت وطأة العذاب ورضي أن يقدم الأضحية للآلهة الوثنية حفاظاً على حياته ، ويبدو أن هذا الاضطهاد في هذه الفترة كان قاسياً في أفريقيا وفي نوميديا على وجه الخصوص ، ويظهر أن حاكم أفريقيا فاليريوس فلوروس (Valerius Florus) كان وثنياً متشدداً في تطبيق قوانين الاضطهاد ضد المسيحيين ، حتى أن أغلب الأساقفة أذعنوا لهذه المراسيم وسلموا ما لديهم من نسخ الكتاب المقدس[٢].

وبعد انقضاء فترة الاضطهاد واعتزال دقلديانوس وصدور مراسيم الاعتراف بالديانة المسيحية ، تمتعت كنيسة أفريقيا بفترة هدوء استمرت حتى سنة ٣١١م عندما بدأت تظهر الخلافات الكنسية أو ما عرف بالمسألة الدوناتية ، فقد اختلفت آراء رجال الدين المسيحيين في مصير الذين أذعنوا لمطالب الإمبراطورية ، وانقسموا إلى فريقين فريق يمجد الذين استشهدوا في سبيل دينهم وأصروا على مواقفهم وهو الفريق الذي عرف بالدوناتيين فيما بعد ، وطالب بعدم قبول الذين سلموا الكتاب المقدس إلا بعد تعميدهم من جديد ، وفريق آخر وهو الذي تمثله الكنيسة

---

(٢) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص٣٥٢ ، ٣٧٢ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص٧ ؛ أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص ص١٣٧.١٣٩ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص٤٣.٥٣ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، ص ص٤٦ .٤٧ . ؛

Michael Grant, Op. Cit, p 308.

(٢) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٧٠ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص٨ .

الكاثوليكية إذ قبل المسيحيين الذين سلموا كتبهم تحت وطأة الاضطهاد ، ولام الذين دفعوا بأنفسهم إلى الموت بإعلانهم أن لديهم نسخ من الكتاب المقدس ولن يقوموا بتسليمها(١).

إن توقف عملية الاضطهاد جعل الكنيسة أمام مشكلة وهي ما يجب اتخاذه بشأن الذين ضعفوا أمام العذاب واستجابوا لما طلب منهم ، وكان منصوريوس (Monsurius) أسقف قرطاج قد اتهم من قبل الدوناتيون بأنه خائن وأن له مواقف عدائية ضد المسجونين في قرطاج*، ووصلت الأخبار إلى نوميديا التي كان لها نفوذ ديني على كنائس أفريقيا عن خيانة هذا الأسقف ، وطلب سيكوندوس (Secundus) من كبير أساقفة نوميديا أن يحدد موقفه من تلك الشائعات فاعترف بأنه سلّم بعض الكتب للسلطات ولكن لم يقم بتسليم الكتاب المقدس وأوضح له بأنه لم يشجع المتحمسين الذين ادعوا دون أن يطلب منهم أن لديهم نسخ الكتاب المقدس وإنهم لن يتنازلوا عنها ، الأمر الذي يعرضهم للمعاملة السيئة ، وأعرب له عن أسباب عدم رضاه عن هؤلاء المدعين لطلب الشهادة ، ورد عليه سيكوندوس والذي كان يمثل رأي الدوناتيين ووضح له ما يجب عمله إزاء مطالب السلطات الرومانية وذلك بعدم الإذعان لمطالبها ، وكان سيكوندس قد تحدى الحاكم الروماني في أفريقيا عندما طلب منه تسليم الكتاب المقدس فرد عليه بقوله " أنا أسقف مسيحي ... أنا لست خائن " (٢).

وبدأ الدوناتيون يأخذون مواقف متطرفة من الخونة وذلك برفض قبولهم في الكنيسة ، كل ذلك لم يعدو أن يكون إلاّ خلافاً في الرأي وكان لابد من وقوع حادث بعينه لينقل هذا الخلاف إلى

---

(١) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص ص١٢٠ . ١٢١ .

* في قرية صغيرة في تونس تدعى أبيتينا (Abitina) كان اسقفها ويدعى فندانوس (Fundanus) قد قام بتسليم ما لديه من نسخ الكتاب المقدس للسلطات الرومانية ، وعد ذلك الاسقف خائناً بهذا الفعل ، ولذلك فإن أحد قساوسته ويسمى ساتورنينوس (Satorninus) انفصل عن الكنيسة وأخذ يقوم بمهامه في بيوت أتباعه ، حتى علمت به السلطات فقامت بمداهمته في أحد المنازل وألقت عليه القبض ، وكان معه مجموعة من الرجال والنساء والأطفال يبلغ عددهم ثمانية وأربعين ، وأرسلوا إلى قرطاج في عهد أسقفها منصوريوس ، وكان معظمهم من العامة ومن أقل طبقات المجتمع تأثراً بالحضارة والثقافة الرومانية ، وهناك في قرطاج تعرضوا للتحقيق والتعذيب ، وعقدوا مجمعاً في السجن قرروا فيه إدانة وتحريم رجال الدين الخونة الذين سلموا نسخ الكتاب المقدس ، هذا ولم يعرف ما حل بهؤلاء السجناء ويشيع الدوناتيون أنهم تركوا في السجن ليموتوا جوعاً وقد اتهم كايكيليانوس الذين كان شماس منصوريوس بأنه منع الطعام عن هؤلاء المساجين حتى ماتوا ، وتكمن أهمية هذه القصة في أنها يمكن أن تكون البداية الأولى للحركة الدوناتية : خليفة بن ناصر، مرجع سابق ، ص ص٩.٨ .

(٢) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص٢٩٦ . ٢٩٧ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٠.

واقع عملي ، حتى التقط الموت منصوريوس أسقف قرطاج ٣١١م فثار الخلاف من بعده على من يلي منصبه[١].

وكان اسم دوناتوس[٢] بدأ يظهر في الفترة من نهاية الاضطهاد ٣٠٥م إلى وفاة منصوريوس ٣١١م ، وكان منصوريوس قد توفي وهو في طريق عودته من روما إلى قرطاج وعندما وصل الخبر إلى قرطاج تم اختيار شخص آخر مكانه يدعى كايكيليانوس (Cae-cilianus) وتم ترسيمه من قبل فيلكس (Felix) أسقف ابتونجا ، وتمت إجراءات ترسيمه بسرعة بدون حضور رئيس أساقفة نوميديا وهو التقليد الذي كان متبعاً في مثل هذه الأمور وعدّ ذلك خرقا في عرف الكنيسة ، فذهب سبعون أسقف من أساقفة نوميديا إلى قرطاج سنة ٣١٢م ليعبروا عن اعتراضهم عن الأسقف الجديد ليس لأنه لم يتبع في تعيينه الإجراءات والتقاليد الكنسية ولكن اعتراضهم كان حول أن ترسيمه كان على يد خائن قام بتسليم نسخ الكتاب المقدس في فترة الاضطهاد وهو المدعو فلكس وعليه يغدو ترسيمه غير شرعياً والتأم أساقفة نوميديا السبعون في مجمع عقدوه في قرطاج قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية كايكيليانوس وقاموا بترسيم شخص ثاني مكانه يدع ماجورينوس (Majoinus) وأرسلوا رسائل إلى جميع أساقفة أفريقيا يعلمونهم بقرارات هذا المجمع[٣].

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٣٨ .

(٢) ولد دوناتوس في القرن الثالث الميلادي في شمال إفريقيا، ويعتبر من أهم الزعماء الدينيين الأفارقة الذين واجهوا الرومان بكل ما أوتي من علم ومن قوة ، وهو أيضا من أهم المدافعين عن العقيدة المسيحية في الوسط الأفريقي ، وهو قس وراهب من قرية أفريقية نائية ، وصار بعد ذلك أسقفاً وزعيماً دينياً كبيراً في إفريقيا الشمالية، وله أتباع كثيرون يدافعون عن المذهب الذي أسسه نظرية وممارسة ، و هو كذلك مؤلف كتاب ديني تحت عنوان"الروح القدس"، ويعتبر زعيم المذهب الديني الدوناتي الذي تشكل في خضم الصراع الكنسي الدائر يومئذ ، وقد انضوى تحت هذا المذهب كل الرافضين للسيطرة الرومانية بما فيهم مذهب "الدوارين" الذي رفع راية العصيان والثورة والتمرد على الحكومة الرومانية، وقد توفي دوناتوس في٣٣٥م: جميل حمداوي ، ((من أبطال المقاومة الأمازيغية دوناتوس)) ، الحوار المتمدن ، العدد ١٩٩٢ ، ٢٠٠٧/٧/٣٠م ، www.rezgar.com/debat

(٣) خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٢ ؛ نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص٧١ ؛ ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص١٢١ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٣٩ .

وهكذا انقسمت كنيسة قرطاج إلى قسمين قسم يمثل الكنيسة الكاثوليكية ويتزعمه كايكيليانوس وقد وقفت الإمبراطورية في صفه ، وقسم آخر يتزعمه ماجورينوس وهو الفريق الذي عرف بالدوناتية فيما بعد ، وما لبث ماجورينوس أن توفى بعد فترة قصيرة من ترسيمه وخلفه دوناتوس الذي لقب بالعظيم والذي لقبت الطائفة الدوناتية باسمه[١].

وكان أكثر أتباع الحركة الدوناتية من الفلاحين ومن الطبقات المعدومة في القرى والمناطق الداخلية ، وتعبر الحركة الدوناتية تأكيداً متزايداً على عدم رومنة السكان وكرههم للوجود الروماني في الشمال الأفريقي ، وكان المزارعون هم أكثر السكان تحرراً من الثقافة الرومانية ولذلك مالوا إلى دعم الحركة الدوناتية ضد الكنيسة الكاثوليكية والتي أصبحت مرتبطة بالإمبراطورية ، حتى أنه وصل عدد الدوناتيين إلى حوالي نصف السكان المسيحيين في شمال إفريقيا، وتعد الحركة الدوناتية حركة ثورية دينية بتأسيس رجل دين وقيادة رجال الدين لها وهي كذلك تعبر عن الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تعرض له السكان من جراء إرهاق كاهلهم بالضرائب ، ولذلك فقد شكل هؤلاء الدوناتيون مع الدوارين الكركومسيليون (Circumcelliones) جماعات مسلحة هاجمت مزارع الكاثوليك المرتبطين بالإمبراطورية[٢].

وهناك من يوصّف الدوناتية على أنها صراع بين الأرستقراطية الحاكمة والسواد المحكوم ، واتخذ عداؤها للإمبراطورية طابع كفاح طبقي ، فقد وجه هؤلاء الثائرون نقمتهم للملاك واعتبروا أن دخولهم للمسيحية كان لأجل المحافظة على أملاكهم وامتيازاتهم السياسية ويشير أحد الباحثين إلى ذلك بقوله: " لعبت الفوارق الاقتصادية والاجتماعية واللغوية أدوار مهمة "[٣] ، وقد وجدت الدوناتية إقبالاً كبيراً من قبل السكان المحليين خاصة من الطبقات المسحوقة والمستغلّة من قبل السلطات الرومانية التي ألحقت ضرراً كبيراً بهم ، تمثل في انتزاع أراضيهم الصالحة للزراعة وطرد قبائلهم التي تعيش على الرعي إلى المناطق القاحلة وجلب الأقليات الأجنبية وتوطينها في

---

(١) خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٢ ؛ ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص١٢٢ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ص١٤٠ .

(٢) أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٠٤ .

(٣) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص٢٥ .

المنطقة ومنحها الامتيازات في المدن حتى أصبحوا هم السادة ، وكذلك قامت الإمبراطورية بتحويل خيرات البلاد إلى أوربا لتلبية احتياجات روما وحرمان السكان الأصليين ، كما سلطت عليهم كل أنواع الاضطهاد المادي والمعنوي[١] .

كانت هذه الصورة التي كان عليها الشمال الأفريقي عشية انتصار قسطنطين على مكسنتيوس في ٣١٢م ، ويبدو أن قسطنطين كان يعلم شيئاً من أمر هذا الخلاف الذي يحدث في كنيسة أفريقيا لذلك نراه يقصر أعطياته على الطرف الذي أُخبر أنه على حق وهو الكنيسة الكاثوليكية ، وقد اعتمد على ما قاله له أسقف قرطبة هوسيوس حول هذا الخلاف ، ولكنه لم يكن يعلم طبيعة هذا الخلاف وحقيقته ولكنه اعتمد على ما أنبأه به هوسيوس من إن الدوناتيين طائفة منشقة عن الكنيسة الكاثوليكية ومن شأنهم يحدثوا عدم الاستقرار في الولاية وربما تؤدي أفعالهم هذه إلى فتنة يصعب السيطرة عليها ، وقد عانت الإمبراطورية الويلات من جراء الصحوات الأفريقية مثل ما حدث في الحروب البونية ووصول القرطاجيين لمشارف روما وكذلك ما حدث في زمن يوغرتا في ثورته ضد الرومان من سنة ١١١. ١٠٦ق.م[٢] ، ولذلك أرسل قسطنطين برسالة إلى أسقف قرطاج يأمره بأن يقصر منح الأعطيات والهبات من الدولة على الكنيسة الكاثوليكية ويمنعها عن الدوناتيين فيقول في رسالته هذه : " من قسطنطين أغسطس إلى كايكيليانوس أسقف قرطاج يسرنا أن تمنح بعض المنح في كل أقطار أفريقيا ونوميديا وموريتانيا لبعض خدام الديانة الطاهرة الجامعة لتغطية نفقاتهم ؛ لذا كتبت إلى أرسوس وزير مالية أفريقيا العظيم وأمرته بأن يدفع إلى فطنتكم ثلاثة آلاف فولي* ، ونظراً لأنني علمت أن بعض ذوي العقول السقيمة يريدون أن يحولوا الشعب عن الكنيسة المقدسة الجامعة بطريقة دنسة مخزية فاعلم بأني أمرت أنوليس وباتريشس نائب المقاطعة لما كانا هنا بأن يبذلا عناية فائقة ليس فقط نحو الشؤون الأخرى بل أيضاً نحو هذا الأمر قبل كل شيء ، وإن رأيت أشخاصاً كهؤلاء مستعرين في هذا الجنون فاذهب

---

(١) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ١٢٢ ؛ جميل حمداوي، المرجع السابق .

(٢) رشيد الناضوري ، مرجع سابق ، ص٢٩٥ .

* عملة غير معروفة قيمتها .

في الحال إلى القاضيين المذكورين واشرح لهما الأمر لكي يؤدبوهم كما أمرتهما لما كانا هنا ، ليحفظك الله العظيم سنينا طويلة "[١].

ويبدو أن السرعة التي تصرف بها قسطنطين ومتابعته لهذا الصراع الديني قبل أن يصبح علنياً يرجع إلى اهتمامه بشمال أفريقيا والحفاظ على السلام والنظام فيها ، الأمر الذي كان ضرورياً لتسهيل وصول القمح من أفريقيا إلى إيطاليا ، وهذا ما دفعه إلى السرعة في الإفصاح عن قناعاته الدينية تجاه الخلاف الدوناتي[٢].

ومن خلال هذه الرسالة يتضح انحياز قسطنطين إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية والتي يطلق عليها الكنيسة الجامعة (Universal) ، ويتضح كذلك دور الأسقف هوسيوس في توجيه قناعات قسطنطين وسلوكه نحو فريق الدوناتية مع إنه لم يسمع بعد رأيهم ، وكانت هذه الرسالة عبارة عن هبة إلهية منحها قسطنطين لأسقف قرطاج وحرمها على الطائفة المناوئة له وقد طلب قسطنطين من هذا الأسقف تحويل أمر الطائفة المنشقة إلى القاضيين الذين عينهما قسطنطين لكي ينظرا في أمرها وفق الأوامر الإمبراطورية وأن يعزلا الدوناتيين من كل الوظائف التي يتولونها[٣].

دور قسطنطين في عقد المجامع الكنسية .

١. مجمع روما أكتوبر ٣١٣م .

شعر الدوناتيون بميول قسطنطين والإمبراطورية نحو الكنيسة الكاثوليكية ضدهم ، لذلك تقدموا بالتماس سنة ٣١٣م لدى قسطنطين يطلبون فيه تعيين قاض محايد من بلاد الغال للنظر في قضيتهم[٤]، ووافق قسطنطين على ذلك ، على إن الأمر المهم هنا هو هذه العلاقة التي بدأت تتشكل بين الكنيسة والإمبراطورية، فالدوناتيون وإن كانوا منشقين عن الكنيسة الكاثوليكية لكنهم

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص ٤٤٨ . ٤٤٩ .

(٢) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ١٢٣.

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٧ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ص١٢ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٤١ .

(٤) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ١٢٣ .

على أية حال رجال دين مسيحيين ، فكان الأولى بهم أن يحلوا خلافاتهم الكنسية داخل الكنيسة وليس من داع أن يطلبوا من الساسة التدخل في أمورهم ، وكان الأولى أن يطلبوا من البابا البت في هذا الخلاف ، لكنهم لم يفعلوا ذلك لأنه أولا لم يكن للبابوية مكانة كبيرة في العالم المسيحي في ذلك الوقت ، وثانياً لأنهم يعلمون أن البابا يمثل رأس الكنيسة الكاثوليكية ولن تكون أحكامه عادلة في نظرهم ، ولكنهم طلبوا من الإمبراطور قسطنطين أن ينظر في خلافاتهم ، ليس هو شخصياً لكونه مسيحياً لأن هذا الأمر لم يلق قبولاً بعد في أفريقيا ، ولكن طلبوا منه أن يعين لجنة تحكيم برئاسة قاض من غالة لينظر في أمر خلافهم ، ويعتبر هذا أول طلب من الكنيسة المسيحية لأن تتدخل الأمبراطورية في شؤونها الداخلية ، فعلى طوال ثلاثة قرون مضت أغلقت الكنيسة المسيحية أبوابها عن خلافاتها الداخلية ولم تسمح لأحد بالتدخل فيها وكانت تعقد مجامع لتدين الانشقاقات وتعالج الخلافات ، ولم يكن للإمبراطورية أي دور في شؤونها الداخلية ، ولكن تجدها الآن تطلب من رأس الإمبراطورية (قسطنطين) النظر في خلافاتها وتُعمل رأيه فيها ، ولم يفوّت قسطنطين هذه الفرصة وأراد من خلالها أن يرسي من البداية قواعد العلاقة بين الإمبراطورية والكنيسة ، ورغب أن يسير بنفسه كل شؤون دولته بما فيها المسيحية ، وأن يربط كل منها بالأخرى فيصبح رئيسا للإمبراطورية ورئيسا للكنيسة وهذا ما تم فعلا فمنذ هذا التاريخ حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عند زوال الإمبراطورية البيزنطية لم تخرج الكنيسة عن أطار الدولة ، ولم يترك أي إمبراطور أمور الكنيسة بل أصبحت الكنيسة تسير موازية لسياسة الإمبراطورية لاتتخلف عنها [١].

واستطاع قسطنطين تحقيق ما يصبوا إليه في حكم الإمبراطورية وهو توحيدها وصفها خلفه بما فيها الكنيسة المسيحية وهو الأمر الذي دفعه لإصدار مراسيم التسامح مع المسيحيين وكان قسطنطين يرمي من وراء تدخله هذا القضاء على أي خلاف أو انشقاق يحدث في الإمبراطورية ولو كان دينياً ، وهو لم يقف ضد الدوناتية لأنها مخالفة للتعاليم المسيحية أو لأن أفكارها متطرفة وسوف تؤدي إلى إضعاف الكنيسة ، بل رأى أنها ربما تشكل نواة أو شرارة لحركة ثورية انفصالية

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٤٢ ؛

Constantine I, Op. Cit.

في ثوب ديني الأمر الذي كرّس قسطنطين حياته للقضاء عليه ، فأراد أن تكون إمبراطوريته وحدة واحدة تحت قيادة رئيس واحد وبكل مؤسساتها المدنية والدينية ولا سبيل لخروج أي منها عن سيادته[١].

إذن فالدوناتيون يرغبون الاحتكام إلى أسقف من غالة ، وقسطنطين أراد استغلال هذا الخلاف ليسطر على الكنيسة المسيحية ، وقد عهد بفض هذا النزاع إلى البابا في روما وعين معه ثلاثة من أساقفة غالة وبعث برسالة إلى البابا جاء فيها: " من قسطنطين أغسطس إلى ملتيادس أسقف روما وإلى مرقس[٢] ، نظرا لأن أنوليس والي أفريقيا العظيم قد أرسل إلي عدة رسائل قال فيها إن كايكيليانوس أسقف مدينة قرطاج وجهت إليه تهم كثيرة من بعض زملاءه في أفريقيا ، ونظراً لأنه يبدو لي أنه لأمر خطير جداً أن يسلك الشعب في تلك الأقطار التي عهدت إلى العناية الإلهية رعايتها ، والتي يقطنها عدداً وافراً من السكان طريقاً خاطئاً ، وأن يكونوا منقسمين إلى جزئين ، وأن يكون الأساقفة مختلفين . فأراه من المناسب أن يبحر كايكيليانوس نفسه إلى روما ومعه عشرة من الأساقفة الذين يتهمونه ، وعشرة آخرين ممن يراهم لازمين للدفاع عنه ، لكي تسمع أقواله هناك بوجودكما ووجود رتسيوس[٣] وماترنوس[٤] ومارينوس[٥] زملائكما الذين طلبت منهما الإسراع إلى روما لهذا الغرض ، وبذلك تعرف أن الحقيقة وفق الشرائع المقدسة ، ولكي تكون لديكما معرفة كاملة عن هذه الأمور أرفقت برسالتي صور كل المستندات التي أرسلها إليّ أنوليس ، كما أرسلتها أيضا إلى زملائكما المشار إليهما وإذا ما اطلعتما عليها استطعتما بحث هذه القضية بدقة وحكمتما فيها بعدل ، لأنه لا يغيب عن فطنتكما أنني أحترم الكنيسة

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص٤٣ .

(٢) ربما يكون قساً في روما ، ولعله هو الذي اختير أسقفاً لها سنة ٣٣٦م لمدة ثمانية شهور : يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٤٤٦ .

(٣) كان أسقف في غالة : يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

(٤) أسقف كولون : المصدر نفسه ، ص٤٤٧ .

(٥) أسقف أرل : المصدر نفسه، ص٤٤٧ .

الجامعة القانونية احتراماً تاماً ، حتى أني لا أريدكما أن تدعا أي مجال للإنشقاق أو الإنقسام في أي مكان . ليحفظكما لاهوت الله العظيم سنين عديدة يا سيديَّ الموقرين "(١).

يتضح من خلال هذه الرسالة الدور الذي لعبه قسطنطين ، فهو الذي أحال القضية للبابا وطلب منه البت فيها وهو الذي عين معه ثلاثة أساقفة من غالة ، وطلب منه إحضار كايكيليانوس إلى روما مع عشرة من مناصريه ، وكذلك أمر بأن يحضر دوناتوس مع عشرة من مناصريه ، وهو الذي حدد مكان وزمان البت في هذه القضية ، بل إنه أوحى للبابا بمنطوق الحكم الذي ينبغي أن يتوصل إليه في هذه القضية من خلال ميوله إلى الكنيسة الكاثوليكية الشرعية وذلك في قوله للبابا " لأنه لا يغيب عن فطنتكما أنني أحترم الكنيسة الجامعة القانونية احتراما تاماً " وكان قسطنطين يؤيد رأي هوسيوس حول الدوناتية والذي يعدها طائفة خارجة منشقة ، وأنه يجب العمل على عدم انفلات الأمر في أفريقيا ، ويصف شمال أفريقيا في رسالته بأنه منطقة آهلة بالسكان ويخشى أن يتحزب الناس فيها إلى فريقين متناحرين الأمر الذي يؤدي إلى عدم استقرار الولاية والإمبراطورية بشكل عام ، وكان قسطنطين قد فرغ للتو من محاربة الفرنجة واستطاع إرساء السلام في غالة وبدأ يستعد لمشروعاته الأخرى ، فكان لابد له أن يضمن هدوء ولاية أفريقيا حتى يستطيع التفرغ لتحقيق هدفه القادم في الشرق ، ومن ناحية أخرى فإن ولاية أفريقيا تعد المصدر الأساسي للقمح إلى روما ، ومن شأن أية مشاكل وخلافات تحصل فيها وخاصة إذا ازدادت حدتها أن تمنع وصول القمح إلى روما وبذلك تحرم روما من مصدرها الوحيد للطعام ، لذلك كان قسطنطين حريص على سلامة هذه الولاية والحيلولة دون وقوع أي بوادر للإنقسام فيها(٢).

تم عقد المجمع الذي سينظر في أمر الدوناتية في روما في ٢ أكتوبر ٣١٣م وقد أحدث البابا بعض التغييرات الشكلية على هذا الاجتماع الذي أراد أن يحوله إلى مجمع كنسي فاستدعى خمسة عشرة أسقفاً من إيطاليا من أنصاره وترأس بنفسه جلسات المجمع وقد حضر دوناتوس وكايكيليانوس ومرافقيهم ، ولم يعترض قسطنطين على ما قام به البابا طالما أن الإطار العام لهذا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ٤٤٦ . ٤٤٧ .

(٢) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص١٢٣.

الاجتماع يسير مثلما أراده قسطنطين ، وكان أهم قرارات المجمع هو تبرئة كايكيليانوس من التهم الموجهة إليه واعتباره هو الأسقف الشرعي لكنيسة قرطاج [1].

٢. مجمع آرل أغسطس ٣١٤م .

لم يقبل الدوناتيون قرارات مجمع روما بحجة أنه تعجل في إصدار قراراته ولم يدرس القضية بشكل صحيح ، لذلك أرسلوا بالتماس إلى قسطنطين لينظر في القضية من جديد ، ومن خلال هذه الرسالة يتضح الدور الذي بدأ الإمبراطور يلعبه في الكنيسة المسيحية فأصبح وكأنه الأسقف الأكبر لها ، فكل الشكاوى والخلافات تُرد إليه ، وهو لم يرفض هذه الشكاوى والطلبات ولم يقل إنها خلافات كنسية داخلية لا يريد التدخل فيها ، بل استجاب لها وحاول التعامل معها بما يرى أنه يزيد من نفوذه وسيطرته على الكنيسة المسيحية. وقد بعث قسطنطين برسالة إلى أسقف سيراكوز بين له فيها مدى الحزن والأسى الذي يعتصر قلبه من جراء هذا الخلاف الحادث في أفريقيا ، وأبدى له رغبته الكبيرة في إنهاء هذا الخلاف **على الفور** ، وكان قسطنطين على أبواب الحرب ضد حليفه ليكينيوس والتي نشبت في أكتوبر ٣١٤م ، لذلك فهو يريد رأب الصدع وبشكل سريع في صفوفه الداخلية ، ولا يستطيع أن يواجه عدوه وظهره ربما يتعرض لسهام الفرق ، وكذلك أراد قسطنطين الاستفادة من أقاليمه الجديدة الغنية بالاقتصاد والمال[2].

التأم هذا المجمع في أول أغسطس ٣١٤م في آرل بحضور كل أساقفة الغرب ، وإذا كان مجمع روما قد عين له ثلاثة أساقفة من روما بالإضافة إلى البابا فإن هذا المجمع أراده قسطنطين أن يكون نهائياً وشاملاً ويحمل صفة العالمية ، فدعى له كل أساقفة المناطق التي تقع في نطاق حكمه ويتضح هذا من خلال ما قاله قسطنطين في رسالته سالفة الذكر " يتعين على الفور إن كان ذلك ممكنا شجبه (الخلاف) بحضور الكثيرين " وتوافد الأساقفة كما دعاهم قسطنطين من كل مكان يصل إليه سلطانه لحسم الصراع وإعادة النظر في قرارات مجمع روما ، ويعلق أحد

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٧ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٢) خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٣ .

المؤرخين على ذلك بقوله " لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القرار الروماني والذي صادقوا عليه بكامل حريتهم "[١].

وجاءت نتائج مجمع آرل لتؤكد على ما جاء في مجمع روما ٣١٣م فقد أدانت دوناتوس من جديد وبرأت ساحة فلكس وكايكيليانوس ، ويبدوا أن قسطنطين استأنس بقرارات هذا المجمع الذي حصل فيه إجماع من كل أساقفة الغرب ، ورأى أنه قضى على الخلاف بتوحد الأساقفة خلف الكنيسة الكاثوليكية والتي تقف في صف الإمبراطورية ، ورأى قسطنطين أنه باستطاعته الآن التفرغ لمحاربة ليكينيوس ، فقام بالهجوم على أراضي حليفه في أكتوبر من نفس السنة واكتسح كل المناطق التابعة له في أوربا ولم يبق في حوزة ليكينيوس في أوربا إلا تراقيا ، وظن قسطنطين بعد هذه الحرب أنه أعاد الهدوء الذي كان ينشده إلى ولاياته ، وأصبح الشرق هو هدفه القادم[٢] ، ولم يكن يتصور أن مسيحيي أفريقيا سوف يفسدون عليه الهدوء الذي حدث بعد مجمع آرل وانتصاره على ليكينيوس في أوربا ، غير إن الأحداث جاءت بغير ما يرجوه ، فالدوناتيون لم يقبلوا بما آل إليه مجمع آرل من نتائج وأرسلوا إلى قسطنطين وطلبوا منه في هذه المرة رأيه شخصياً في هذا الخلاف ، وقد تردد قسطنطين في بادي الأمر في قبول هذا الإلتماس غير إنه قبل الحكم في النهاية ، لذلك دعى الحزبين المتنافسين للمثول بين يديه في سنة ٣١٥م وكان يحتفل بمرور عشرة سنوات على حكمه ، وقبل الدوناتيون الأمر وحضروا إلى روما ، ولم يبت قسطنطين في أمرهم بشكل سريع وانتقل إلى ميلان وحمل معه الأساقفة الدوناتيين وكايكيليانوس وذلك في نوفمبر ٣١٦م وهناك أعطى قسطنطين رأيه في هذا الصراع وجاءت قراراته موافقة لمجمعي روما وآرل ، وأمر بأن يبقى كل من دوناتوس وكايكيليانوس معه في روما وتذهب لجنة من كبار رجال الدين إلى أفريقيا لتقصي حقيقة النزاع وترسيم أسقف جديد لقرطاج يرضى عنه الطرفين ، وتم اختيار أسقفين من قبل قسطنطين ليقوما بهذه المهمة وهما يونوميوس (Eunomius) وأوليمبيوس (Olympius) وقد بقى الأسقفان في قرطاج أربعين يوماً ثم عادا ولم

---

(١) يوسابيوس القيصري ، مصدر سابق ، ص ص٤٤٧ . ٤٤٨ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص١٤٧ . ١٤٨ .

(٢) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٤٧ .

يستطيعا تحقيق ما ذهبا من أجله ، وما لبث أن هرب دوناتوس إلى قرطاج وسرعان ما لحق به كايكيليانوس ، عند ذلك استشاط قسطنطين غضباً خاصة بعد أن وصلت إليه الأنباء من نائبه في أفريقيا تخبره عن سوء الأحوال هناك واضطراب الأمور بين أتباع الفريقين ، لذلك بدأ الرجل الذي أصدر مرسوم ميلان بالخروج عن قرارات هذا المرسوم وذلك بأن بدأ أول اضطهاد للمسيحيين(١)، فأمر بملاحقة الدوناتيين ومنع اجتماعاتهم والتضييق عليهم ، ومصادرة كنائسهم وتسليم كل ما بحوزتهم إلى الخزينة العامة وبما إن السلطات المحلية لاتستطيع قمع الدوناتيين لذلك فقد استعانت بقائد القوات الرومانية في أفريقيا لتنفيذ أوامر الإمبراطورية ، ولكن أعمال العنف اقتصرت على قرطاج ، وقاوم دوناتوس وأتباعه السلطة الرومانية وقتل بعضهم وجرى تشريفهم من قبل الدوناتيين وعدوهم من الشهداء(٢).

ويبدو أن قسطنطين لم يكن موفقاً كثيراً عندما اتخذ قرار اضطهاد الدوناتيين إذ جرت عليه هذه السياسة كثيراً من المشكلات ، فقد راح الدوناتيون يدافعون عن أنفسهم بكل قوة وأخذت مبادئ الدوناتيين تلقى قبولاً في أوساط الفقراء وذلك بسبب معارضتها للوجود الروماني والكنيسة الكاثوليكية التي اعتبروها حليفاً له ، وهذا الاختلاف بين سكان المدن وسكان القرى والأرياف كان منذ أيام الاضطهادات الأولى فبينما وقف سكان المدن وراء روما وديانتها الوثنية تحمل الفقراء من سكان القرى والدواخل ويلات الاضطهاد وأدى ذلك إلى حدوث فجوة في المجتمع بين سكان المدن الذين تأثروا بالرومنة وبين سكان الأرياف الذين حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم ولم يتأثروا كثيرا بسياسة الرومنة التي اتبعتها الإمبراطورية الرومانية طوال فترة وجودها ، وحتى بعد انتشار المسيحية بقى هذا الخلاف بين سكان المدن وسكان الدواخل سائداً ، ويبدو أن الأهالي وجدوا في الدوناتية الفرصة التي يبحثون عنها منذ زمن بعيد ليخلعوا عن أنفسهم قشرة الحضارة الروماني ، وذلك بسبب كرههم الدفين الذي جاء نتيجة لعمليات الاستنزاف الاقتصادي المستمر الذي تمارسه روما على موارد المنطقة التي تمثل قبو القمح للإمبراطورية ، حتى إنه أطلق على أعمال العنف

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٧ ؛ خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ص١٤ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٥١.

(٢) ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص١٢٤ .

التي يقوم بها فقراء الدوناتية "حرب الفلاحين" لذلك فقد لاقت أفكار هذه الطائفة رواجاً كبيراً الأمر الذي مكنها من الوقوف في وجه السياسات الرومانية حتى أجبرت قسطنطين على العدول عن قراراته التي اتخذها ضدهم ويوقف اضطهادهم ، وأرسل كتاب إلى نائبه في أفريقيا يخبره بعفوه عن هذه الطائفة وإنه قد ترك أمر عقابهم إلى الله وأرسل أوامره للأساقفة المنفيين من الدوناتيين بالعودة إلى مناطقهم(١).

وقد أصبح الدوناتيون على درجة من القوة الأمر الذي مكنهم من الاستيلاء على الكنيسة الرئيسية في قسطنطينة التي كان قسطنطين قد أمر ببناءها بنفسه ، وعندما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الإمبراطور لم يستطع أن يفعل شيئا سوى أنه أمر ببناء كنيسة أخرى لهم بجانبها وأمر نائبه في أفريقيا باتباع سياسة معتدلة ومتسامحة مع الجميع لما في ذلك خير البلاد والعباد ولم يحاول التدخل في هذه المشكلة حتى نهاية عهده (٢).

ولم يستطع قسطنطين القضاء على هذه الفرقة نهائياً ، فقد اتبع معها سياسة بين اللين والعنف واللامبالاة ولم يتعامل معها بعنف إلا عندما شعر بأنها من الممكن أن تكون بداية انقسام جديد للإمبراطورية ، والأمر المهم في هذه المشكلة هي أنها تعتبر بداية العلاقة بين الإمبراطورية المتمثلة في قسطنطين والكنيسة ، وقد استطاع قسطنطين الخروج من هذا الصراع أقوى مركزاً وأشد عوداً ووضع تقليداً جديداً وهو إخضاع الكنيسة للإمبراطورية ولسلطته شخصياً ، حتى أصبح فيصلاً أعلى في شؤون الكنيسة فيما ينشأ فيها من منازعات لاهوتية ، وأصبح له حق دعوة مجالس الكنائس في أي وقت ويستطيع من خلالها تمرير قراراته على الكنيسة وله حق طرد الأساقفة وتغييرهم ، وأضفى مكانة مقدسة على نفسه حتى عدّ خادم الكنيسة المختار من عند الله والشبيه بالرسل والقديسيين .

---

(١) خليفة بن ناصر ، مرجع سابق ، ص١٤ ؛ شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٢٩٧.

(٢) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٨ ؛ رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ص١٥٢ . ١٥٣ .

ثالثاً: الخلاف الأريوسي الإثناسيوسي .

بعد أُفول نجم ليكينيوس وانتصار قسطنطين في المشرق وتوحيد جزئي الإمبراطورية تحت سيادته ظن أنه قد أنهي كل المشاكل وتحققت كل أحلامه ، فقد استطاع تصفية كل خصومه وغدا سيد الإمبراطورية الواحد الأوحد ، وكان يأمل أن يلقى في الشرق تلك الوحدة الدينية التي افتقدها في الغرب ، فالشرق هو موطن الديانة المسيحية ففيه نبتت وتزخر أقاليمه بأتباع هذه الديانة ، وقسطنطين هو الذي خلصهم من ليكينيوس الذي سامهم سوء العذاب في آخر أيام حكمه بسبب مسيحيتهم[١] .

وظن قسطنطين أنه سوف يجد فيهم الحليف القوي الذي سوف يساعده في تحقيق كافة مشروعاته وتسيير عجلة نجاحاته ، لذلك نراه ما إن انتصر على ليكينيوس حتى انتقل إلى الشرق وجعله موطناً لإقامته ، ولكنه لم يكن مع المسيحيين في الشرق بأحسن حالاً معهم في الغرب ، فإذا كان الدوناتيون في الغرب قد أفسدوا عليه فرحة انتصاره على مكسنتيوس ، فإن الأريوسيين في الشرق أفسدوا عليه نشوة انتصاره على ليكينيوس وتوحيده للإمبراطورية تحت سيادته ، ولم يكن قسطنطين ليسمح بعد كل ما حققه من انتصارات لأي انشقاق أو خلاف أن يقوض جهوده في الوحدة والقضاء على الحروب الأهلية التي كانت مستعرة طوال فترة القرن الثالث تقريبا ، وكذلك

---

(١). Evsebivs, Vita Const, I . pp 33-34.

فإن جزء الإمبراطورية الشرقي يختلف عن جزءها الغربي لأن أقاليمه غنية بمواردها الاقتصادية والبشرية مقارنة بالغرب ، ومن شأن أي خلاف أو انشقاق أن يشعل حرب داخلية جديدة ربما تؤدي إلى ظهور منافسين جدد يستغلون هذه الموارد ويلتف حولهم الأعوان ويشكل ذلك مشاكلً أخرى لقسطنطين داخل الإمبراطورية[١].

وكان على الكنيسة المسيحية أن تتبنى مختلف المناطق التي كان أتباعها يقطنون بها لأنه يوجد اختلاف كبير في المستوى الحضاري بين شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي ، وثمة تمهيد لانفصال ديني ومذهبي بدأ يحدث بين الشرق والغرب ، وتبعاً لتفاوت المستوى الحضاري ظهر اختلاف في فهم وتفسير العقيدة المسيحية كل حسب اتجاهه وثقافته ، والحقيقة أن هذا الاختلاف في التفسير في شؤون الدين بين الشرق والغرب إنما يرجع إلى القوانين التي بزت الشرق بمستواه الحضاري وتراثه الفلسفي المستمد من الحضارات القديمة التي قامت على أرضه وبمستوى سكانه الذين كان عدد كبير منهم من أهل المدن ، فقد شاعت في الشرق اللغة الإغريقية وانتشرت به المدارس الفلسفية المتعددة وكان يرغب أن يسوغ العقيدة المسيحية في مصطلحات منطقية فلسفية ، أما الغرب بمستواه الحضاري المتواضع حيث الطابع الريفي هو السائد وحيث المستوى الحضاري المتواضع لسكانه الذين تميزوا ببساطة التفكير وسذاجته وانعكس هذا المستوى الحضاري على العقيدة المسيحية عندما انتشرت بينهم ، فبينما كانت اهتمامات الغرب تتعلق بإدارة الكنيسة والعلاقة بين الله والبشر وظلت مشكلة تحديد طبيعة المسيح والثالوث المقدس بعيدة عن قدرات العقل في الغرب ، أما الشرق فقد كانت اهتمامات قادة الكنيسة تتعلق بتحديد طبيعة المسيح والعلاقة بين ثالوث الأب والابن والروح القدس وكان من الطبيعي أن ينتشر المذهب الأريوسي بإطاره الفلسفي في الشرق بينما انتشر مذهب أثناسيوس بإطاره العاطفي في الغرب ، وقد أدى إصرار قادة المسيحية في الشرق على التحديد الفلسفي والمنطقي للثالوث إلى ظهور الخلافات والمنازعات[٢].

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٥٦ .

(٢) نورمان كانتور ، مرجع سابق ، ص ص٦٨ . ٦٩ .

إذن لم يصبح قسطنطين سيداً للإمبراطورية حتى أتته أنباء من الشرق بوجود خلاف بين رجال كنيسة الإسكندرية وانتقل هذا الصراع ليشمل كنائس سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى وهذا الخلاف هو ما عرف بالآريوسية . وقد أخذت اسمها من آريوس (Arius) القس السكندري والذي يقال انه من أصل ليبي[١]، وقد نشب هذا النزاع بين رجال كنيسة الإسكندرية حول خلق السيد المسيح (عليه السلام)[٢] .

وترجع بداية هذا الانشقاق إلى المناظرات التي دارت في الكنيسة المصرية حول بعض المسائل العقدية ، فقد قام خلاف بين ميليتيوس أسقف أسيوط يسانده في موقفه أسقف يدعى آريوس وبين البطريرك بطرس بطريرك الإسكندرية (٣٠٠ . ٣١٢م) واستمر هذا الخلاف لبعض الوقت ثم انتهي وتسامح البطريرك مع آريوس وأعاد مليتوس إلى أسيوط[٣].

وبعد موت البطريرك بطرس أُختير أفيلاس (Achillas) لكنه لم يستمر في منصبه إلا عام واحد ٣١٣م وكان آريوس قد عاد إلى عضوية كنيسة الإسكندرية بعد أن كان البطريرك بطرس حرمه ثم عفى عنه ، بل إن آريوس تقلد منصب أسقف أكبر كنائس الإسكندرية هي كنيسة بوكاليا ، وعند وفاة أفيلاس رشح آريوس نفسه لمنصب البطريركية ولكن الاختيار وقع على إسكندر (Alexander) (٣١٣ . ٣٢٦م) وكان اسكندر هذا كبير السن ولذلك عين معه تلميذه إثناسيوس ليكون مساعداً له وكان عمره سبعة عشرة سنة وهو الذي قاد الصراع ضد آريوس وأتباعه بعد أن أصبح بطريركاً للإسكندرية[٤].

ويبدو أن المصريين وجدوا من خلال تلك الصراعات متنفساً لما يعانونه من ضيق اقتصادي ، وتعبيراً عن عدم رضاهم على المحتل والرغبة في الخروج عليه حتى ولو كان عقدياً ،

---

(١) القس عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، لاهوت المسيح حقيقة إنجيلية تاريخية أم نتاج مجمع نيقية ؟ ، ط١ ، مطبعة المصريين، القاهرة ٢٠٠٧م ، ص٣٣ ؛ مصطفى العبادي ، الإمبراطورية الرومانية النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية ، دار النهضة العربية بيروت ، ص٢٤٨ .

(٢) صبري أبو الخير سليم ، تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٧م ، ص٤٢ .

(٣) محمود سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٤م ، ص٦٦ .

(٤) المرج نفسه ، ص٦٧ .

فإن فترات الاضطهاد العنيف الذي تعرضوا له على أيدي الرومان في أيام دقلديانوس كانت في الحقيقة كأنها حرب تحرير وطنية ، وأن المسيحية كانت تعبيراً ورمزاً عن القومية المستقلة الرافضة للروماني وديانته ومذاهبه الوثنية[١].

ولم تكن هناك معلومات وافرة عن آريوس وحياته ومحل ولادته وتاريخها كما يُجهل كذلك تفاصيل فلسفته الدينية ، لأن رسائله ضاعت ولم يبق منها إلا مقتطفات جاء أغلبها في ردود مخاصميه عليه لاسيما ماكتبه القديس إثناسيوس الكبير خليفة إسكندر وردوده على الآريوسيين [٢]، ومن خلال رسالة لإسكندر أسقف الإسكندرية إلى سميه أسقف بيزنطة يمكن التعرف على بعض تعاليم آريوس وكذلك رسالته إلى زميله أسقف صور ، والرسالة التي بعث بها إلى أسقف نيقوميديا يوسابيوس وتعرف بوثيقة إيمان آريوس ، ومن خلال رسالة إسكندر سالفة الذكر فأن " الله عند آريوس لم يكن دوما أبا ، فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله أبا ، وكلمة الله لم تكن دواما ، ولكنها من العدم نشأت ، فالله هذا الذي لم يكن من ذلك الذي لا وجود له ، وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا . ذلك أن الابن مخلوق لايساوي الله في الجوهر ، ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب ، ليس حكمته الحق ، إنما هو احد الخلائق ، فهو قد نشأ بذات كلمة الله ، وبالحكمة الكامنة فيه . التي بها سواه الله وسواه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق ، والكلمة غريبة عن جوهر الأب ، بعيدة عنه ومنفصلة . والأب .. كيف يصفه الابن ؟ إن الكلمة لا تعرف الأب كنهه . والابن لا يعاين الأب يقيناً . والابن لا يعرف ذات الجوهر هو . من أجلنا جبل . يخلقنا الله به . به إذن يؤدي لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا ، وإذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث في الشيطان ما خجلوا عن الإيجاب ، حاجين انه جُبل وخُلق . فطبيعته للتحول قابلة"[٣].

---

(١) محمود محمد الحويري ، مصر في العصور الوسطى دراسة في الأوضاع السياسية والحضارية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م ، ص٢٨ .

(٢) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص٥٦ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص٣٢ .

(٣) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٥٩ .

وتتلخص آراء آريوس في أن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها الله وأسماها ، وإذا كان الابن من نسل الأب فلابد أن يكون هناك زمن لم يكن فيه الابن ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون الابن متفقا مع الأب في الزمن ، وإذا كان المسيح قد خُلق فلابد أن يكون خلق من غير مادة الأب فهما أي المسيح والأب ليسا من مادة واحدة[١] ، ويعتقد البعض أن الآراء الآريوسية مستمدة من المدرسة الأنطاكية التي كانت تمارس نشاطا فلسفيا منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وكان مؤسسها هو لوقيان (Lucian) السوري ، ويرى ول ديورانت أن هذه العقائد هي امتداد للأفكار المنحدرة من إفلاطون عن طريق الرواقيين ، وفيلون ، وأفلوطينس ، وأوريجن إلى آريوس وبذا أصبحت الإفلاطونية التي كان لها أثر على اللاهوت المسيحي في نزاع مع المسيحية[٢].

وقد ساند آراء آريوس العديد من رجال الكنيسة في الشرق من أهمهم يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي المعروف ، والجدير بالذكر أن هذا الرأي الذي قال به آريوس لم يكن جديداً على المسيحية إذ قال به الآباء الثلاثة الأول للكنيسة في القرن الثالث وهم أوريجن والقديس دونيسيوس السكندري ، وترتليانوس الأفريقي في آخر حياته[٣].

وقد رد إسكندر أسقف الإسكندرية على آريوس قائلاً بأن المسيح سماوياً مقدساً مثل الرب وهو من نفس طبيعة الرب ، بل هو الأب ذاته ، وإن الأب والابن والروح القدس مادة واحدة وقوة واحدة تمثل الصفات الثلاثة لقوة الله على الكون (PaterAtque Filius et Spiritus Sanctus) لهذا لا يمكن فصلهما عن بعضهما أو تقديم أحدهما زمنياً على الآخر وكان رد آريوس على ذلك بأنه لم يناقش طبيعة المسيح ولذلك استخدم مصطلح (Homoiousion) الذي يعني أن المسيح يشبه الأب في الجوهر ، أما إسكندر وتابعه إثناسيوس فقد استخدما مصطلح

---

(١) مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص٢٤٩ ؛ صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٢ .

(٢) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٢ ؛ مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص٢٤٠ .

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٩ ؛ عبدالقادر أحمد اليوسف مرجع سابق ، ص١٧ .

(Homoousion) ، وقد نفي آريوس الألوهية الكاملة عن المسيح فهو رمزي مجازي فقط[١]، وكانت نقطة الخلاف بين آريوس ومعاصريه في غاية الأهمية وهي التي تتعلق بألوهية السيد المسيح وهي نقطة لم تناقش من قبل ولم تعرفها المسيحية قبل هذا التاريخ[٢].

وهكذا نرى أن آريوس قد ناقش هذه القضية من ناحية العقل والمنطق لذا كان أتباعه من المثقفين وفي منطقة الشرق ، أما إسكندر وإثناسيوس فقد ناقشا القضية من ناحية العاطفة والروح ، واعتمدوا في حوارهم مع آريوس على مكانة السيد المسيح في نفوس تابعيه ، وأن أي مس بمكانة المسيح وشخصيته يضعف الدعوة المسيحية ، ولذا كان معظم مناصري إثناسيوس من العامة وانتشر مذهبه في الغرب اللاتيني[٣]، وقد حاول بطريرك الإسكندرية إسكندر إقناع آريوس بخطأه ومخالفته لما جاء به الكتاب المقدس وما تسلمته الكنيسة عن رسل المسيح ، ولكن آريوس أصر على رأيه ، فشكل إسكندر مجمعا دينيا عام ٣٢٠م حضره ١٠٠ أسقف من مصر و ليبيا حكم فيه على آريوس بالحرمان من رحمة الكنيسة ، وأبلغ بهذه الإجراءات التي اتخذها المجمع إلى سائر أساقفة الإمبراطورية[٤].

لكن آريوس لم يقبل قرارات هذا المجمع وأرسل بخطابات إلى بعض الأساقفة الذين كانوا على رأيه ومنهم يوسابيوس أسقف نيقوميديا والذي بعث يقول له : " نحن نضطهد لأننا نقول أن للابن بداية وأن الله بلا بداية هذا هو سبب اضطهادنا ، وأيضاً لأننا نقول أنه من العدم (اللاوجود ex-nihilo) ونقول هذا لأنه ليس جزاً من الله ، ولا من كيان جوهر"[٥] وغادر آريوس الإسكندرية إلى فلسطين وقد استطاع إقناع العديد من المسيحيين برأيه هناك وانتشر مذهبه في آسيا الصغرى ، واستغل صديقه يوسابيوس النيقوميدي صداقته لقسطنطين وحاول استمالته إلى

---

(١) صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٣ ؛ سيد احمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٨٩ .

(٢) محمود سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، ص٦٨ ؛ محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ص٢٩.

(٣) صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٣ ؛ مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص٢٤٩ .

(٤) عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ٤٤ ؛ محمود سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ص٦٨ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٣ .

(٥) عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ٤٥ .

هذا المذهب ، وعقد آريوس مجمعا في بيثينيا (Bithynia) في ٣٢٢م مستفيداً من نفوذ أتباعه ، وقد أدان هذا المجمع قرار مجمع الإسكندرية الذي قضى بطرد آريوس من رحمة الكنيسة ، وطلب هذا المجمع من بطريرك الإسكندرية نقض قراره وإعادة آريوس إلى وضعه الكهنوتي ، فما كان من إسكندر إلا انه أعلن رفضه لقرارات مجمع بيثينيا ، وعقد مجمع آخر أدان فيه آريوس واشتدت حدة النزاع بين الطرفين ودافع آريوس عن نفسه دفاعا مستميتا وألف أناشيد وأهازيج شعبية تدعو إلى نصرته ، لذلك تطلب تدخل الإمبراطورية في هذا الخلاف[١].

قسطنطين والآريوسية .

ترجع بدايات الآريوسية إلى عهد ليكينيوس قبل أن يدخل الشرق تحت سيطرة قسطنطين وكان ليكينيوس ينظر إلى المسيحيين في أيامه الأخيرة على أنهم عملاء لقسطنطين خاصة بعد الرؤيا التي رواها يوسابيوس والتي ادعى فيها قسطنطين أن الصليب قد ظهر له في السماء ولولا أن المسيح شد أزره لما انتصر في معاركه على أعدائه والتي كان آخرها ضد ليكينيوس عندما تنازل الأخير عن كل أقاليمه في أوربا عدا تراقيا[٢] ، لذلك أصدر ليكينيوس في عام ٣٢٠م قرار بإلغاء القرارات الكنسية وحرم إقامة الشعائر المسيحية ، وطرد المسيحيين من بلاطه ومن الجيش ومن أجهزة الدولة ، ولم يفرق ليكينيوس في قمعه بين المذهبين المتصارعين بل إنه أمر بالقبض على زعماء الانشقاق وسجنهم وتعذيبهم[٣].

وعندما توحد لواء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم قسطنطين لأول مرة منذ أربعين سنة ، وأصبح شعاره الجديد حاكم واحد وعالم واحد وعقيدة واحدة ، فقد نجح قسطنطين في توحيد الإمبراطورية سياسياً إلا أن هذا لم يؤثر على حالة الصراع الديني وبقي الشقاق العقائدي محتدماً ، وحقيقة الأمر أن قسطنطين لم يكن يهتم بفحوى الصراع وأي الفريقين أقرب للحقيقة ولا يهمه

---

(١) محمد سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، ص٦٨ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩٠ ؛ عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ٤٥ .

(٢) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٤٧ .

(٣) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص٥٩٠ .

إذا كان الثالوث جوهر واحد أم ثلاثة عناصر مختلفة ولكن الذي يهمه بالدرجة الأولى هو وحدة الإمبراطورية وانسجام الكنيسة وسيرها في فلك الإمبراطورية[١]، وكان قسطنطين في نشوة انتصاره على ليكينيوس عندما أتته أنباء الانشقاق بين كنائس الشرق وكنائس الإسكندرية ولكنه لم يعر هذا الخلاف أهمية كبيرة ، وظن أن مجرد كلمات توبيخ وتقريع منه كفيلة بحسم أمر هذا الخلاف ، لذلك استدعى مستشاره الديني هوسيوس وحمله رسالة إلى كل من آريوس وإسكندر تضمنت بالغ الحرص منه وقلقه من أجل إحلال السلام في الإمبراطورية ، وطالبهما بترك الخلافات على أمور ليست مهمة وتافهة ،وقال لهم أنه لا يجب الحديث في الخلافات الدينية التي ليس من وراءها طائل ، وأن يبقيا أمر الخلافات الدينية داخل الكنيسة ولا تخرج لعامة الناس حتى لا يساء استخدامها ، وبالتالي ربما تفتح باب البيعة وتغشى الجموع هذه الخلافات ، فذلك هو الذي يثير غضب الإمبراطور ، ولكن الآن عليكما أن تتقبلا نصحي لكما وتترفعا عن الخلاف ، لأن هذا الخلاف سوف يؤدي إلى أن يعادي بعضنا بعضاً ويمزق جماعتنا ووحدتنا ، وهكذا نرى قسطنطين يحمل الأسقفان أسباب الصراع ، وأوضح لهما أنه كان من الممكن تجنب هذا الصراع لو أن كل واحد منه لم يصر على رأيه وقدما حق الأخوة بينهما ، واختتم قسطنطين رسالته بقوله : " أعيدوا إلي أياما خوالي وليالي غفت فيها جفوني حتى ينالني بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة"[٢] بهذا الشكل أبدى قسطنطين رأيه في هذه الخلافات الدينية ويتضح من هذه الرسالة مدى جهل قسطنطين بكنه هذا الخلاف ، وإن مبلغ قلق قسطنطين وغياب النوم على جفونه ليس هو انقسام الكنيسة بقدر ما كان خوفه على ما ينجم عن هذا الصراع من فرقة واختلاف بين رعايا الإمبراطورية .

مجمع نيقية (Nicaea) مايو ٣٢٥م ؛ ودور قسطنطين فيه.

عاد هوسيوس إلى نيقوميديا وعند وصوله إلى أنطاكية صادف أن مات أسقفها فيلوجون (Philogonius) وحدث خلاف حول من يخلفه في المنصب بين أنصار الآريوسية وخصومهم

(١)المرجع نفسه ، ٥٩٣ .

(٢) رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٧١ .

ولذلك دعا هوسيوس إلى عقد مجمع في أنطاكية في ديسمبر ٣٢٤م يضم كل الأقاليم التي تتبع أسقفية أنطاكية والتي تشمل سوريا وفلسطين ، وكان من قرارات هذا المجمع هو إدانة آريوس وبعض أتباعه من جديد واختيار أسقف جديد لأنطاكية هو يوساتيوس (Eutstathius) ، وبعث هوسيوس بقرارات هذا المجمع ليس إلى كنائس الشرق ، بل إنه بعث بها إلى روما لنشرها في الغرب[١]، وكان من نتائج ذلك أن بدا النزاع الأريوسي يدخل الغرب ، وأصبحت كنائس الغرب طرفاً في هذا الجدال والتي كانت بمعزل عنه طوال الفترة الماضية ، وإزاء ذلك رأى قسطنطين ضرورة التدخل وبسرعة لحل هذا الخلاف وتطويقه قبل أن يزداد شأنه ويتحول إلى انشقاق سياسي وربما يؤدي إلى حروب داخلية طالما سعى قسطنطين طيلة عشرين سنة على إيقاف نزيفها ، فلو أن هذا الصراع بين آريوس وخصومه بقى داخل أبواب الكنيسة وراح كل منهما يقلب الأرض باطنها وظاهرها على الآخر ما أثار ذلك قسطنطين في شيء ، لأنه ليس مهتماً بأي انقسام ديني داخل الكنيسة يحول الكنيسة إلى عدة ديانات ، بل كان حريص على عدم حدوث انقسام سياسي داخل الإمبراطورية ربما يكون في مظهر ديني ، ولذلك نراه يتصرف بسرعة وينادي إلى عقد مجمع ديني يضم كل أقاليم الإمبراطورية للبت في أمر هذا الخلاف[٢] ، وفي بادئ الأمر كان المجمع يضم النصف الشرقي فقط باعتبار هذا النزاع شأن شرقي ، ولكن عندما رأى أن هذا النزاع قد وصل إلى أوربا وأصبحت كنائس الغرب طرفاً فيه أراد أن يكون هذا المجمع مجمعاً عالمياً يضم كل كنائس الإمبراطورية ، وكذلك فإن قسطنطين قد استفاد من التجربة السابقة التي حدثت في الغرب ، فقد رفض الدوناتيون الانصياع لقرارات مجمعي روما وآرل على أنهما يمثلان كل أساقفة الغرب ، لذلك أراد من هذا المجمع الذي عقد في نيقية أن يكون قاضياً جملة وتفصيلاً على هذا النزاع ، ووعى قسطنطين كذلك الخطر الذي يهدد الإمبراطورية من جراء هذا الصراع ، فإذا كانت الدوناتية قد اقتصر النزاع فيها على مكان واحد وهو أفريقيا ، فإن النزاع الأريوسي قد امتد من الإسكندرية ليشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى حتى امتد أخيراً إلى غرب

(١) عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ٤٥ .

(٢) محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ، ص٢٩.

الإمبراطورية، لذلك رغب أن يحسم الصراع في مرة واحدة وذلك بدعوة هذا العدد الكبير من الأساقفة من كل أقاليم الإمبراطورية(١).

وفي شهر مايو من عام ٣٢٥م عقد أول مجمع عام للكنيسة في مدينة نيقية في بيثينيا (وهي قرية أزنيق (Esnik) الحالية في تركيا) ويقول المسعودي في مروج الذهب : "ولتسع عشرة سنة خلت من حكم قسطنطين بن هلاني اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم ، فأقاموا دين النصرانية"(٢)، واختار قسطنطين هذا الموقع ليكون ملائماً لحضور أساقفة روما وأوربا ولملائمة مناخه أيضاً ، وكذلك ليكون قريباً من قسطنطين ليتمكن من حضوره ومتابعة مناقشاته وقد وضع قسطنطين إمكانات الدولة لخدمة الأساقفة المجتمعين ، فكانت كل تكاليف المواصلات والنقل والإقامة على نفقة الإمبراطورية ليظهر أمام رعاياه الممثلين في رجال الدين المسيحي على أنه راعي المسيحية ويهمه أمر هذه الديانة ، فمع إن الإمبراطور في الإمبراطورية الرومانية يعتبر الكاهن الأعظم (Pontifix maximus) وهو اللقب الذي لم يتخلى عنه قسطنطين أبداً ، فأراد أن يكون الأسقف الأكبر في المسيحية أيضاً والذي إليه ترجع أمور الكنيسة ، وقد اختلف المؤرخون في عدد الأساقفة الذين حضروا المجمع وأغلب الآراء تقدر عددهم بثلاثمائه وثمانية عشر أسقفاً بالإضافة إلى جمع كبير من الكهنة والشمامسة(٣) ويصف أحد المؤرخين الكنسيين الحضور في هذا المجمع قائلاً: " إن زهرة خدام الله من جميع الكنائس المنتشرة في أوربا وأفريقيا وآسيا كانت مجتمعة في ذلك المجمع "(٤)، وكان أغلب الحاضرين من الولايات الشرقية ، وقد حضر هذا المجمع أساقفة كل من الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس (اورشليم) وقرطاج وكليكيا وفنيقيا وليبيا وطيبة وفلسطين وكبادوكيا ومقدونيا وتراقيا وأسبانيا ، كما

---

(١) محمود السيد ، مرجع سابق ، ص٤٨١ ؛ هامرتون ، مرجع سابق ، ص١١٦ ؛ مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص٢٤٩ ؛

Constantine I, Op. Cit

(٢) مرجع سابق ، ص٢٨١ .

(٣) أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٥٩ ؛ محمد سعيد عمران ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، ص٦٩ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ص٥٩٣ . ٥٩٤ ؛ عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ٤٦ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٨ .

(٤) أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٥٩ .

حضر مندوبون عن فارس وبونطس ، كما حضر هذا المجمع الكثير من الزعماء الدينيين ومشاهير علم اللاهوت من أمثال إلسكندر وشماسه إثناسيوس الذي نال شهرة واسعة بعد هذا المجمع وذلك من خلال ردوده ومحاوراته مع المسيحيين ، كما حضره آريوس ويوسابيوس أسقف نيقوميديا ويوسابيوس القيصري وغيرهم(١).

وقد ترأس قسطنطين هذا المجمع الذي التأم في مايو ٣٢٥م وقد صور أحد المؤرخين دخوله للمجلس ، الذي خيم عليه السكوت في انتظار أن يدخل الإمبراطور ، وقبل دخوله سبقه مجموعة من وزرائه ومعاونيه ، ثم دخل هو وكان يلبس ملابس فاخرة مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة ، فانبهر الأساقفة لمظهر الإمبراطور وهبوا جميعاً واقفين تقديراً وتكريماً له ، ثم تقدم للجلوس على كرسي من ذهب أعد له سلفاً ، وقام يوسابيوس القيصري وكان يجلس على يمين الإمبراطور وألقى كلمة رحب بها بالإمبراطور وشكره على حسن صنيعه وما قدمه للدين القويم ، ثم قام قسطنطين وألقى كلمة رحب فيها بالحضور ، وشرح لهم أسباب دعوة هذا المجلس للانعقاد ، وعبر عن إيمانه الشديد بقوة الرب ، وطلب من المجتمعين أن يعملوا جاهدين من أجل إعادة وحدة الكنيسة والقضاء على الخلافات التي تهددها ، ورجا المجتمعين أن تأخذ هذه القضية من النقاش ما يكفي للوصول إلى قرار نهائي يكون في صالح الجميع(٢) ، وقد عبر للأساقفة في هذا المجلس على أمله في أن تلتقي جميع الأطراف على ما فيه صالح الإمبراطورية والكنيسة ، وقد حرص على متابعة جلسات المجمع واستمع بصبر إلى المناقشات التي دارت في المجلس رغم عدم تفقهه بالمسائل الدينية ، وأحيانا كان يشترك في المناقشات بنفسه(٣)، وبعد أن فتح باب النقاش أكد آريوس من جديد على رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ولا يرقى إلى منزلة الرب ، وكانت إجاباته على الأسئلة التي وجهت له منطقية وصريحة وقاطعة ، وعبر عن رأيه في الثالوث

---

(١) سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٥٩٤ ؛ عبدالمسيح بسيط أبوالخير مرجع سابق ، ٤٦ ؛ رأفت عبدالحميد ، مرجع سابق ص١٧٦ .

(٢) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٤ ؛ أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٦٠ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٥٩٤ .

(٣). Evsebivs Vita constantini, pp 30-31 ; Michael Grant, Op: Cit, p 311;
ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٤ .

بكل وضوح وإصرار ، وقد رد إثناسيوس على آريوس بأن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة واحدة ، ونبه إلى أن الشرك سوف ينتصر إذا لم يسلم الجميع بهذا الرأي ، ومع إنه اعترف بصعوبة تصور ثلاثة أشخاص في صورة إله واحد ولكنه اعتمد على إيمان الحضور وعاطفتهم وحماستهم تجاه دينهم وأقنعهم بصدق أقواله وبطلان أقوال أريوس وأتباعه ، وقد وافق أغلب الحاضرون على رأيه واكتسب إثناسيوس بعد هذا المجمع شهرة واسعة وذاع صيته وأصبح له من المكانه ما أهله ليخلف إلسكندر في بطريركية الإسكندرية[١].

ولكن الذي يمكن قوله هنا هو أنه ربما تكون آراء آريوس أقرب إلى الصواب ، لأن النصارى أو فريق اثناسيوس كانوا من شدة حبهم وتعلقهم بالمسيح أوصلوه إلى درجة أن جعلوه إلهاً وساووا بينه وبين خالقه في القدم والجوهر والخلق ، وحتى في مجمع نيقية لم يكن في الحقيقة هذا هو رأي الأغلبية ولكن كانت هذه إرادة الإمبراطور الذي كان يريد أن يظهر المجلس بقرارات يوافق عليها الأغلبية واستعمل قوته ونفوذه على المجتمعين ليخرجوا بهذا الرأي .

قرارات مجمع نيقية .

بالرغم من أن هذا المجمع تناول الكثير من مشاكل المسيحيين في ذلك الوقت ، إلا أن الخلاف حول المشكلة الأريوسية كانت المسألة الأساسية التي تصدى لها المجمع ، لذلك كان كل شغل المجمع هو الوصول إلى صياغة للعقيدة المسيحية يقبلها المسيحيون بفرقهم المختلفة[٢] وقد اقترح قسطنطين إضافة عبارة أن الأب والابن من طبيعة واحدة (Homoousion) فقبلها أغلبية الحاضرون من القساوسة بما فيهم آريوس وأتباعه ، وكان من نتائج المحاورات التي دارت بين طرفي النزاع في المجمع أن أيد أكثرية الأساقفة رأي إثناسيوس عدا سبعة عشر رفضوا توقيع قرار إدانة ضد آريوس ، ولكنهم تحت الترغيب والترهيب من قبل قسطنطين أجبروا على التوقيع على قرارات المجمع ولم يرفض التوقيع في النهاية إلا اثنين هما يوسابيوس أسقف نيقوميديا وثيوجنيس

---

(١) عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، مرجع سابق ، ص٤٨ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٥٩٤ .

(٢) مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص٢٥٠ .

أسقف نيقية بالإضافة إلى آريوس الذي لم يتزحزح عن أرائه قيد أنملة فحُكم عليه باللعنة والحرمان ، ونفى الأسقفين الذَين لم يوقعا على قرارات المجمع ، وفرضت عقوبات شديدة على أتباع آريوس ، وأمر بحرق كل كتب آريوس وجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها القانون(١).

لقد ظن قسطنطين أنه جسّر للتحالف بين الكنيسة والإمبراطورية عبر هذا المجمع ، وأنه قد أنهى هذه المشكلة من خلال توقيع معظم المجتمعين على قرارات المجمع ، وأنه قد كسب الجولة الثانية على (أعداء الرب) ، ولعب بخياله أنه تحصل على النصر في الميدان والعقيدة ويبدو ذلك واضحاً من خلال كلمته التي ألقاها في اختتام أعمال المجلس والتي يقول فها : " لم يعد للشيطان حول علينا ولا قوة حيث أن مخططاته الرامية للقضاء علينا قد نسفت من أساسها إن العناية الإلهية قضت على عوامل الانقسام والفتنة "(٢)ولذلك اتجه قسطنطين إلى إصلاح الشرائع الرومانية ، وبناء عاصمة جديدة للإمبراطورية ، وكان من الأمور التي ناقشها مجمع نيقية هي تحديد يوم الفصح في أول يوم أحد يأتي بعد اكتمال القمر ، وقرر المجلس كذلك أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة في يوم واحد يحدده كل عام أسقف الإسكندرية ويذيعه أسقف روما ، كما قرر المجلس أن يمارس أسقف الإسكندرية سلطته على مصر وليبيا والمدن الخمس مثل أسقف روما في الأقاليم التابعة له ، وبذلك كانت كنيسة الإسكندرية في المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، وناقش المجمع الخلاف بين ميليتوس أسقف ليكوبولس (أسيوط) وبين أسقفية الإسكندرية وانفض المجلس بعد أن أصدر عشرين قانوناً كنسياً من أجل تنظيم الكنيسة الكاثوليكية (Universal)*، ووضحت في هذا المجمع العقيدة المسيحية التي يؤمن بها أغلب المسيحيين إلى

---

(١) صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٤ ؛ هسي ، مرجع سابق ، ص٧٦ ؛ أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٦٠ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٥ ؛ محمود السيد ، مرجع سابق ، ص٤٨٢ .

(٢) عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٨ .

* أي العالمية ، فحتى القرن الخامس لم يكن ثمة فرق بين هذا الاسم وبين لفظ أرثوذكسي (المستقيمة) فكان اللفظتين يطلقان على الكنيسة باعتبارها الكنيسة الجامعة والمتحدة : سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ص ٥٩٤ .

يومنا هذا ، وفي رأي البعض أن هذه المشكلات تمثل نقطة التحول من الإمبراطورية الرومانية القديمة إلى الإمبراطورية الرومانية المسيحية التي عرفت في العصور الوسطى[١].

ولكن هذا المؤتمر لم ينجح في القضاء على الآراء الآريوسية ، فيبدو أن الكثير من الذين وقعوا على قرارات المجمع وقعوا مكرهين وتحت ترغيب قسطنطين ووعيده ، ولكنهم في خاصة نفوسهم لم يقتنعوا بتلك القرارات ، فما إن انفض المؤتمر وعاد الأساقفة إلى أقاليمهم حتى عاد أتباع آريوس إلى نشر عقيدته من جديد في مصر وخارجها ، وراحوا يذيعون أن مجمع نيقية لم يتوخ العدالة في بحث الآراء الآريوسية ، وأن قراراته جاءت لترضي الإمبراطور على حساب الكنيسة ، وأن آريوس وأنصاره تم نفيهم دون وجه حق ، ووجدوا في ذلك فرصة لجلب الأنظار إلى قضيتهم ، وأخذت الآراء الأريوسية تلقى قبولاً كبيراً خاصة في جهات آسيا الصغرى وسوريا وعبر الدانوب بين قبائل القوط الجرمانية ، حتى أُجبر الإمبراطور قسطنطين على تغيير رأيه فيهم ، ورأى أن يوازن بين طرفي النزاع (آريوس وإثناسيوس) وحاول قسطنطين إرضاء آريوس وطائفته بعد أن انتشرت آراءه في معظم أجزاء الإمبراطورية وأصبحت قوة لا يسعه غض الطرف عنها ، فأراد أن يبادر هو ليكون حليفا لها قبل أن تجهر بالعداوة ضده[٢].

رابعاً: نتائج الاعتراف بالمسيحية.

---

(١) صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٤ ؛ سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ص ٥٩٦ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ص٣٩٦ .

(٢) صبري أبوالخير سليم ، مرجع سابق ، ص٤٦ ؛ عبدالقادر أحمد اليوسف ، مرجع سابق ، ص١٨ ؛ أندرو ملر ، مرجع سابق ، ص١٦٠ ؛ ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص٣٩٦ .

لقد كان التحالف بين الكنيسة الكاثوليكية والإمبراطورية وحمايتها ثم الاعتراف بها في غير صالح الكنيسة ، فلم يجلب لها الوحدة الدينية التي كانت تتمتع بها عندما كانت مستقلة عن الإمبراطورية ، بل إن هذا التحالف أدى إلى ظهور انشقاقات جديدة داخل المسيحية مثل الدوناتية والأريوسية والمليتية ، وأدى هذا التحالف إلى انقسام الكنائس المسيحية ، فقد ظهر خلاف بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة روما كما أدى إلى افتراقهما إلى الأبد ، فبالرغم من أن تحالف الكنيسة مع الإمبراطورية دعّم مركز الكنيسة وأصبحت لها صفة الشرعية والقانونية وزاد هذا التحالف من ثرائها مادياً وفتح أمامها أفاق جديدة في الداخل والخارج ، وفي ميدان التبشير تضاعف عدد المسيحيين بعد مراسيم التسامح حتى أصبحت الديانة المسيحية الديانة الرسمية واضطهدت أتباع الوثنية ، ولكن ارتباطها بالأمور التي تخص القيصر أدى إلى العديد من العواقب السياسية السيئة عليها ، فبدأ القيصر يتدخل في كل شؤون الكنيسة ، وقد ظهر ذلك جلياً في مجمع نيقية فكان قسطنطين هو الذي نادى له ووضع جدول أعماله وترأسه ووجه المناقشات في المجلس بل إنه اقترح نصاً في جوهر العقيدة أصبح أحد أعمدة قانون الإيمان المسيحي بعد ذلك رغم عدم إلمامه بأمور العقيدة ، والأمر الذي يدعو للتساؤل هنا أنه إذا كان قسطنطين قد سمح لنفسه أن يفعل ذلك فكيف يسمح له الأساقفة أن يتدخل في شؤون الكنيسة فقد اقترح قسطنطين الصيغة الحاسمة التي أظهرت علاقة المسيح بالله في الدستور الذي أصدره مجمع نيقية(١).

وأصبح من خلال عقد المجامع الكنسية باستطاعة الإمبراطور تقديم أسقفية على أخرى تبعاً لرغبة الدولة ومجلس الشيوخ ، ولم تعد مكانة الأسقفيات ترجع إلى أن بناءها كان على يد الرسل أو المؤمنين الأوائل من المسيحيين بل أن أهميتها تكون وفقاً لارتباطها بالإمبراطورية.

وكان قسطنطين يمنح المسيحيين المراتب السامية ويكرم مثواهم ويخصهم بالنعم دون الوثنيين مما أغرى الكثير من الناس للدخول في الديانة الجديدة ، ولكن هذا الأمر تضررت به المسيحية أكثر مما انتفعت به ، فقد كان الناس يدخلون إلى المسيحية قبل مراسيم التسامح لغايات سامية وعن إيمان خالص واستعدوا لقبول ما وعدوا به من الاضطهاد والضيق ، ولذلك كان الذين

---

(١) رأفت عبدالحميد ، الدولة والكنيسة ، ص١٨٤ .

دخلوا فيها من أفضل الناس سيرة وأحسنهم أدباً وعاد ذلك بأثر إيجابي على المسيحية ومصداقيتها أمام الناس ، ولكن بعد التحالف بين الإمبراطورية والمسيحية صار الكثير من الذين ينضمون إلى المسيحية إما إرضاء للإمبراطور أو طمعاً في الحصول على المراتب(١).

وكان للإعتراف بالمسيحية آثار واضحة على الحكومة الرومانية في اتجاهين فالمفاهيم الشرقية عن السلطة الإمبراطورية كان لابد من إعادة النظر فيها ، فكان يجب وضعها في إطار العقيدة الجديدة والأفكار المسيحية ، وأيضا كان لابد من دمج المتطلبات الخاصة والادعاءات بالسيادة للكنيسة المسيحية في إطار أداة الحكم(٢).

أما بالنسبة للإمبراطور فلم يعد ينظر إليه على إنه إله كما كان عند الرومان قبل الاعتراف بالمسيحية والذين أخذوه عن الأمم الشرقية القديمة (كبابل وأشور ومصر وغيرها) ولكن تغيرت النظرة إلى الحاكم وأصبح إنساناً مقدساً فهو اختير من الله ليخلفه في حكم الأرض وأحاط الإمبراطور الروماني نفسه بمراسم مسيحية فقد ترك الجانب الأيسر من عرشه للمسيح وأحياناً يجلس الإمبراطور فيه في الأعياد والمناسبات الكبرى باعتباره ممثلاً للمسيح ، وحتى الترانيم والهتافات التي تطلق في وجه الإمبراطور كانت عبارة عن ترانيم وأدعية وتسابيح مسيحية من مثل " ألا فليحفظ الله المسيح ، واهب كل الحياة ، عهدك وعظمتك ، وليدفع الأمم عبر كل العالم لتسعى إليك تقدم الجزية لسلطانك ، كما قدم المجوس الهدايا إليه (المسيح)"(٣).

وبعد اتخاذ قسطنطين جانب المسيحية زال العداء القديم الذي كان قائماً بين الإمبراطورية والمسيحية بتبعية صاحب الجلالة الأرضية لصاحب الجلالة السماوية ، واستفاد قسطنطين من هذا في إعادة الوحدة للنظام السياسي الذي كان مهدداً بالتمزق منذ قرون وأصبحت الكنيسة عضواً في الدولة ونالت وضعاً قانونياً ، واعترف بالأساقفة كقضاة في الدولة وزادت الكنيسة من تماسك الدولة وأنقذتها من السقوط ، واستطاعت الكنيسة استيعاب جميع شعوب الإمبراطورية حتى

---

(١) هارفي بورتر ، مرجع سابق ، ص٥٤٨ .

(٢) هسي ، مرجع سابق ، ص١٩٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص١٩٨ .

البرابرة تحت راية واحدة ، وحاولت المسيحية بناء دولة رومانية مسيحية قامت على إرث قديم ومثل وعقيدة جديدة[١].

والذي يتبادر إلى الذهن هو أن الاضطهاد الروماني للمسيحيين قد توقف بعد تحول الدولة إلى المسيحية بداية بالشرعية ثم الرسمية ، لكن ذلك لم يحدث فإن ما لاقاه المسيحيون على يد بني عقيدتهم أكثر مما لاقوه على يد الوثنيين ، ويرجع ذلك إلى تباعد وجهتي النظر بين الفكر السياسي الروماني والاعتقاد الكنسي ، فقد كان رجال الدين المسيحي يرون في التقارب مع الإمبراطورية الفرصة التي كانوا يبحثون عنها منذ ثلاثة قرون لقيام مملكة الرب ، ومع إنهم كانوا يؤمنون بأن هناك ما يخص القيصر وما يخص الله ، ولكنهم رغبوا في أن يكون ما يخص القيصر خاضعا لعقيدتهم ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل عندما اصطدم مشروعهم بالفكر السياسي الروماني الذي لم يكتفي بما يخصه بل إنه تدخل في خصوصيات الكنيسة حتى إن الكنيسة فقدت بعض مهامها ، وظن رجال الدين المسيحي أن دولة على رأسها حاكم مسيحي لابد أن يكونوا هم رجالها ، ولكن هذا لم يحصل بل الذي حصل هو أن الكنيسة أصبحت مرغمة على الرجوع إلى الإمبراطور في كل أمرها ، وزادت سلطة الإمبراطور بصورة واضحة بعد التحول التدريجي للمسيحية ، فقد كان الإمبراطور الروماني في ظل الأرباب هو الإمبراطور الروماني في ظل رب المسيحية لم تتغير إلا عقيدته ، فالإمبراطور الذي كان (الكاهن الأعلى) في الوثنية أصبح (الأسقف الأعلى) في المسيحية ، ولكن سلطاته أصبحت تفوق ما كان له في الوثنية ، فقد خاطب قسطنطين يوماً جمعاً من الأساقفة بقوله: " حقاً إنكم أساقفة ، لكن سلطانكم داخل الكنيسة ، أما أنا فقد رسمني الله أسقفاً لأرعى أولئك الموجودين خارج الكنيسة"[٢] ، ومن خلال كلمات قسطنطين هذه يتضح أن صلاحيات الإمبراطور في زمن المسيحية فاقت صلاحياته في زمن الوثنية ، فبينما كان لقب الكاهن الأعظم مجرد لقب شرفي تقليدي لاتصل صلاحياته إلى الممارسة العملية في العقيدة الوثنية ، كانت صلاحيات الإمبراطور الروماني المسيحي تفوق صلاحياته عملياً رئيس الأساقفة في القسطنطينية ، بل والبابا نفسه في روما ، وأصبح الإمبراطور

(١) بيار غاريمال وجون أوبوايه ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٧ . ٢٢٨ .

(٢) رأفت عبدالحميد ، العقيدة والسياسة ، ص٤٦ .

يتدخل في كل أمور العقيدة بالحذف والإضافة ويقرر المعتقد الذي يراه صالحاً للرعية سواء كان يعلم شيئا من أمر اللاهوت أم لم يعلم ، وغدت الكنيسة دائرة من دوائر الدولة تتبع الإمبراطور مباشرة وأسقفها موظفا لديه يعينه ويعزله أنّى شاء ، وإذا كان الفكر الروماني الوثني قد رفض أن تحصل الكنيسة على أي كيان داخل الإمبراطورية أو بتعبير أدق دولة داخل دولة ، فإن الفكر الروماني المسيحي كان أشد إصراراً على رفض هذا التعبير ، ورفض أي استقلال للكنيسة عن سلطة الدولة متخذاً من المسيحية نفسها دليلاً ونصيراً[١].

وهناك من يربط بين سقوط روما والاعتراف بالديانة المسيحية لأن هذا الدين كما يزعم أصحاب هذا الرأي قد قضى على الديانة القديمة لروما والتي كانت الدعامة الروحية للشعب الروماني والدعامة السياسية للإمبراطورية ، وكذلك فإن هذا الدين قد حارب العلم والفلسفة والأدب والفن ، وجاء بالتصوف الشرقي الذي حوّل الناس من العمل للصالح العام بالإخلاص للدولة والدفاع عنها ، إلى السعي للنجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، ومع إن هذا الاتهام لا يخلو من بعض الحقيقة إذ أنه كان للمسيحية نصيب في انهيار روما عندما شجعت أتباعها على عدم تولى المناصب العامة وعدم أداء الخدمة العسكرية ، والاستعداد لليوم الذي تسقط فيه الإمبراطورية والذي تنبأ به أتباع هذا الدين[٢] ، ولكن ضعف الإمبراطورية قد بدأ يظهر قبل انتشار هذا الدين ، بل إن انتشاره كان نتيجة لضعف الإمبراطورية وليس سبباً فيه فعندما كانت المسيحية تنمو وتتمدد كانت روما في طور الاحتضار والأفول.[٣]

الخاتمة

(١) رأفت عبدالحميد ، العقيدة والسياسة ، ص ص٤٦.٥٠ .

(٢) جمعه البشير الحراري ، مرجع سابق ، ص٢٦٨ ؛ سيد أحمد الناصري ، الروم والمشرق العربي ، ص٢٦.

(٣) ول ديورانت ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٨ . ٤٠٩ .

ربما يكون هذا البحث قد أشار إلى شيئين أحدهما التأثير الشرقي في الإمبراطورية الرومانية في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية منذ بداية الميلاد والذي بدأ أكثر وضوحاً في زمن قسطنطين ، والآخر علاقة المسيحية (الديانة الشرقية) بالإمبراطورية طوال تلك الفترة وبشكل أكثر تفصيلاً في زمن قسطنطين .

فقد بدأ التأثير الشرقي يظهر في الإمبراطورية الرومانية منذ ما قبل الميلاد وازداد اتجاه الإمبراطورية نحو الشرق منذ استيلاء الرومان على الشرق بعد معركة أكتيوم سنة ٣١ق.م فهذا التأثير الشرقي لا يظهر من خلال دخول المجندين من الشعوب الشرقية أو انسياب عبادات وعقائد هذه الشعوب إلى داخل الإمبراطورية ، بل إن التأثير الشرقي في الإمبراطورية كان أشد من ذلك في كل نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى أن أسر شرقية كانت قد حكمت الإمبراطورية في القرن الثالث وهي أسرة سبتيميوس سيفيروس ، وكذلك أصبحت الولايات الشرقية هي مركز الثقل الاقتصادي والبشري للإمبراطورية ، ولم تحقق الإمبراطورية الرومانية إلا تجمع سطحي لحضارات البحر المتوسط ، ولم تستطع أن تصبغ ألا فئات قليلة بالصبغة الرومانية ، على حين بقيت جموع السكان محافظة على شخصيتها اللغوية والدينية التي تعود في أصلها إلى عصور قديمة ، وما إن بدأت تظهر مشاكل روما العسكرية والاقتصادية حتى ظهرت هذه الحضارات وفرضت نفسها بقوة على الإمبراطورية الرومانية خاصة في جزءها الشرقي ، حتى أصبحت السلطة الرومانية مجرد واجهة فقط ، وأصبح سعي روما لصبغ العالم بصبغة رومانية لم تكن أكثر من تسرب ضحل وُوجهَ بمقاومة الحضارات الوطنية الشرقية .

وقد ازداد اتجاه الإمبراطورية نحو الشرق في زمن دقلديانوس وقسطنطين ، والذي في زمنهما انتقل مركز الإمبراطورية من روما باتجاه الشرق فكانت عاصمة دقلديانوس في نيقوميديا في آسيا الصغرى ، ولكن في زمن قسطنطين ربما بدأت تتحول الإمبراطورية أو جزءها الشرقي إلى دولة شرقية بواجهة رومانية وذلك بعد بناء العاصمة الجديدة (القسطنطينية) في الشرق ، والاعتراف بالديانة المسيحية ديانة شرعية في الإمبراطورية الرومانية .

وقد استطاع قسطنطين أن يوجد توازناً بين كل التناقضات في الإمبراطورية فقد جمع في قصره الكهنة والقواد العسكريين الوثنيين إلى جانب المستشارين الدينيين المسيحيين ، وأوجد توازناً كذلك في تعامله مع شطري الإمبراطورية فقد كان مستشاره الديني هوسيوس أسقف قرطبة وهو الرجل الذي ترضى عنه الأوساط الدينية في غرب الإمبراطورية ويوسابيوس أسقف قيصرية في الشرق والذي نال رضا كافة الأطراف المتنازعة ، وحاول قسطنطين أن يرسخ لخلفائه أسس العلاقة الجديدة بين الإمبراطورية والمسيحية عن طريق الشراكة السياسية .

ويتضح من خلال هذه الدراسة أن ما قام به كل من دقلديانوس وقسطنطين من إصلاحات إدارية واقتصادية لم تفلح في إنقاذ الإمبراطورية من أزمتها بل إن تلك الإصلاحات أتت بنتائج سلبية على الإمبراطورية ووحدتها ، فقد زاد التقسيم الرباعي التنافس بين الساسة وأشعل نار الحرب الأهلية والتي كان يُراد إطفاء لهيبها بهذا التقسيم ، وكذلك بالنسبة لموقف دقلديانوس من الديانة المسيحية التي اضطهدها فإن هذا هو الذي زاد من صلابة المسيحيين وتمسكهم بدينهم وبالتالي كان من بين الأسباب التي جعلت قسطنطين يعترف بديانتهم رسمياً ،

وكانت تلك الإجراءات التي وضعها قسطنطين من الاعتراف بالمسيحية وبناء عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق بداية لتغير ملامح الإمبراطورية وأصبحت وكأنها تنتقل إلى طور جديد وفترة أخرى تغيرت فيها الكثير من ملامحها السياسية والحضارية والثقافية وظهر ما عرف بالإمبراطورية البيزنطية الشرقية وريثة الإمبراطورية الرومانية والحضارة الإغريقية فقامت هذه الدولة في عالم شرقي الديانة وإغريقي اللغة وروماني السيادة .

ولكن أعمال قسطنطين من الاعتراف بالمسيحية وإقامة مدينة قوية لتكون خط دفاع أمامي عن الإمبراطورية ضد غزوات الفرس والبرابرة مع أنها تعد مفاخر للإمبراطور قسطنطين وتعتبر مظاهر قوة واستقرار الدولة فقد أنهت الخلافات والصراع الديني داخل الإمبراطورية ، ولكن هذه الإصلاحات لم تمنع الإمبراطورية من السقوط وإن كانت حافظت عليها وأجلت سقوطها إلى قرن آخر ، وكانت فترة حكم قسطنطين كافية لإعداد المسيحية ومنحها الفرصة لقيادة العالم الروماني في القرن الخامس ، ولكن يبدو أن الدواء الذي وصف للإمبراطورية أكثر سوءاً من الداء فكان

تدهور العالم الروماني يسير متوازياً مع نهوض المسيحية وانتصارها . وبدأت فترة الضعف والتقهقر للإمبراطورية الرومانية خاصة مع تزايد هجمات البرابرة وانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي إلى أن سقطت روما نفسها في القرن الخامس الميلادي ، وكذلك ظهور الإسلام في القرن السابع والذي أنهى الوجود البيزنطي في المنطقة العربية وهدد القسطنطينية نفسها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمترجمة.

١. القرآن الكريم.

٢. الكتاب المقدس ، العهد الجديد .

٣. ابن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم . محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالرحمن الشيباني المعروف بابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد الأول ، دار صابر بيروت لبنان ، ١٩٩٥م .

٤. أبي الحسن علي بن الحسين علي المسعودي ، المتوفي سنة ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول)، تحقيق مصطفى السيد بن أبي ليلى ، المكتبة التوفيقية القاهرة ٢٠٠٣م .

٥. أورسيوس ، تاريخ العالم ، الترجمة العربية القديمة ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٦. يوسابيوس القيصري ، تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقس داود ، ط٣ ، شركة هارموني للطباعة ، القاهرة ١٩٩٨م .

ثانياً : المصادر الأجنبية .

1.Evsebivs, Vita Constantine 2nd Edition, Grand Rapids publisher, Dallas, 1997.

2. Josephus, Antiquities, World Wide Web, Volume18, chapter 5, 2nd heading.

3. Tacitus, The Annals, Alfred John Church and William Jackson. Brodribb, international and pan-American, World Wide Web presentation, 2000.

4. Pliny, Letters, transl. by William Melmoth, rev. by W.M.L. Hutchinson (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1935), vol. II.

ثالثاً: المراجع العربية والمترجمة.

١. إبراهيم خميس إبراهيم وآخرون ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ٢٠٠٤م.
٢. ادوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبودرة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، د.ت .
٣. أسد رستم ، تاريخ الروم ، الجزء الأول ، دار المكشوف بيروت لبنان ، ١٩٥٥م .
٤. اسماعيل نوري الربيعي ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى دراسة في توزيع القوى السياسية ، دار شموع الثقافة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١م.
٥. أمين القضاة ، محمد أحمد الخطيب ، أديان وفرق ، المكتبة الوطنية عمان ، الأردن ١٩٩٠م .
٦. أندرو ملر ، مختصر تاريخ الكنيسة ، ط٤ ، شرطة الطباعة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٣م.
٧. أندريه أيمار وجانين أوبوايه ، تاريخ الحضارات العام **روما وامبراطوريتها** ، ترجمة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبوريحان ، ط٣ ، منشورات عويدات ، بيرون – باريس ، ١٩٩٤م .
٨. ب.هـ. ورمنقتن ، تاريخ ولايات شمال أفريقيا الرومانية من دقلديانوس إلى الاحتلال الوندالي ، ترجمة عبدالحفيظ فضيل الميار ، طرابلس ، ١٩٩٤م .
٩. تشارلزوورث ، الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة رمزي عبده جرجس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٩٩م .
١٠. توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في الجاهلية والإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٩١م .
١١. ج . ج . كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١م .
١٢. جايمس هنري برستد ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م .
١٣. جميل حمداوي ، من أبطال المقاومة الأمازيغية :وناتوس ، الحوار المتمدن ، العدد ١٩٩٢ ، ٢٠٠٧/٧/٣٠م ، www.rezgar.com/debat .
١٤. جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ . ١٤٥٣م) ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية د.ت .

١٥. حسن صبحي بكري ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، عالم الكتاب للنشر ، الرياض ، ١٩٨٥ .
١٦. حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ط٥ ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٩٥م .
١٧. ر. هـ. بارو ، الرومان ، ترجمة عبدالرزاق يسري ، مراجعة سهير القلماوي ، دار نهضة مصر ١٩٦٨م .
١٨. راعي كنيسة اللاذقية ، تاريخ المسيحية أضواء على التاريخ المسيحي في القرون الخمسة الأولى ، ٢٠٠٣م ، www.revameer.com ، موقع القس أمير اسحق .
١٩. رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٧م .
٢٠. ـــ ، الإمبراطورية البيزنطية ، الجزء الأول العقيدة والسياسة ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ٢٠٠٠م .
٢١. ـــ ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني (قسطنطين) ، ط٢ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٢م .
٢٢. رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، د.ت .
٢٣. رشيد الناظوري ، تاريخ المغرب الكبير ، **الجزء الأول** ، العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م .
٢٤. ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، م زكي علي مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١م .
٢٥. سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ط٦ ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٧٥م .
٢٦. سيد أحمد الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، ط ٣ ، دار النهضة العربية القاهرة ، د.ت .
٢٧. ـــ، الروم والمشرق العربي ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٩٣م .
٢٨. السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣ . ١٠٨١م ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٨٢م .

٢٩. ــ ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ١٩٦٨م.

٣٠. السير هامرتون ، تاريخ العالم ، الجزء الثالث (الإمبراطورية في دور الانحلال ٢١١ . ٣٣٠م) ، ترجمة محمد غنيم ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت.

٣١. شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية من البدء إلى الفتح الإسلامي ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٥م .

٣٢. صابر طعيمه ، الأسفار المقدسة قبل الإسلام ، عالم الكتاب ، بيروت ١٩٨٥م .

٣٣. صبري أبو الخير سليم ، تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٧م .

٣٤. عباس محمود العقاد ، حياة المسيح ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ٢٠٠٣م .

٣٥. عبد الرزاق رحيم صلال الموحي ، العبادات في الأديان السماوية ، اليهودية . المسيحية . الإسلام، الأوائل للنشر والتوزيع ، دمشق ٢٠٠١م .

٣٦. عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا بيروت ١٩٨٤م .

٣٧. عبدالمسيح بسيط أبوالخير ، لاهوت المسيح حقيقة إنجيلية تاريخية أم نتاج مجمع نيقية ؟ ، ط١ ، مطبعة المصريين ، ٢٠٠٧م .

٣٨. عرفان شهيد ، روما والعرب ، ترجمة محمد فهمي عبدالباقي محمود ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة د.ت .

٣٩. فشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط٥ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦م .

٤٠. فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجز آن الأول والثاني ، ترجمة جورج حداد عبدالكريم رافق ، مراجعة جبرائيل جبور ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، د.ت .

٤١. ل. م . هارتمان و ج . باركلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١م .

٤٢. مبارك محمد المنير ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٦٧م .

٤٣. محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية د.ت .

٤٤. محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ط٣ ، الاسكندرية ٢٠٠٠م.
٤٥. ــ ، معالم التاريخ الأوربي الوسيط ، مكتبة الجمهورية الاسكندرية ١٩٩٩م .
٤٦. محمود السيد ، التارخ اليوناني والروماني ، مؤسسة شباب الجامعة ، ٢٠٠٠م .
٤٧. محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٢م .
٤٨. ــ ، مقالات في تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، دار المعرفة الجامعية بيروت ، ٢٠٠٤م .
٤٩. محمود محمد الحويري ، مصر في العصور الوسطى دراسة في الأوضاع السياسية والحضارية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م .
٥٠. مصطفى العبادى ، الإمبراطورية الرومانية :النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية دار النهضة العربية بيروت ،١٩٨١م .
٥١. نور الدين حاطوم ، الموسوعة التاريخية الحديثة ، تاريخ العصر الوسيط في أوربة الجزء الأول (من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر) دار الفكر ، ١٩٦٧م .
٥٢. نورمان بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، ط٢ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة د.ت .
٥٣. نورمان كانتور ، العصور الوسطي الباكرة القرن الثالث / القرن التاسع الميلادي ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة د.ت .
٥٤. هـ. سانت ل.ب.موس ، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ . ٨١٤م ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد والسيد الباز العريني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م .
٥٥. هارفي بورتر ، موسوعة مختصر التاريخ ، ط١ ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ١٩٩١م .
١. هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبدالحميد ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٧م .
٢. ورن هلستر ، أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة محمد فتحي الشاعر ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٨٨م.
٣. ول ديورانت ، قصة الحضارة (قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية) ، ترجمة محمد بدران ، ، دار الجيل بيروت ، د.ت .

رابعاً : المراجع الأجنبية.

1. Michael Grant, History of Rome, Faber and Faber, London. Boston 1979.
2. Abdulhafid Fadil Elmayer, Tripolitania and the roman empire (B.C 47–A.D 235), Markaz Jihad Al-Libyin–studies centre series.8, Dar Al-kotob, Tripoli 1997.
3. http://en.wikipedia.org/wiki/Constantine_I.

خامساً : الرسائل العلمية.

١. امحمد عبدالسلام أبوالقاسم السوفال ، ليبيا في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ . ٣٠٥م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، اشراف عبدالسلام محمد شلوف ، جامعة السابع من أبريل ، الزاوية ٢٠٠٥م .

٢. جمعة البشير الحراري ، الحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية في ولاية أفريقيا البروقنصلية ٣١ ق م . ٢٨٤ م ، إشراف عبد الحفيظ الميار ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة السابع من أبريل ، الزاوية ليبيا ٢٠٠٤م .

سادساً : الدوريات.

١. خليفة بن ناصر ، الدوناتية **Donatium** من مظاهر المقاومة للسيطرة الرومانية في شمال أفريقيا ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة الخامسة العدد الأول ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس١٩٩٣م.

٢. عبدالحفيظ فضيل الميار ، ظاهرة الأضحية البشرية في الديانة الفنيقية ، مجلة آثار العرب ، العدد الحادي عشر والثاني عشر ، طرابلس ١٩٩٩م .

الملاحق



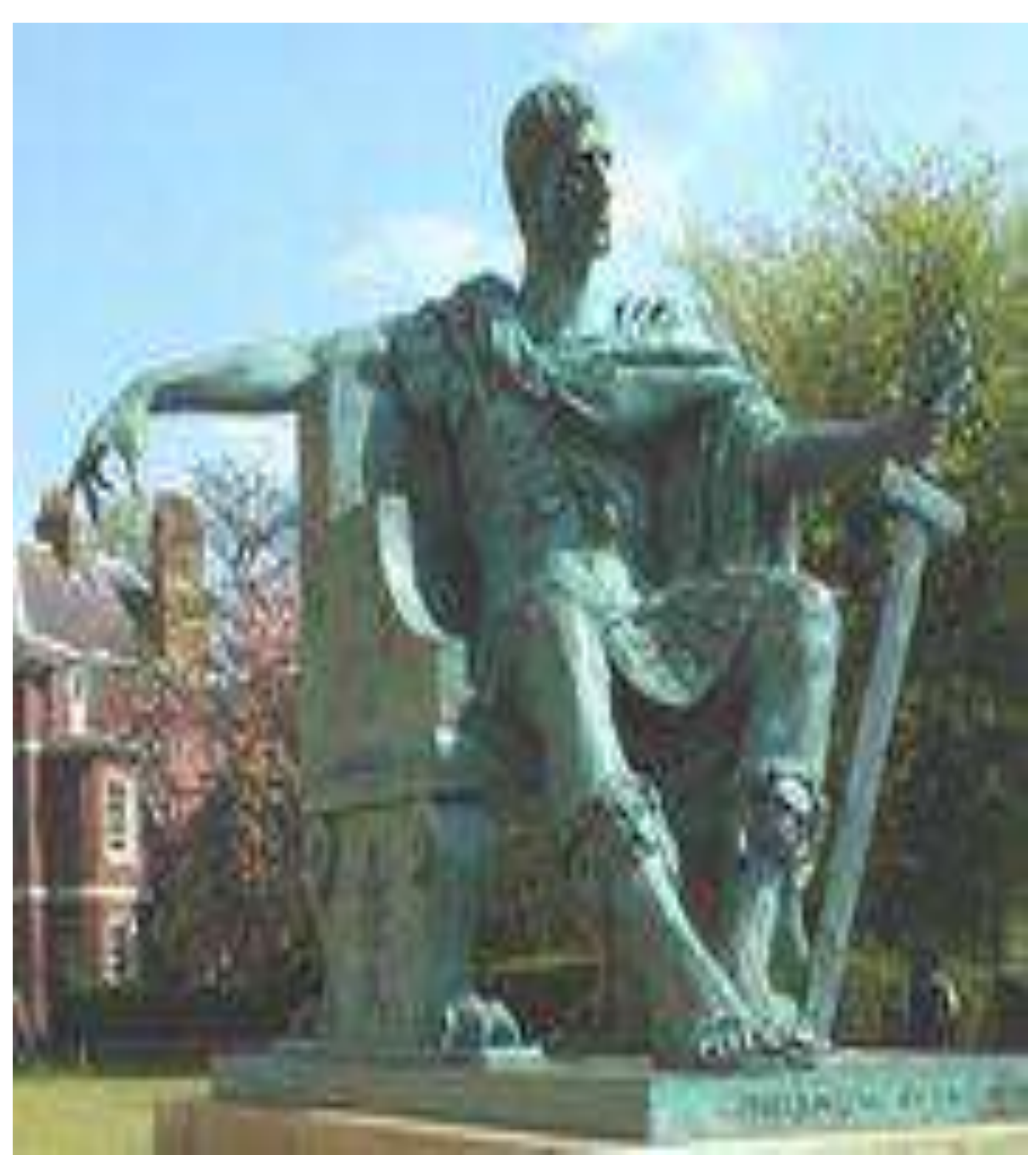
شكل (١) رأس قسطنطين الكبير في متحف الكابيتول

Constantine I, Op. Cit.



شكل (٢) نسخة طبق الأصل من رأس قسطنطيوس أب قسطنطين

Constantine I, Op. Cit.



شكل (٣) التمثال الفضي لقسطنطين في مدينة يورك بإنجلترا في المكان الذي نودي ببقسطنطين أغسطس إثر وفاة أبيه سنة ٣٠٦م

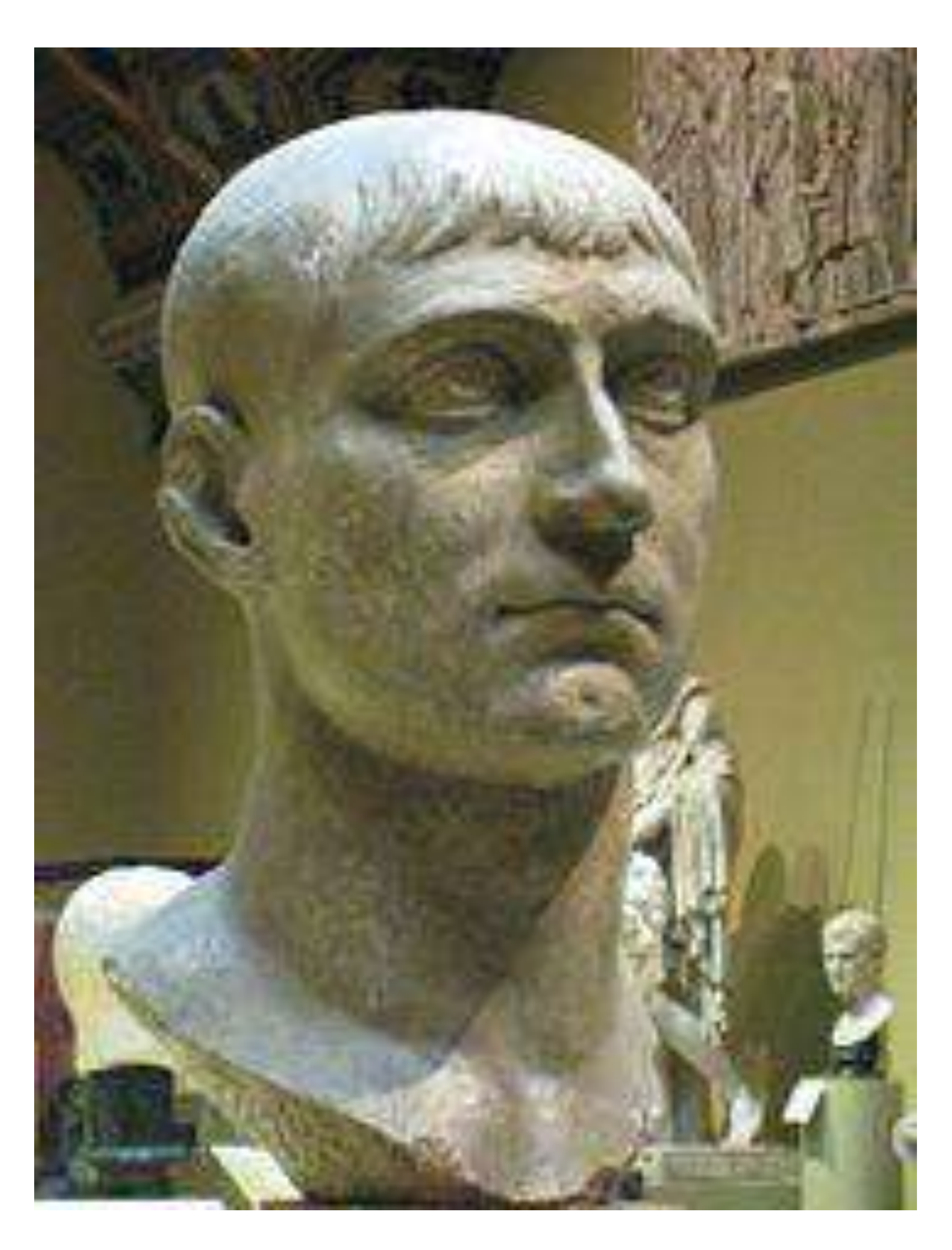
Constantine I, Op. Cit.



شكل (٤) الحمامات العامة التي بنيت من قبل قسطنطين في ترير

Constantine I, Op. Cit.

.



شكل (٥) تمثال نصفي لمكسنتيوس بن مكسيميان

Constantine I, Op. Cit..



شكل (٦) مجسم برنزي لرأس قسطنطين

Constantine I, Op. Cit.



شكل (٧) معركة جسر ملفيان رسم جوليو رومانو

Constantine I, Op. Cit..



شكل (٨) نقود ذهبية من زمن قسطنطين في سنة ٣١٣م

Constantine I, Op. Cit..



شكل (٩) عملة معدنية منذ عهد قسطنطين وعلى أحد وجوهها صورة قسطنطين والجهة الأخرى صورة إله الشمس التي لا تقهر يحمل العالم بيده اليسرى ورافعا اليمنى للأعلى.

Constantine I, Op. Cit.



شكل (١١) العيون المحدقة على عملة ذهبية في فترة متأخرة من زمن قسطنطين حيث مازالت الآثار الوثنية ظاهرة على العملة

Constantine I, Op. Cit.



شكل (١) رأس قسطنطين الكبير في متحف الكابيتول

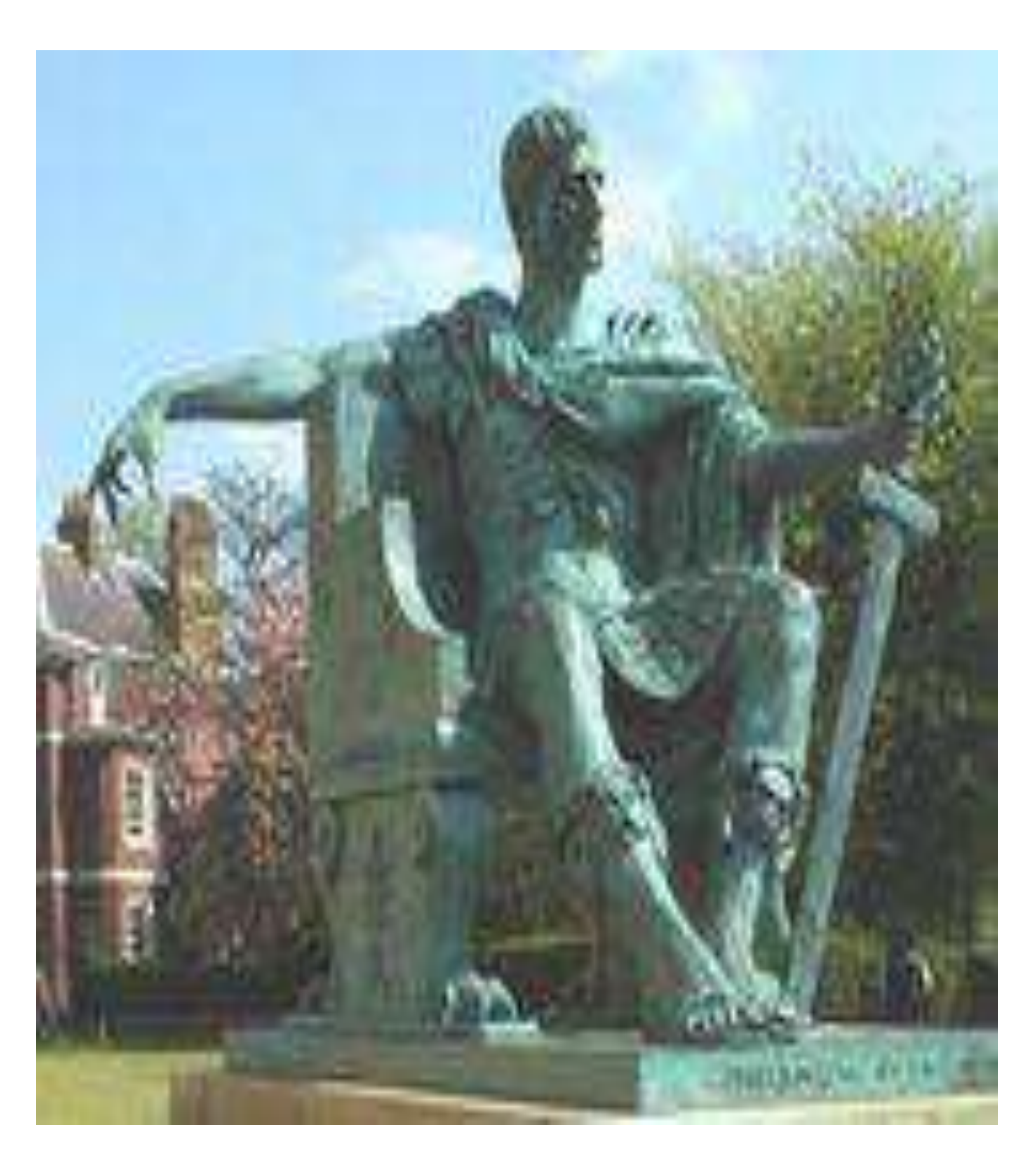
Constantine I, Op. Cir.



شكل (٢) نسخة طبق الأصل من رأس قسطنطيوس أب قسطنطين

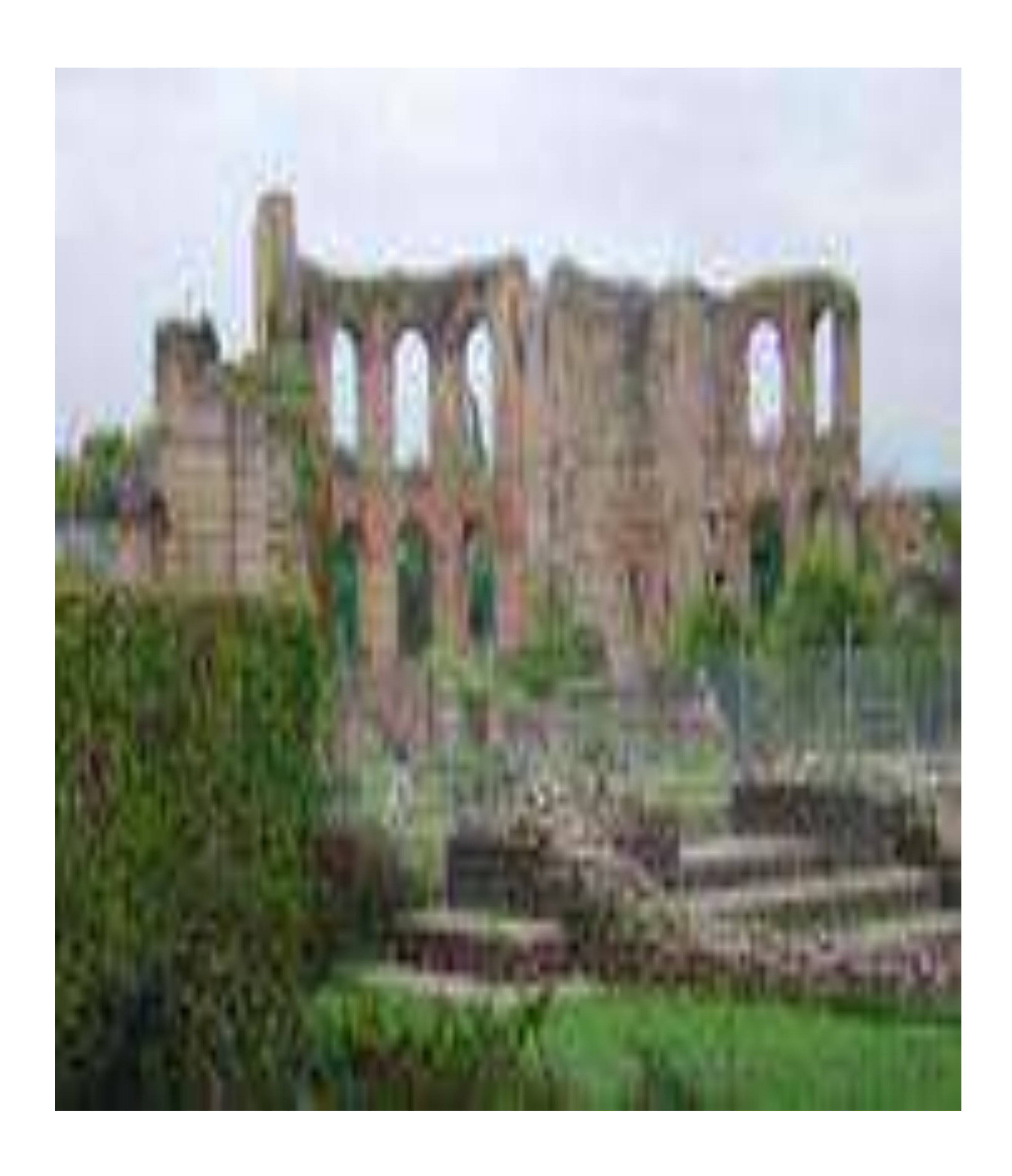
Constantine I, Op. Cir.

شكل (٣) التمثال الفضي لقسطنطين في مدينة يورك بإنجلترا في المكان الذي نودي
ببقسطنطين أغسطس إثر وفاة أبيه سنة ٣٠٦م



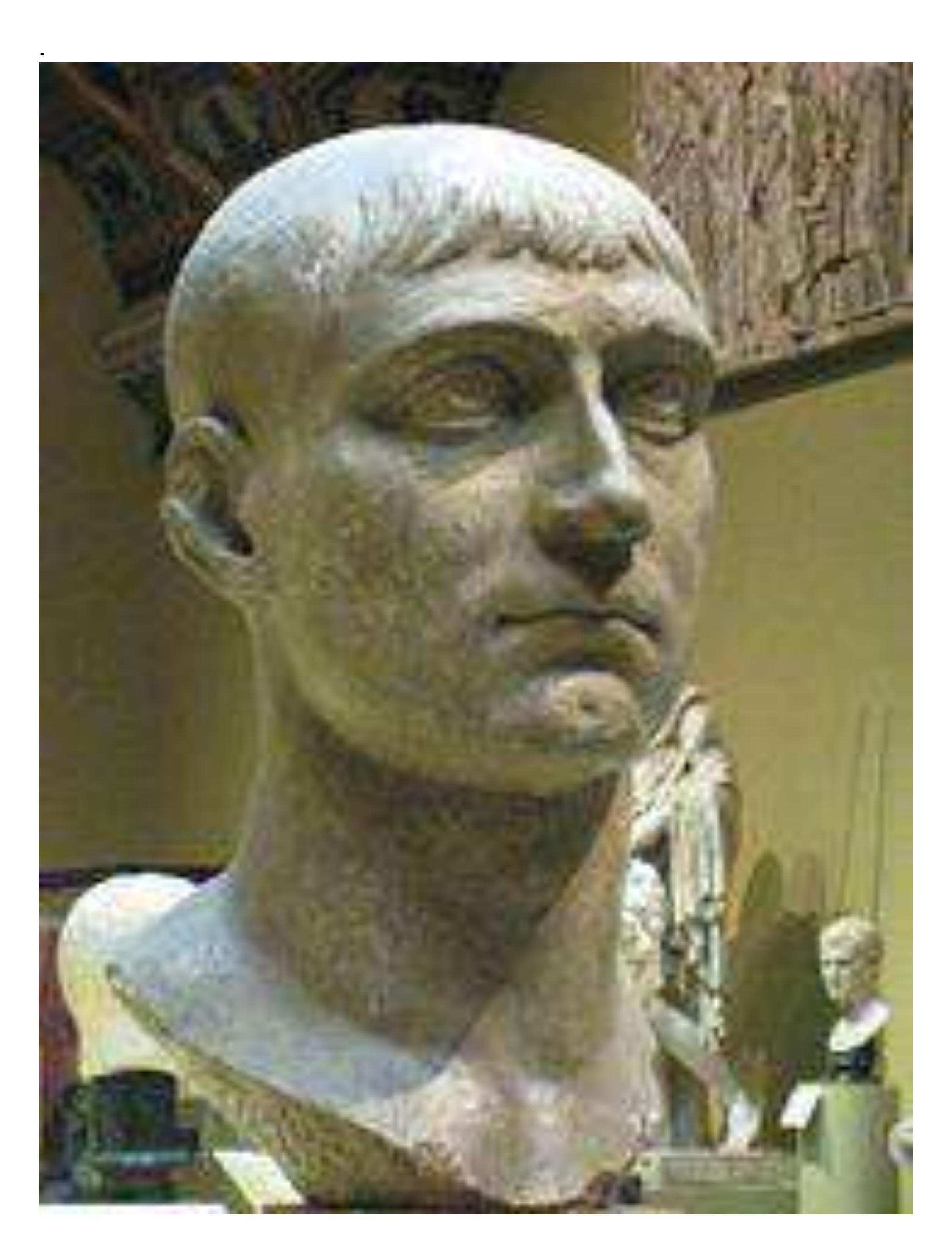
شكل (٣) التمثال الفضي لقسطنطين في مدينة يورك بإنجلترا في المكان الذي نودي
ببقسطنطين أغسطس إثر وفاة أبيه سنة ٣٠٦م

Constantine I, Op. Cir.



شكل (٤) الحمامات العامة التي بنيت من قبل قسطنطين في ترير
Constantine I, Op. Cir

.



شكل (٥) تمثال نصفي لمكسنتيوس بن مكسيميان

Constantine I, Op. Cir.



شكل (٦) مجسم برنزي لرأس قسطنطين

Constantine I, Op. Cir



شكل (٧) معركة جسر ملفيان رسم جوليو رومانو

Constantine I, Op. Cir.

اليمنى للأعلى.



شكل (٨) نقود ذهبية من زمن قسطنطين في سنة ٣١٣م

Constantine I, Op. Cir.



شكل (٩) عملة معدنية منذ عهد قسطنطين وعلى أحد وجوهها صورة قسطنطين والجهة الأخرى صورة إله الشمس التي لا تقهر يحمل العالم بيده اليسرى ورافعا اليمنى للأعلى.

Constantine I, Op. Cir



شكل (١١) العيون المحدقة على عملة ذهبية في فترة متأخرة من زمن قسطنطين
حيث مازالت الأثار الوثنية ظاهرة على العملة

Constantine I, Op. Cir